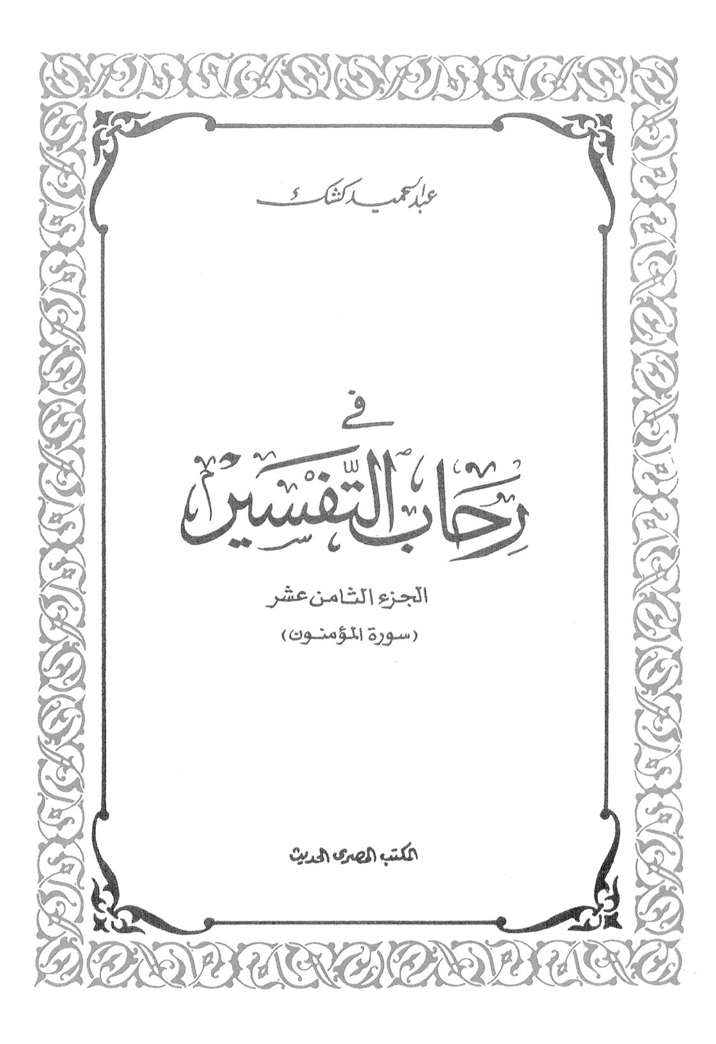


عبد الحميد كشك

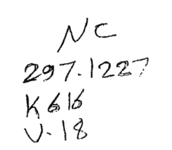
في رحاب التفسير

الجزء الثامن عشر

(سورة المؤمنون)

المكتب المصري الحديث

اهداءات ٢٠٠٢
أ/حسين كامل السيد بك فهمى
الاسكندرية



بسم الله الرحمن الرحيم

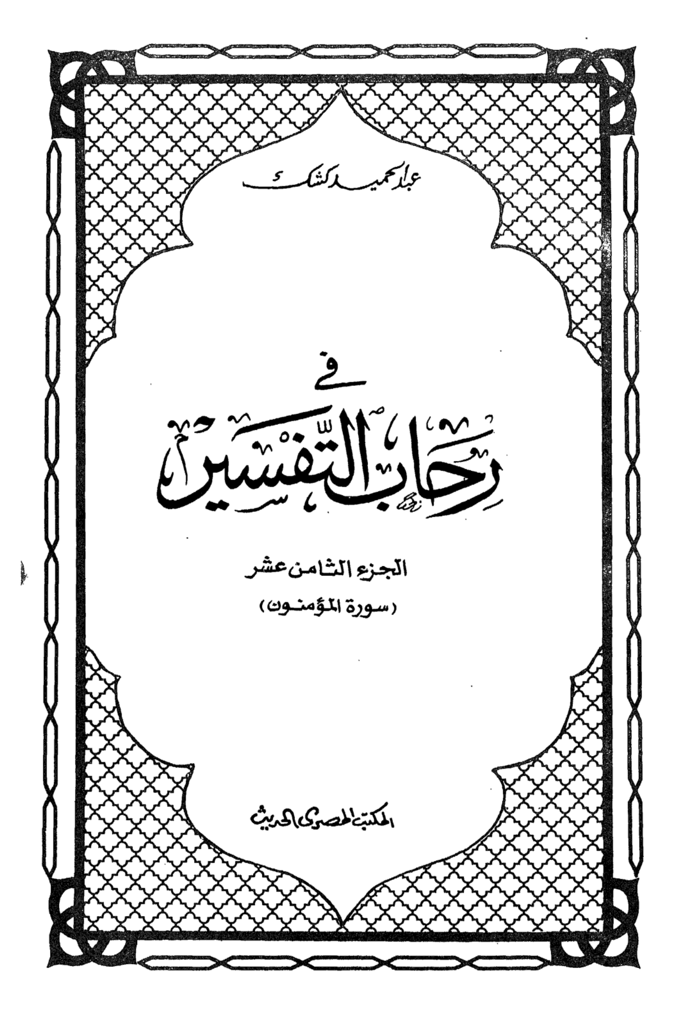


في رحاب التفسير

الناشر: المكتب المصرى الحديث

٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة - تليفون: ٣٩٣٤١٢٧

٧ شارع نوبار المنشية - الاسكندرية - تليفون: ٤٨٢٦٦٠٢



عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الثامن عشر

(سورة المؤمنون)

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

الأزهـــر
مجمـــع البحــوث الاســـلامية
الادارة العـــامة
للبحــوث والتـــأليف والترجمــة

السـيد / الأستاذ / مدير المكتب المصري الحديث (أحمد يحيى)

السـلام عليـكم ورحمــة اللــه وبركاته — وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : في رحاب التفسير الجزء الثاني عشر ...... تأليف : الشيخ / عبد الحميد كشك

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مـانع من طبعـه على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والاحاديث النبـوية الشريفـة .

واللــه المــوفق ،،،

والسـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

مدير عـام
ادارة البحوث والتـأليف والترجمـة

تحريرا في ٢٥ / ٧ / ١٤١٠ هـ
الموافق ٢٥ / ١٠ / ٨٩

« سورة المؤمنون »

قال صاحب البصائر : السورة مكية إجماعا ، وعدد آياتها مائة وثمانى عشرة عند الكوفيين ، وتسع عشرة عند الباقين ، وكلماتها ألف ومائتان وأربعون ، وحروفها أربعة آلاف وثمانمائة وواحد .

مقصود السورة

ومعظم ما اشتملت عليه : الفتوى بفلاح المؤمنين ، والدلالة على أخلاق أهل الإسلام ، وذكر العجائب فى تخليق الأولاد فى الأرحام ، والإشارة إلى الموت والبعث ، ومنة الحق على الخلق بإنبات الأشجار ، وإظهار الأنهار ، وذكر المراكب ، والإشارة إلى هلاك قوم نوح ، ومذمة الكفار وأهل الإنكار ، وذكر عيسى ومريم وإيوائهما إلى ربوة ذات قرار ، وإمهال الكفار فى المعاصى والمخالفات ، وبيان حال المؤمنين فى العبادات والطاعات ، وبيان حجة التوحيد ، وبرهان النبوات ، وذل الكفار بعد الممات ، وعجزهم فى جهنم حال العقوبات ، ومكافأتهم فى العقبى ، على حسب المعاملات فى الدنيا فى جميع الحالات ، وتهديد أهل اللهو واللغو والغفلات ، وأمر الرسول بدعاء الأمة وسؤال المغفرة لهم ، والرحمات فى قوله : ﴿ رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ .

المتشابهات

وقوله: ﴿ لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون ﴾ : ﴿ فواكه ﴾ بالجمع ﴿ ومنها ﴾ بالواو ، وفى الزخرف ﴿ فاكهة ﴾ على التوحيد ، ﴿ منها تأكلون ﴾ بغير واو ، راعى فى السورتين لفظ الجنة ، وكانت فى هذه ﴿ جنات ﴾ بالجمع ، فقال : ﴿ فواكه ﴾ بالجمع ، وفى الزخرف : ﴿ وتلك الجنة ﴾ بلفظ التوحيد ، وإن كانت هذه جنة الخلد لكن راعى اللفظ ، فقال: ﴿ فيها فاكهة ﴾ وقال فى هذه السورة : ﴿ ومنها تأكلون ﴾ بزيادة الواو ، لأن تقدير الآية : منها تدخرون ، ومنها تأكلون ، ومنها تبيعون ، وليست كذلك فاكهة الجنة ، فإنها للأكل فقط ، فلذلك قال : ﴿ منها تأكلون ﴾ .

ووافق هذه السورة ما بعدها أيضا ، وهو قوله : ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون ﴾ فهذا للقرآن معجزة وبرهان .

قوله : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ وبعده ﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا ﴾ فقدم ﴿ من قومه ﴾ فى الآية الأخرى ، وأخر فى الأولى لأن صلة ﴿ الذين ﴾ فى الأولى اقتصرت على الفعل وضمير الفاعل ، ثم ذكر بعده الجار والمجرور ، ثم ذكر المفعول وهو المقول ، وليس كذلك فى الأخرى ، فإن صلة الموصول طالت بذكر الفاعل والمفعول والعطف عليه مرة بعد أخرى ، فقدم الجار والمجرور ، لأن تأخيره يلتبس وتوسيطه ركيك ، فخص بالتقدم .

قوله : ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ وفى حم فصلت : ﴿ لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴾ لأن فى هذه السورة تقدم ذكر الله ، وليس فيه ذكر الرب ، وفى السجدة تقدم ذكر ﴿ رب العالمين ﴾ سابقا على ذكر لفظ الله ، فصرح فى هذه السورة بذكر الله ، وهناك بذكر الرب ، لإضافته إلى العالمين ، وهم من جملتهم ، فقالوا إما اعتقادا ، وإما استهزاء : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، فأضافوا الرب إليهم .

قوله : ﴿ واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم ﴾ وفى سبأ : ﴿ إنى بما تعملون بصير ﴾ كلاهما من وصف الله سبحانه ، وخص كل سورة بما وافق فواصل الآى .

قوله : ﴿ فبعدا للقوم الظالمين ﴾ بالألف واللام ، وبعده : ﴿ لقوم لا يؤمنون ﴾ لأن الأول لقوم صالح ، نعرفهم بدليل قوله : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ والثانى نكرة وقبله :﴿ قرونا آخرين ﴾ وكانوا منكرين ، ولم يكن معهم قرينة عرفوا بها ، فخصوا بالنكرة .

قوله : ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ﴾ وفى النمل : ﴿ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ﴾ لأن ما فى (هذه) السورة على القياس ، فإن الضمير المرفوع المتصل لا يجوز العطف عليه حتى يؤكد بالضمير المنفصل ، فأكد ﴿ وعدنا نحن ﴾ ثم عطف عليه ﴿ آباؤنا ﴾ ثم ذكر المفعول وهو ﴿ هذا ﴾ وقدم فى النمل المفعول موافقة لقوله:﴿ ترابا ﴾ لأن القياس فيه أيضا : كنا نحن وآباؤنا ترابا فقدم ﴿ ترابا ﴾ ليسد مسد نحن ، وكانا متوافقين .

قوله : ﴿ سيقولون لله ﴾ وبعده : ﴿ سيقولون لله ﴾ وبعده:﴿ سيقولون لله ﴾ الأول جواب ، لقوله:﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ﴾ جواب مطابق لفظا ومعنى ، لأنه قال فى السؤال : ﴿ قل لمن ﴾ فقال فى الجواب : ﴿ لله ﴾ وأما الثانى والثالث فالمطابق فيهما فى المعنى ، لأن القائل إذا قال لك : من مالك هذا الغلام ؟ فلك أن تقول : زيد ، فيكون مطابقاً لفظا ومعنى ، ولك أن تقول لزيد فيكون مطابقا للمعنى ، ولهذا قرأ أبو عمر،والثانى والثالث : ﴿ الله ﴾ ﴿ الله ﴾ مراعاة للمطابقة .

قوله : ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم ﴾ وقبله ﴿ قد كانت آياتى تتلى عليكم ﴾ ليس بتكرار ، لأن الأول فى الدنيا عند نزول العذاب وهو الجدب عند بعضهم ، ويوم بدر عند البعض ، والثانى فى القيامة وهم فى الجحيم ، بدليل قوله : ﴿ ربنا أخرجنا منها ﴾ .

وقد جاء فى فضلها ماروى عن عائشة-رضى الله عنها-أن بعض الصحابة قالوا لعائشة : كيف كان خلق رسول الله ؟ قالت : ﴿ كان خلقه القرآن ﴾ [(١)] ثم قرأت:﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾حتى انتهت إلى ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ هكذا كان خلق رسول الله ﷺ .

مناسبتها لما قبلها

وذلك من وجوه :

(١) أنه تعالى ختم السورة السابقة بخطاب المؤمنين ، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وفعل الخيرات لعلهم يفلحون ، وحقق فلاحهم فى بدء هذه السورة .

(٢) أنه تكلم فى كل من السورتين فى النشأة الأولى ، وجعل ذلك دليلا على البعث والنشور .

(٣) وأن فى كل من السورتين قصصا للأنبياء الماضين وأممهم ، ذكرت عبرة للحاضرين والآتين .

(٤) أنه نصب فى كل منها أدلة على وجود الخالق ووحدانيته .

---

(١) أخرجه مسلم فى المسافرين : ١٣٩ - وأبو داود فى التطوع : ٢٦ . والترمذى فى البر : ٦٩ . والنسائى فى قيام الليل : ٢ . وابن ماجه فى الأحكام : ١٤ . والدارمى فى الصلاة : ١٦٥ . والإمام أحمد فى ٦ : ٥٤ ، ٩١ ، ١١١ ، ١٦٣ ، ١٨٨ ، ٢١٦ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

تفسير المفردات

الفلاح : الظفر بالمراد .

وأفلح : دخل فى الفلاح . **كأبشر** : دخل فى البشارة .

والمؤمن : هو المصدق بما جاء عن ربه على لسان نبيه من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء .

والخاشع : هو الخاضع المتذلل مع خوف وسكون للجوارح .

واللغو : هجر القول وقبيحه .

والزكاة : تزكية النفس وطهارتها بفعل العبادة المالية .

والفرج : سوءة الرجل والمرأة .

وحفظه : التعفف عن الحرام .

وابتغى : طلب .

وراء ذلك : أى غير ذلك .

والعادون : أى المتناهون فى العدوان ومجاوزة الحدود الشرعية .

والأمانات : واحدها أمانة،وهى ما ائتمن المرء عليه من قبل الله كالتكاليف الشرعية،أو من قبل الناس كالأموال المودعة لديه،والنذور والعقود ونحوها .

والعهد : ما عقده الإنسان على نفسه مما يقربه إلى ربه وما أمر به الله كما قال : ﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا** ﴾[1] .

والرعى : الحفظ .

---

(١) الآية ١٨٣ من سورة آل عمران .

والراعى : القائم على الشيء لحفظه وإصلاحه .
يحافظون : أى يواظبون عليها .
الفردوس : أعلى الجنة .

التفسير

روى الإمام أحمد-رضى الله عنه-بسنده عن عبدالرحمن بن عبدالقارى قال:سمعت عمر بن الخطاب يقول : كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل ، فلبثنا ساعة ، فاستقبل القبلة ، ورفع يديه ، وقال : (اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا[1] . ثم قال : لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة) ثم قرأ: ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ حتى ختم العشر .

وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وأبى العالية وغيرهم :(لما خلق الله جنة عدن وغرسها بيده نظر إليها ، وقال لها : تكلمى . فقالت:﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ قال كعب الأحبار : لما أعد لهم من الكرامة فيها،وقال أبو العالية : فأنزل الله ذلك فى كتابه) .

وقال البزار :(حائط الجنة لبنة ذهب ولبنة فضة،وملاطها المسك فقال لها،تكلمى،فقالت:﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ فقالت الملائكة : طوبى لك منزل الملوك) .

وعن أنس-رضى الله عنه-قال : قال رسول الله ﷺ : (خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ، ولبنة من ياقوتة حمراء ، ولبنة من زبرجدة خضراء ، ملاطها المسك ، وحصاؤها اللؤلؤ ، وحشيشها الزعفران ، ثم قال لها : انطقى . قالت:﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ فقال الله : وعزتى وجلالى لا يجاورنى فيك بخيل . ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[2] .

بدأ الله هذه السورة الكريمة بحرف يفيد التحقيق وهو (قد) وذلك من باب التوكيد لوعد الله لهؤلاء بالفلاح .

قوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ :

هذا حكم الله للمؤمنين بالفلاح ، والله إذا حكم صدق ولا معقب لحكمه ، وهذا قضاء الله للمؤمنين بالسعادة والفوز ، والله إذا قضى فلا راد لقضائه ، يقول الحق ولا يقول غير الحق لأنه الحق ، وفى هذه الآية الكريمة التى تفيض نورا ورحمة ما يدل على ثبوت الفلاح للمؤمنين ثبوتا قطعيا مؤكدا ، بحرف (قد) .

فمن هؤلاء الذين استحقوا هذا الشرف ، ونالوا تلك الرتبة ، وفازوا بهذه الدرجة العظمى ، وتمتعوا بحكم الله الصادق ؟

إنهم المؤمنون ، أى:المتصفون بالإيمان ، والإيمان كلمة مدلولها الصدق اليقينى ، ومحله القلب ، كما قال تعالى : ﴿ **أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه** ﴾[3] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٤ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٣ : ١ .
(٢) الآية ٩ من سورة الحشر .
(٣) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .

وقال تعالى : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾[١] .

وقال جل شأنه : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ﴾[٢] .

فما مدلول هذه الكلمة ؟ وما مدلول صفات أصحابها ؟ بين الرسول ﷺ مدلول الإيمان فى حديث شريف قال فيه : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)[٣] .

فإذا ما نحن قرأنا كتاب الله وجدناه قد حدد للمؤمنين صفات ، وبين لهم مبادىء التزموها ، وساروا على نهجها ، فاستحقوا هذه الصفة صفة المؤمنين ، فمن هذه المبادىء موقفهم من ضرب الأمثال فى القرآن ، قال تعالى : ﴿ إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾[٤] .

وعلى الطرف الآخر موقف الكافرين .

قال تعالى : ﴿ وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾[٥] .

موقف المؤمنين الثبات على مبدأ الحق ، وهو موقف تزول الجبال ولا يزول ، الحق من الله ، لأن الله لا يقول إلا الحق .

ويقول الله فى شأنهم أيضا :

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[٦] .

وهذا ما أكده حديث رسول الله الذى سبق ذكره .

وهذا أيضا توكيد لما سبق فى أول سورة البقرة ، فى قوله تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾[٧] .

والمؤمنون لا يعرفون الوهن ولا الحزن ، إنهم فوق الأحداث ، لا تلين قناتهم ، إذا عربد الباطل فى عرضات الدنيا .

لقد قال الله فى شأنهم : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾[٨] .

---

(١) الآية ١٠٦ من سورة النحل .

(٢) الآية ٧ من سورة الحجرات .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١ ، ٧ . وأبو داود فى السنة : ١٦ . والترمذى فى القدر : ١٠ ، وفى الإيمان : ٤ . والنسائى فى الإيمان : ٥ ، ٦ . وابن ماجة فى المقدمة : ٩ ، ١٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٢ ، ٩٧ ، ١٣٣ ، ٣١٩ ، وفى ٢ : ١٠٧ ، ١٨١ .

(٤) الآية ٢٦ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٢٦ من سورة البقرة .

(٦) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

(٧) الآيات ٣ ـ ٥ من سورة البقرة .

(٨) الآيات ١٣٩ ـ ١٤١ من سورة آل عمران .

والمؤمنون إذا نزلوا ميدان القتال قاتلوا فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، قال جل شأنه : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ﴾(١) .

ثم بين على الطرف الآخر الفريق المضاد فقال : ﴿ والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾ .

والمؤمنون-كما وصفهم الله-أوفياء بالعقود والعهود ، لا يعرفون نقضها أو مخالفتها .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾(٢) .

ولا يعرفون ولاية إلا لله ورسوله والمؤمنين .

قال تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾(٣) .

والمؤمنون كما وصفهم الله فى قوله : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾(٤) .

والمؤمنون ثابتون عند التقاء الصفوف ، ذاكرون لله ، قال الله تعالى يخاطبهم:﴿ ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾(٥) .

وهم الذين تواصوا فيما بينهم على المحبة والنصرة ، قال الله فى شأنهم :﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ﴾(٦) .

وهم الذين عقد الله معهم ذلك العقد الخالد فقد اشترى الأنفس والأموال وأعطاهم الجنة ، ووصفهم بصفات الحسن والكمال والفضيلة ، والتنزه عن الدنيا .

قال سبحانه : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾(٧) .

وهم الذين وصفهم الله بقوله :﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾(٨) .

وقال فى شأنهم : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾(٩) .

وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم

(١) الآية ٧٦ من سورة النساء .
(٢) الآية الأولى من سورة المائدة .
(٣) الآية ٥٥ من سورة المائدة .
(٤) الآيات ٢ - ٤ من سورة الأنفال .
(٥) الآية ٤٥ من سورة الأنفال .
(٦) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٧) الآيتان ١١١ ، ١١٢ من سورة التوبة .
(٨) الآية ١٠ من سورة الحجرات .
(٩) الآية ١٥ من سورة الحجرات .

بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾(١) .

والمؤمنون هم الذين وقفوا موقف الالتزام عند قوله تعالى : **﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾** (٢) .

ووقفوا موقف الالتزام عند قوله جل شأنه : **﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾**(٣) .

وعند قوله تعالى : **﴿ ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾** (٤) .

وعند قوله جل شأنه : **﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾** (٥) .

والمؤمنون هم الذين اتبعوا الإرشاد فى قوله جل شأنه : **﴿ ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾** (٦) .

وهم الذين استثناهم الله فى قوله : **﴿ والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾** (٧) .

إن هؤلاء المؤمنين عرفوا الحق حقا فاتبعوه ، ورأوا الباطل باطلا فاجتنبوه ، التزموا الأوامر ، واجتنبوا النواهى ، وقفوا عند حدود الله موقف السمع والطاعة ، كانوا كما قال الله : **﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا . ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾**(٨) .

وكانوا كما قال الله : **﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾** (٩) .

هذه صورة قرآنية صادقة للمؤمنين الذين استحقوا أن يحكم الله لهم بالفلاح ، فى قوله : **﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾** فلاح فى الدنيا والآخرة ، كما وعد الله تعالى فى قوله : **﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾**(١٠) .

استحقوا أن يقول الله فى شأنهم : **﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾**

---

(١) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .
(٢) الآيتان ١٨ ، ١٩ من سورة الحشر .
(٣) الآية ١ من سورة الممتحنة .
(٤) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الصف .
(٥) الآية ٩ من سورة المنافقون .
(٦) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الصف .
(٧) سورة العصر .
(٨) الآيتان ١٣٥ ، ١٣٦ من سورة النساء .
(٩) الآية ٥١ من سورة النور .
(١٠) الآية ٥٥ من سورة النور .

وكانوا أهلا لرحمة الله عندما قال فى حقهم : ﴿ أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ [(١)] .

وكانوا أهلا لنصر الله : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [(٢)] .

﴿ يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ [(٣)] .

وكانوا جديرين بالحياة الطيبة : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [(٤)] .

وكانوا أهلا لطمأنينة القلب :﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ [(٥)] .

وكانوا أهلا لأن يشكر الله سعيهم:﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ [(٦)] .

وكانوا أهلا لهذا الجزاء الربانى:﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [(٧)] .

ونالوا نعمة السكينة فى القلوب : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ [(٨)] .

وفازوا بهذا الفضل العظيم الذى بينه الله فى قوله : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ [(٩)] .

واستحقوا أن يكونوا أصحاب الميمنة كما قال تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . أولئك أصحاب الميمنة ﴾ [(١٠)] .

وتشرفوا بأن يكونوا حزب الله كما قال جل شأنه : ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ [(١١)] .

واستثناهم الله من الذين انحدروا فى الأوحال حيث قال جل شأنه : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ [(١٢)].

فهنيئا لكم ما أصبحتم فيه ، يامن طهرت قلوبكم من الحقد ، وألسنتكم من الزلل ، وأيديكم من الخطيئة ، وأعينكم من الرذيلة ، وسمعكم من النقائص .

هنيئا لكم يامن حكم الله لكم بالفلاح ، وإنها لدرجة لا يستحقها إلا أنتم يا أصحاب القلوب الطيبة ، يامن قال الله فى شأنكم : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى

---

(١) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٢) الآية ٥١ من سورة غافر .
(٣) الآية ٧ من سورة محمد .
(٤) الآية ٩٧ من سورة النحل .
(٥) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الرعد .
(٦) الآية ١٩ من سورة الإسراء .
(٧) الآية ٧٢ من سورة التوبة .
(٨) الآية ٤ من سورة الفتح .
(٩) الآية ٤ من سورة الأنفال .
(١٠) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة البلد .
(١١) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .
(١٢) الآيات ٤ ـ ٦ من سورة الزيتون .

هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ .

الخشوع فى الصلاة:حضور القلب وسكون الجوارح ، **قيل** لحاتم الأصم رضى الله عنه : (كيف أنت إذا دخلت الصلاة ؟ فقال : إذا دخلت الصلاة جعلت الكعبة أمامى ، والموت ورائى ، والجنة عن يمينى ، والنار عن شمالى ، والصراط تحت قدمى ، معتقدا أن الله مطلع علىَّ ، ثم أتم ركوعها وسجودها ، فإذا سلمت لا أدرى أقبلها الله أم ردها علىَّ) .

حسبك أن تعلم أن الصلاة هى الفريضة الوحيدة التى فرضت على النبى وأمته فى السماء وهذا مما يدل على أنها صلة واتصال وثيق بين العبد وربه،وعلى علو مكانتها ورفعة درجتها،وها نحن أولا نلقى بعض الأضواء على تلك الفريضة حتى يكون المسلم على بصيرة من أحكامها.والله ولى التوفيق .

تعريفها :

الصلاة عبادة تتضمن أقوالا وأفعالا مخصوصة ، مفتتحة بتكبير الله تعالى ، مختتمة بالتسليم .

منزلتها فى الإسلام :

وللصلاة فى الإسلام منزلة لا تعدلها منزلة أية عبادة أخرى ، فهى عماد الدين الذى لا يقوم إلا به ، قال رسول الله ﷺ : (رأس الأمر الاسلام،وعموده الصلاة،وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله)[٢] .

وهى أول ما أوجبه الله تعالى من العبادات،تولى إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج من غير واسطة .

قال **أنس** : (فرضت الصلاة على النبى ﷺ ليلة أسرى به خمسين ثم نقصت حتى جعلت خمسا ثم نودى يامحمد : إنه لا يبدل القول لدى وإن لك بهذه الخمس خمسين)[٣] . رواه أحمد والنسائى والترمذى وصححه .

وهى أول ما يحاسب عليه العبد . نقل عبدالله بن قرط قال : قال رسول الله ﷺ : (أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله) . رواه الطبرانى .

وهى آخر وصية وصى بها رسول الله ﷺ أمته عند مفارقة الدنيا جعل يقول ـ وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ـ : (الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم) .

وهى آخر ما يفقده من الدين فإن ضاعت ضاع الدين كله . قال رسول الله ﷺ : (لتنقض عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها ، فأولهن نقضا الحكم وآخرهن

---

(١) الآية ٣٠ من سورة النحل .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى الفتن : ١٢ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٣) أخرجه البخارى فى الصلاة : ١ . والترمذى فى الصلاة : ٤٥ . والنسائى فى الصلاة : ١ .

الصلاة) . رواه ابن حبان من حديث أبي أمامة .

والمتتبع لآيات القرآن يرى أن الله سبحانه يذكر الصلاة ويقرنها بالذكر تارة : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكرولذكر الله أكبر** ﴾[١] . (قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى)[٢] . ﴿ **وأقم الصلاة لذكرى** ﴾[٣] .

وتارة يقرنها بالزكاة : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾[٤] . ومرة بالصبر : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾[٥] . وطورا بالنسك : ﴿ **فصل لربك وانحر** ﴾[٦] . ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾[٧] .

وأحيانا يفتتح بها أعمال البر ، ويختتمها بها كما فى سورة : سأل « المعارج » وفى أول سورة المؤمنون : ﴿ **قد أفلح المؤمنون.الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ . إلى قوله : ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون.أولئك هم الوارثون.الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾ .

وقد بلغ من عناية الإسلام بالصلاة أن أمر بالمحافظة عليها فى الحضر والسفر ، والأمن والخوف فقال تعالى : ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون** ﴾[٨] .

وقال مبينا كيفيتها فى السفر والحرب والأمن : ﴿ **وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا . وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا . فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا** ﴾[٩] .

وقد شدد النكير على من يفرط فيها ، وهدد الذين يضيعونها ، فقال جل شأنه : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا** ﴾[١٠].

وقال : ﴿ **فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون** ﴾[١١].

ولأن الصلاة من الأمور الكبرى التى تحتاج إلى هداية خاصة ، سأل إبراهيم-عليه السلام-ربه أن يجعله هو وذريته مقيما لها فقال : ﴿ **رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء** ﴾[١٢] .

حكم ترك الصلاة :

ترك الصلاة جحودا بها وإنكارا لها كفر وخروج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين ، أما من تركها

---

(١) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .
(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الأعلى .
(٣) الآية ١٤ من سورة طه .
(٤) الآية ٤٣ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٤٥ من سورة البقرة .
(٦) الآية ٢ من سورة الكوثر .
(٧) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .
(٨) الآيتان ٢٣٨ ، ٢٣٩ من سورة البقرة .
(٩) الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة النساء .
(١٠) الآية ٥٩ من سورة مريم .
(١١) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة الماعون .
(١٢) الآية ٤٠ من سورة إبراهيم .

مع إيمانه بها واعتقاده فرضيتها ولكن تركها تكاسلا أو تشاغلا عنها بما لا يعد فى الشرع عذرا ، فقد صرحت الأحاديث بكفره ، ووجوب قتله .

أما الأحاديث المصرحة بكفره فهى :

١ ـ عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : (بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة) (١) . رواه أحمد ومسلم ، وأبو داود ،والترمذى ،وابن ماجه .

٢ ـ وعن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : (العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) (٢) . رواه أحمد وأصحاب السنن .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ أنه ذكر الصلاة يوما فقال : (من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورا ولا برهانا ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف) (٣) . رواه أحمد والطبرانى .

وكون تارك المحافظة على الصلاة مع أئمة الكفر فى الآخرة . يقتضى كفره ، قال ابن القيم : تارك المحافظة على الصلاة إما أن يشغله ماله أو ملكه أو رياسته أو تجارته ، فمن شغله عنها ماله فهو مع قارون ، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون ، ومن شغله عنها رياسته ووزارته فهو مع هامان ، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أبى بن خلف . .

وعن عبد الله بن شقيق العقيلى قال : (كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة) . رواه الترمذى .

وقال محمد بن نصر المحروزى : سمعت إسحاق يقول : (صح عن النبى ﷺ : أن تارك الصلاة كافر) وكذلك كان رأى أهل العلم من لدن محمد ﷺ أن تارك الصلاة عمدا من غير عذر حتى يذهب وقتها كافر .

وقال ابن حزم:وقد جاء عن عمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبى هريرة وغيرهم من الصحابة : أن من ترك صلاة فرض واحدة متعمدا حتى يخرج وقتها فهو كافر مرتد ، ولا نعلم لهؤلاء الصحابة مخالفا . ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب .

ثم قال : قد ذهب جماعة من الصحابة ومن بعدهم إلى تكفير من ترك الصلاة . متعمدا تركها حتى يخرج جميع وقتها ، منهم عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبدالله بن عباس ، ومعاذ بن جبل ، وجابر بن عبد الله ، وأبو الدرداء رضى الله عنهم ، ومن غير الصحابة أحمد بن حنبل ، وإسحق بن راهويه ، وعبد الله بن المبارك ، والنخعى ، والحكم بن عتيبة ، وأبو أيوب السختيانى ، وأبو داود الطيالسى ، وأبو بكر بن أبى شيبة ، وزهير بن حرب وغيرهم رحمهم الله تعالى .

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٣٤ . وأبو داود فى السنة : ١٥ . والترمذى فى الإيمان : ٩ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٧ . والدارمى فى الصلاة : ٢٩ .

(٢) أخرجه النسائى فى الصلاة : ٨ . والترمذى فى الإيمان : ٩ . وابن ماجه فى الإقامة : ٧٧ ، ٧٨ ، وفى الفتن : ٢٣ . والإمام أحمد فى ٥ : ٣٤٦ ، ٣٥٥ .

(٣) أخرجه الدارمى فى الرقاق : ١٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٢٩ .

والأحاديث المصرحة بوجوب قتله فهى :

عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : (عرى الإسلام وقواعد الدين ثلاثة عليهن أسس الإسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله، والصلاة المكتوبة، وصوم رمضان) . رواه أبو يعلى بإسناد حسن . وفى رواية أخرى : (من ترك منهن واحدة بالله كافر ولا يقبل منه صرف ولا عدل - أى: لا يقبل منه فرض ولا نفل - وقد حل دمه وماله) . .

وعن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الاسلام وحسابهم على الله عز وجل) (١) . رواه البخارى ومسلم .

وعن أم سلمة : أن رسول الله ﷺ قال : (إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضى وتابع . قالوا يارسول الله : ألا نقاتلهم ؟ قال : لا ، ما صلوا) (٢) . رواه مسلم .

جعل المانع من مقاتلة أمراء الجور الصلاة .

وعن أبى سعيد قال : بعث على - وهو اليمنى - إلى النبى ﷺ بذهيبة قسمها بين أربعة، فقال رجل: يارسول الله اتق الله . فقال : (ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقى الله ؟) ثم ولى الرجل فقال خالد بن الوليد : يارسول الله ألا أضرب عنقه ؟ فقال: لا لعله أن يكون يصلى فقال خالد : وكم من رجل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . فقال النبى ﷺ : (إنى لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس . ولا أشق بطونهم) (٣) . مختصر من حديث للبخارى ومسلم وفى هذا الحديث أيضا جعل الصلاة هى المانعة من القتل، ومفهوم هذا أن عدم الصلاة يوجب القتل .

فعليك أيها الأخ المسلم أن تحافظ على الصلاة فى أوقاتها ، فإن أول ما تحاسب عليه يوم القيامة الصلاة ، وعليك أن تستحضر عظمة الله فى قلبك ، وأن تصلى صلاة مودع ، فالصلاة عماد الدين ، وأساس الإسلام ، وقد مدح الله تعالى من أداها بشروطها وأركانها وسننها فقال : **﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾** .

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ١٧ ، وفى الزكاة : ١ ، وفى الصلاة : ٢٨ ، وفى الاستتابة : ٣ ، وفى الاعتصام : ٢ ، ٢٨ . ومسلم فى الإيمان : ٣٢ . وأبو داود فى الزكاة : ١ ، وفى الجهاد : ٩٥ . والترمذى فى الإيمان : ١ ، ٢ ، وفى تفسير سورة ٨٨ . والنسائى فى الزكاة : ٣ ، وفى الإيمان : ١٥ ، وفى الجهاد : ١ ، وفى التحريم : ١ .

(٢) أخرجه مسلم فى الإمارة : ٦٢ - ٦٤ . وأبو داود فى السنة : ٢٧ . والترمذى فى الفتن : ٧٨ . والنسائى فى الإيمان : ١٧ . والإمام أحمد فى ٦ : ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٢١ .

(٣) أخرجه البخارى فى المغازى : ٦١ . ومسلم فى الزكاة : ١٤٤ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤ .

قوله تعالى : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ .

وقد فسر اللغو بتفسيرات منها : أنه الباطل ، وهو يشمل الشرك والمعاصى ومالا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ [١] . فى صفة عباد الرحمن ، كما قال جل شأنه : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾ [٢] . وقال تبارك اسمه : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾[٣] .

قال قتادة : أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك .

بمكارم الأخلاق كن متحليا	واصدق وجد نافس الأبطالا
والله فاعبد واستقم وتصدقن	وادع الشكور فلا يرد سؤالا
قل ماتشاء ففضل ربى واسع	والله وهاب قضى وأنالا
قد نلت ثانية بفضل حديثه	أعطيت ما أهوى وأصلح بالا

فقد أدبنا الإسلام بأدب الصمت حتى لا يقع اللسان فى اللغو ، فهاك ما جاء على لسان نبى البر وإمام الهدى ، أستاذ الإنسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء محمد ﷺ وما ذكره العلماء فى التأدب بالصمت والبعد عن اللغو :

● عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قلت:يارسول الله أى المسلمين أفضل ؟ قال : (من سلم المسلمون من لسانه ويده)[٤] . رواه البخارى ومسلم والنسائى .

● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) [٥] . رواه البخارى ومسلم .

● وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله : أى الأعمال أفضل ؟ قال : (الصلاة على ميقاتها) قلت : ثم ماذا يارسول الله ؟ قال :(أن يسلم الناس من لسانك) . رواه الطبرانى بإسناد صحيح وصدره فى الصحيحين .

● وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله علمنى عملا يدخلنى الجنة ؟ فقال : (إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة : أعتق النسمة ، وفك الرقبة ، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر،فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا عن خير) [٦] . مختصر رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى .

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٥٥ من سورة القصص .

(٣) الآية ٦٨ من سورة الأنعام .

(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٤ ، ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٦٤ ، ٦٥ . وأبو داود فى الجهاد : ٢ . والترمذى فى القيامة : ٥٢ . والنسائى فى الإيمان : ٨ ، ٩ ، ١١ . والدارمى فى الرقاق : ٤ ، ٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٦٠ ، ١٦٣ ، ٣٧٩ ، وفى ٣ : ١٥٤ .

(٥) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٤ ، وفى الرقاق : ٢٦ . وأبو داود فى الوتر : ٢ ، ١٢ . والنسائى فى الإيمان : ٩ . وابن ماجه فى الفتن : ٢ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٦٢ ، ١٩٢ ، ٢٠٥ .

(٦) أخرجه الامام أحمد فى ٤ : ٢٩٩ .

المعنى :

قصرت الخطبة : أى إن كنت أفصحت عن غرضك باختصار وبلاغة تعبير وحسن بيان .

أعرضت المسألة : لقد أجدت فى إظهار طلبك وأحسنت بيانا .

أعتق النسمة : النسمة: الروح ، أى: أعتق ذا روح وكل دابة فيها روح فهى نسمة .

وإنما يريد الناس : ومنه حديث على (والذى فلق الحبة وبرأ النسمة) أى: خلق ذات الروح .

فك الرقبة : أطلقها من الأسر وأزال أغلال حبسها ومدها بالحرية ونعمة الحياة الرغدة ، قال تعالى : ﴿ **فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة** ﴾ .

أى: فلم يعمل فى حياته ما يساعده على اجتياز منطقة الأهوال بإزالة أسر النفس الذليلة ، وقد قال عمر : (متى استعبدتم الناس وقد **ولدتهم** أمهاتهم أحرارا) .

وأمر بالمعروف : انصح وأرشد إلى سبل الخير ، وامنع الناس عن ارتكاب المعاصى ، ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

إلا عن خير : احذر النطق إلا فى البر وفعل الخير والثناء والشكر .

● وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله : ما النجاة ؟ قال : (أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك)(١) . رواه أبو داود والترمذى وابن أبى الدنيا فى العزلة .

● وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (طوبى لمن ملك لسانه ، ووسعه بيته ، وبكى على خطيئته) . رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير .

● وروى عن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ويشهد أنى رسول الله : فليسعه بيته ، وليبك على خطيئته ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا ليغنم ، وليسكت عن شر فيسلم) رواه الطبرانى .

● وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)(٢) . رواه البخارى والترمذى .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة)(٣) . رواه الترمذى .

● وعن أبى جحيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أى الأعمال أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : فسكتوا فلم يجبه أحد، قال : هو حفظ اللسان) . رواه أبو الشيخ وابن حبان والبيهقى .

● وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه ومن حفظ لسانه ستر الله عورته) رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو ليلى ولفظه قال : (من خزن لسانه ستر الله عورته، ومن كف غضبه كف الله عنه عذابه، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره) . ورواه البيهقى

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٦١ . والامام أحمد فى ٤ : ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، وفى ٥ : ٢٥٩ .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٣ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٦١ . والإمام مالك فى الكلام : ١١ . والإمام أحمد فى ٥ : ٣٦٢ .

مرفوعا وموقوفا على أنس،ولعله الصواب .

● وروى الطبرانى فى الصغير والأوسط عنه أيضا عن النبى ﷺ قال : (لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانه) .

● وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : (والذى لا إله غيره ما على ظهر الأرض من شيء أحوج إلى طول سجن من لسان) . رواه الطبرانى موقوفا بإسناد صحيح .

● وعن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : (من وقاه الله شر اثنين ولج الجنة ، فقال رجل : يارسول الله ألا تخبرنا ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، فأعاد رسول الله ﷺ مقالته ، فقال الرجل : ألا تخبرنا يارسول الله ؟ ثم قال رسول الله ﷺمثل ذلك أيضا ، ثم ذهب الرجل يقول مثل مقالته ، فأسكته رجل إلى جنبه ، قال رسول الله ﷺ : من وقاه الله شر اثنين ولج الجنة : ما بين لحييه وما بين رجليه) [١] . رواه مالك مرسلا . ولج : أى دخل الجنة .

● وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله : (من حفظ ما بين فقميه وفرجه دخل الجنة) [٢] . رواه أحمد والطبرانى وأبو يعلى واللفظ له ورواته ثقات .

● وفى رواية للطبرانى : قال لى رسول الله ﷺ : (ألا أحدثك بثنتين من فعلهما دخل الجنة ؟ قلنا : بلى يارسول الله.قال : يحفظ الرجل ما بين فقميه وما بين رجليه) والمراد بما بين فقميه : هو اللسان وبما بين رجليه : هو الفرج .

● وعن أبى رافع رضى الله عنه أن النبى ﷺ : قال : (من حفظ ما بين فقميه وفخذيه دخل الجنة) . رواه الطبرانى .

● وعن ركب المصرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله) . رواه الطبرانى .

● وعن سفيان بن عبد الله الثقفى رضى الله عنه قال : قلت : يارسول الله حدثنى بأمر أعتصم به ؟ قال : (قل ربى الله ثم استقم) [٣] قال : قلت:يارسول الله ما أخوف ما تخاف على ؟ (فأخذ بلسان نفسه ثم قال : هذا) . رواه الترمذى .

● وعنه رضى الله عنه قال : (قلت : يارسول الله أى شيء أتقى ؟ فأشار بيده إلى لسانه) . رواه أبو الشيخ بن حبان .

● وعن الحارث بن هشام رضى الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (أخبرنى بأمر أعتصم به ؟ فقال رسول الله ﷺ : أملك هذا وأشار إلى لسانه) . رواه الطبرانى .

● وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه) [٤] . رواه أحمد وابن أبى الدنيا .

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى الكلام : ١١ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٣٩٨ .
(٣) أخرجه مسلم فى الايمان : ٦٢ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤١٣ ، وفى ٤ : ٣٨٥ .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٩٨ .

● وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : (كنت مع النبى ﷺ فى سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير ، فقلت : يارسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار . قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير؟ قلت : بلى يارسول الله : قال : الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل شعار الصالحين ، ثم تلا قوله : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾[1] حتى بلغ : ﴿ يعملون ﴾ ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : رأس الأمر : الاسلام وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ، ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يارسول الله قال : كف عليك هذا ـ وأشار إلى لسانه ـ قلت : يا نبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك وهل يكب الناس فى النار على وجوههم ـ أو قال : على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم)[2] . رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة .

﴿ المعنــى ﴾

ليسير : أى: لسهل .

من يسره الله عليه : وفقه وألهمه الصواب والحكمة .

الصوم جنة : وقاية يتحصن بها من المعاصى ويتذرع بها من ارتكاب الذنوب .

تطفىء الخطيئة : تزيل شعلتها وتخفف حدتها .

تتجافى : تترك .

رأس الأمر : أوله .

وعموده : قوامه وعماده ودعامته .

ذورة سنامه : أعلاه وأرقى جزء فيه .

ثكلتك أمك : فقدتك وصارت ثكلى إذ فقدت وحيدها .

يكب الناس : يقلب ويرمى .

حصائد ألسنتهم : أى: ما يقتطعونه من الكلام الذى لا خير فيه: مفردها حصيدة: تشبيها بما يحصد من الزرع ، وتشبيها للسان وما يقتطعه من القول بحد المنجل الذى يحصد به . يريد ﷺ :

أ ـ توحيد الله جل وعلا فى العبادة والطاعة .

ب ـ أداء الصلوات فى أوقاتها .

ج ـ الإنفاق فى الخير وأداء الحقوق المالية والجسمية (﴿ صدقة تطهرهم ﴾) .

د ـ صيام رمضان .

هـ ـ تلك أركان الإسلام الخمسة المشهورة، ثم بين ﷺ فائدة الصوم : الهداية إلى الصراط المستقيم

---

(١) الآية ١٦ من سورة السجدة .

(٢) أخرجه البخارى فى الإيمان : ١٩ . ومسلم فى الإيمان : ٢٣٧ . وأبو داود فى السنة : والترمذى فى الديات : ٨ . والنسائى فى الإيمان : ٧ . وابن ماجة فى الفتن : ٦ ، ١٢ . والدارمى فى السير : ٧٧ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٦ ، ١٨٢ .

والتباعد عن العصيان والتحصن من الذنوب،كما أن الصدقة تمحو أدران الخطايا وتنظف الصحائف وتجعلها نقية طاهرة بيضاء ناصعة،ومن أسلم فاز وأفلح وأدرك الخير كله ودعامة البر الصلاة،وأشرف الأعمال الصالحة الدفاع عن دين الله ونصره والذب عنه ، وثمرة ما تقدم طيب القول وحلو الحديث .

● روى الطبرانى مختصرا قال : قلت : (يارسول الله أكل ما نتكلم به يكتب علينا ؟ قال : ثكلتك أمك وهل يكب الناس على مناخرهم فى النار إلا حصائد ألسنتهم ، إنك لن تزال سالما ماسكت ، فإذا تكلمت كتب لك أو عليك) .

● وروى أحمد وغيره عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبدالرحمن بن غنم أن معاذا سأل رسول الله ﷺ فقال : (يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فقال : الصلاة بعد الصلاة المفروضة؟. قال لا : ونعما هى . قال : الصوم بعد صيام رمضان؟. قال : لا ونعما هو قال : فالصدقة بعد الصدقة المفروضة قال : لا ونعما هى . قال :يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ، ثم وضع إصبعه عليه ، فاسترجع معاذ فقال : يارسول الله أنؤاخذ بما نقول كله ويكتب علينا ؟ قال : فضرب رسول الله ﷺمنكب معاذ مرارا فقال له : ثكلتك أمك يا معاذ بن جبل وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم) [١] .

● وعن أسود بن أحدم رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أوصنى.قال : (تملك يدك . قلت : فماذا أملك إذا لم أملك يدى ؟ قال : تملك لسانك . قلت : فماذا أملك إذا لم أملك لسانى ؟ قال : لا تبسط يدك إلا إلى خير ، ولا تقل بلسانك إلا معروفا) رواه ابن أبى الدنيا .

● وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله ﷺ فذكر الحديث بطوله إلى أن قال : (قلت يارسول الله أوصنى ، قال : أوصيك بتقوى الله فإنها زين لأمرك كله . قلت : يارسول الله زدنى . قال : عليك بتلاوة القرآن وذكر الله عز وجل ، فإنه ذكر لك فى السماء ونور لك فى الأرض . قلت : يارسول الله زدنى ، قال : عليك بطول الصمت فإنه مطردة للشيطان وعون لك على أمر دينك . قلت : زدنى . قال : وإياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه . قلت : زدنى ، قال : قل الحق وإن كان مرا . قلت : زدنى،قال : لا تخف فى الله لومة لائم . قلت : زدنى ، قال : ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك) . رواه أحمد والطبرانى .

● وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، فضلا على شأنه ، حافظا للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . الحديث .

﴿ المعنــى ﴾

الصمت : السكوت والرزانة والتؤدة فى النطق .

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٧ . وابن ماجة فى الفتن : ٦ ، ١٢ . والدارمى فى السير : ٧٧ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٦ ، ١٨٢ .

يميت القلب : يبعده عن الاتعاظ فلا يتأثر ويجعله جامدا قاسيا لا يعمل صالحا ، ولا يرتدع عن منكر ولا ينزجر عن قبيح .

قل الحق : الموافق للصواب والعدل .

لومة لائم : عتب عاتب أو عقاب جبار خاسر .

ليحجزك عن الناس : ليمنعك عن غيبة الناس وأذاهم الذى تعلمه من تقصيرك وعدم تكميلك وأنك فى حاجة إلى تكميل وطاعة وصحة . يشير ﷺ إلى :

أ ـ خشية الله فى جميع الأعمال .

ب ـ قراءة القرآن وذكر الله عز وجل .

ج ـ اعتقال اللسان وحبسه إلا فى القول الحميد .

د ـ تجنب الهزء والسخرية والازدراء .

هـ ـ قول الحق وحبه ونصره .

و ـ العمل لوجه الله وحده وعدم الخوف إلا منه جل وعلا .

ز ـ الإقبال على تجميل النفس بالاستزادة فى الطاعات وعدم العيب والتحلى بمكارم الأخلاق ، وترك الغيبة والنميمة ، وفى النهاية:احتجز الرجل بالإزار : إذا شده على وسطه ، فاستعاره للاعتصام والالتجاء والتمسك بالشيء والتعلق به ، ومنه حديث (والنبى آخذ بحجزة الله) أى:بسبب منه .

زيادة القول تحكى النقص فى العمل ومنطق المرء قد يهديه **للزلل**
إن اللسان صغير جرمه له جرم عظيم كما قيل فى المثل

● وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : (يارسول الله أوصنى . قال : عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير ، وعليك بالجهاد فى سبيل الله فإنها رهبانية المسلمين ، وعليك بذكر الله وتلاوة كتابه فإنه نور لك فى الأرض وذكر لك فى السماء،واخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان) . رواه الطبرانى فى الصغير .

﴿ المعنـى ﴾

تقوى الله : فى تعارف الشرع حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور ويتم ذلك بترك بعض المباحات لما روى : (الحلال بين والحرام بين ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه) [1] قال الله تعالى : **﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾** [2] ، **﴿ إن الله مع الذين اتقوا**

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٩ . ومسلم فى المساقاة : ١٠٧ ، ١٠٨ . وأبو داود فى البيوع : ٣ . والترمذى فى البيوع : ١ . والنسائى فى البيوع : ٢ . وابن ماجه فى الفتن : ١٤ . والدارمى فى البيوع : ١ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٦٧ ، ٢٦٩ ـ ٢٧١ ، ٢٧٥ .

(٢) الآية ٣٥ من سورة الأعراف .

والذين هم محسنون ﴾(١) ، ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ﴾(٢) ، ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾(٣) .

يقال : اتقى فلان بكذا : إذا جعله وقاية لنفسه .

رهبانية المسلمين : غلو فى تحمل العبد من فرط الرهبة، والرهب : مخافة مع تحفظ، والمعنى الدفاع عن دين الله ونصره وجهاد الأعداء زيادة قربان من الله تعالى للمسلمين ويدل على شدة خوفهم منه جل وعلا .

● وعن أنس رضى الله عنه قال : لقى رسول الله ﷺ أبا ذر فقال : (ياأبا ذر : ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان على الظهر وأثقل فى الميزان من غيرهما ؟ قال : بلى يارسول الله . قال : عليك بحسن الخلق وطول الصمت ، فوالذى نفسى بيده ما عمل الخلائق بمثلهما) . رواه ابن أبى الدنيا .

قال النبى ﷺ : (يا أبا الدرداء : ألا أنبئك بأمرين خفيف مؤنتهما عظيم أجرهما ، لم تلق الله عز وجل بمثلهما ؟ طول الصمت . وحسن الخلق) رواه ابن أبى الدنيا .

قال رسول الله ﷺ : (ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن ؟ الصمت وحسن الخلق) .

﴿ المعنى ﴾

خفيفتان : العمل بهما خفيف ولكن يجلبان حسنات جمة هما :

(أ) التحلى بالمكارم .

(ب) التمسك بالسكوت :

وما الحسن فى وجه الفتى شرف له   اذا لم يكن فى فعله والخلائق

تفكره علم ومنطقه حكم   وباطنه دين وظاهره ظرف

أمات رياح اللؤم وهى عواصف   ومغنى العلا يؤدى ورسم الندى يعفو

كالبدر من حيث التفت رأيته   يهدى إلى عينيك نورا ثاقبا

كالبحر يقذف للقريب جواهرا   جوادا ويبعث للعبيد سحائبا

كالشمس فى كبد السماء وضوؤها   يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

الأديب المهذب الأصيد العذي   الزاكى الجعد السرى الهمام

حسبك الله ما تضل عن الحق   ولا تهتدى إليك أثام

● وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه رفعه قال : (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تفكر

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل .
(٢) الآية ٧٣ من سورة الزمر .
(٣) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران .

اللسان ، فتقول : اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا) [١] ، رواه الترمذى وابن أبى الدنيا وغيرهما .

● وعن أبى وائل عن عبد الله رضى الله عنهما أنه ارتقى الصفا فأخذ بلسانه فقال : يالسان قل خيرا تغنم ، واسكت عن شر تسلم ، من قبل أن تندم ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أكثر خطأ ابن آدم فى لسانه) . رواه الطبرانى .

● وعن أسلم : (أن عمر دخل يوما على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما وهو يجنب لسانه، فقال عمر : مه غفر الله لك ، فقال له أبو بكر : إن هذا أوردنى شر الموارد) [٢] . رواه مالك وابن أبى الدنيا .

● وعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (أربع لا يصبن إلا بعجب : الصمت وهو أول العبادة ، والتواضع ، وذكر الله عز وجل ، وقلة الشىء) . رواه الحاكم .

بعجب ، أى :لا توجد وتجتمع فى إنسان إلا على وجه عجيب ، أى: قل أن تجتمع فيه .

الصمت : السكوت عما لا يغنى ، أى :مالا ثواب فيه إلا بقدر الحاجة .

أول العبادة : أساسها ومبناها .

التواضع : لين الجانب لخلق الله لا لأمر دنيوى .

ذكر الله : لزوم الدوام عليه .

قلة الشىء : الذي ينفق منه على نفسه فإنه لا يجامع السكوت والتواضع ولزوم الذكر بل الغالب على المثل الشكوى وإظهار الضجر وشغل الفكرة الصارف عن الفكر .

وقال الحفنى : أى من عجب ووجه العجب أن قلة الشىء الآتى يقتضى كثرة اللجاج فكيف يجامع الصمت . . يرشدك ﷺ إلى صفات أربع عنوان الأدب ، ومعين المكارم ، ومجلب المحامد والمحاسن :

أ ـ إطالة السكوت والرزانة والأناة والحلم والتؤدة والإتقان وعدم كثرة الكلام .

ب ـ لين الجانب وخفض الجناح والبشاشة وطلاقة الوجه ونزع رداء الكبر والعجب .

ج ـ طاعة الله وعبادته وتمجيده وتسبيحه وتكبيره .

د ـ الرضا والقناعة : (ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس) [٣] .

● وروى أيضا عن وهيب قال : قال عيسى بن مريم صلوات الله عليه :(وأربع لا يجتمعن فى أحد من الناس إلا بعجب) . الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت وأبو الشيخ وغيرهما .

● وروى عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (سمعته يقول : خمس لهن أحسن من الدهم الموقفة : لا تكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ، ولا آمن عليك الوزر ، ولا تكلم فيما لا يعنيك حتى تجد له موضعا فإنه رب متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه ، فعيب ، ولا تمار حليما ولا سفيها ، فإن الحليم يغلبك ، وإن السفيه يؤذيك ، واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به وأعفه مما تحب أن يعفيك منه ، واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالإجرام) . رواه ابن أبى الدنيا .

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٦١ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٦ .
(٢) أخرجه الإمام مالك فى الكلام : ١٢ .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣١٠ .

﴿ المعنــى ﴾

الدهم : العدد الكثير من النوق الواقفة بذخا وترفا ونعيما .

لا يعنيك : لا يهمك أمره فإنه زيادة ولغو وفضول وتطفل .

فيما يعنيك : ولا تكلم فيما يعنيك كذا ، والمعنى إذا تحادثت فى مهام أمورك فأصب المرمى وابحث عن الإجادة واختر الموقع الذى ينجحك .

ولا تمار : ولا تجادل ولا تخاصم . يقال :ماريته : جادلته .

ولا تمــار سفيهــا فى محــاورة ولا حليما لكى تنجو من **الزلل**
ولا يغـرنك من تبـدو بشاشتـه إليك مكرا فإن السم فى العسل

ويشير-صلى الله عليه وسلم-إلى نصائح خمس أجدى من النعم والجياد المرسلة والعز المقيم :

- الاجتهاد فى الكلام فيما فيه فائدة خشية ضياع الوقت واكتساب الذنوب .
- انتهاز فرصة النجاح للكلام .
- ترك محاربة العاقل اللبيب الفطن الأريب، والأحمق المغفل القبيح .
- ذكر الصديق الغائب بكل ثناء طيب .
- الجرى فى مضمار المحسنين المجيدين المتقين الذين يخشون الله تبارك وتعالى .

● وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (من صمت نجا) (١) . رواه الترمذى .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب) (٢) . رواه البخارى ومسلم .

● وروى عن النبى ﷺ قال : (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات فى الجنة ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم) (٣) . رواه مالك والبخارى واللفظ له .

والنسائى والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ولفظه :

(إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن أن تبلغ ما بلغت يهوى بها سبعين خريفا فى النار) (٤) .

ورواه البيهقى . ولفظه :

قال رسول الله ﷺ : (إن العبد ليقول الكلمة لا يقولها إلا ليضحك بها المجلس يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض، وإن الرجل ليزل عن لسانه أشد مما يزل عن قدميه) .

● وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل ليتحدث بالحديث ما يريد به سوءا إلا ليضحك به القوم يهوى به أبعد من السماء) . رواه أبو الشيخ .

---

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٥٠ . والدارمى فى الرقاق : ٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٥٩ ، ١٧٧ .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٩ .

(٣) البخارى فى الرقاق : ٢٣ . والترمذى فى الزهد : ١٢ . وابن ماجة فى الفتن : ١٢ . والإمام مالك فى الكلام : ٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٣٤ ، وفى ٣ : ٤٦٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٣ . ومسلم فى الزهد : ٥٠ . والترمذى فى الزهد : ١٠ . وابن ماجه فى الفتن : ١٢ . والإمام مالك فى الكلام : ٦ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣١ ، ٣٣٤ ، ٤٠٢ ، ٥٣٣ .

● **وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ألا هل عسى رجل منكم يتكلم بالكلمة يضحك بها القوم فيسقط بها أبعد من السماء،ألا هل عسى رجل منكم يتكلم بالكلمة يضحك بها أصحابه فيسخط الله بها عليه لا يرضى عنه حتى يدخله النار) . رواه أبو الشيخ .**

● **وعن بلال بن الحارث المزنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه)** (١) . رواه مالك والترمذى .

● وعن أمة بنت الحكم الغفارية رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الرجل ليدنو من الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا قيد رمح فيتكلم بالكلمة فيتباعد منها أبعد من صنعاء) . رواه ابن أبى الدنيا .

● وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسى) (٢) . رواه الترمذى والبيهقى .

● وعن مالك رضى الله عنه بلغه أن عيسى بن مريم-عليه السلام-كان يقول : (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فإن القلب القاسى بعيد عن الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية) (٣) . ذكره فى الموطأ .

● وعن أم حبيبة زوج النبى ﷺ قالت:قال رسول الله ﷺ : (كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله) . رواه الترمذى وابن ماجه وابن أبى الدنيا .

● وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله كره لكم ثلاثا : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال) (٤) . رواه البخارى واللفظ له،ومسلم وأبو داود .

● وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أكثر الناس ذنوبا أكثرهم كلاما فيما لا يعنيه) . رواه أبو الشيخ فى الثواب .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه) (٥) . رواه الترمذى .

● وعن أنس رضى الله عنه قال : توفى رجل،فقال رجل آخر ورسول الله ﷺ يسمع : (أبشر بالجنة ، فقال رسول الله ﷺ :(أولا تدرى ، فلعله تكلم فيما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه) (٦) . رواه

(١) أخرجه ابن ماجه فى الفتن : ١٦ . والإمام مالك فى الكلام : ٥ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٦٩ .
(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٦٢ .
(٣) أخرجه الامام مالك فى الكلام : ٨ .
(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٢ . ومسلم فى الأقضية : ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ . والدارمى فى الرقاق : ٣٨ . والإمام مالك فى الكلام : ٢٠ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٢٧ ، ٣٦٧ ، وفى ٤ : ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ .
(٥) أخرجه الترمذى فى الزهد : ١١ وابن ماجة فى الفتن : ١٢والإمام مالك فى حسن الخلق : ٣ والإمام أحمد فى١ : ٢٠١ .
(٦) أخرجه الترمذى فى الزهد : ١١ .

الترمذى .

● وروى ابن أبى الدنيا وأبو يعلى عن أنس أيضا رضى الله عنه قال : (استشهد رجل منا يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه ، وقالت : هنيئا لك يا بنى الجنة . فقال النبى ﷺ : ما يدريك ؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع مالا يضره) .

● وروى أبو يعلى أيضا والبيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ ، شهيدا فبكت عليه باكية فقالت : وا شهيداه،قال : فقال النبى ﷺ : ما يدريك أنه شهيد ؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه) .

● وعن أبى سلمة بن عبدالرحمن أن امرأة كانت عند عائشة ومعها نسوة فقالت امرأة منهن : (والله لأدخلن الجنة ، فقد أسلمت وما سرقت وما زنيت ، فأتيت فى المنام فقيل لها : أنت المتألية لتدخلن الجنة ؟ كيف وأنت تبخلين بما لا يغنيك ؟ وتتكلمين فيما لا يعنيك ؟! فلما أصبحت المرأة دخلت على عائشة فأخبرتها بما رأت . وقالت : اجمعى النسوة اللاتى كن عندك حين قلت ما قلت ، فأرسلت إليهن عائشة رضى الله عنها فجئن . فحدثتهن المرأة بما رأت فى المنام) . رواه البيهقى .

﴿ فضائل الصمت كما بينها ﷺ فى أحاديثه ﴾

أولا : يعد الصامت من أفاضل المسلمين .

ثانيا : يدخل الجنة من لم يؤذ مسلما بقول ولا فعل .

ثالثا : يكسب محبة الله ويدفع غضبه ويسبب الستر ويبعد الفضيحة .

رابعا : يوصل إلى حقيقة الإيمان .

خامسا : يعد الصامت من أصحاب العزيمة القوية والإرادة الصارمة والهمة السامية .

سادسا : الصامت فى ظل الله وينضر وجهه وتشرق طلعته،والثرثار يكب على وجهه فى النار .

سابعا : الصامت العامل بسنة خير الخلق ﷺ . بعيد منه الشيطان قريب من رضا الرحمن .

ثامنا : يسلم الساكت من الأخطاء ويفر من الذنوب بصمته ولا يرد مواطن السوء بكلامه .

تاسعا : يكسو الصامت المهابة والرزانة والوقار (يصبن بعجب) .

عاشرا : ينجو الساكت من كل معصية ولا يهوى من سقطاته .

الحادى عشر : يبعد الساكت من اللغو والرفث والفسوق (أكثر الناس ذنوبا) .

الثانى عشر : يضيع الكلام الكثير الحسنات ودرجة الجهاد تمحوها لفظة من سخط الله تعالى « الشهداء »

قال ابن المقرى :

زيادة القول تحكى النقص فى العمل ومنطق المرء قد يهديه للزلل
فكم ندمت على ما كنت فهت به وما ندمت على مالم تكن تقل
وأضيق الأمر أمر لم تجد معه فتى يعينك أو يهديك للسبل
عقل الفتى ليس يغنى عن مشاورة كعفة الخود لا تغنى عن الرجل

إن المشاور إما صائب غرضا أو مخطىء غير منسوب إلى الخطل
لا تحتقر الرأى يأتيك الحقير به فالنحل وهو ذباب طيب العسل

﴿ بيان آفات اللسان كما فى إحياء علوم الدين ﴾

أولا : الكلام فيما لا يعنيك .

ثانيا : فضول الكلام ، أى:الزيادة على قدر الحاجة قال تعالى : **﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾** (١) .

ثالثا : الخوض فى الباطل ، أى:الكلام فى المعاصى كحكاية أحوال النساء . ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المكروهة وأحوالهم المذمومة .

قال ﷺ : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة .....) .

رابعا : المراء والجدل . قال مالك بن أنس رحمه الله : المراء يقسى القلوب ، ويورث الضغائن ، والمراء طعن فى كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير وإظهار فرية الكياسة .

والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها .

خامسا : الخصومة:أى،لجاج فى الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود وذلك تارة يكون ابتداء أو اعتراضا ، والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق .

سادسا : التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة « الثرثارون المتفيهقون » .

سابعا : الفحش والسب وبذاءة اللسان ومصدره الخبث واللؤم .

ثامنا : اللعن إما لحيوان أو إنسان أو جماد .

تاسعا : الغناء والشعر ، أى:الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه وقد يكون ذلك فى الفعل والقول وقد يكون بالاشارة والإيماء .

الثانى عشر : إفشاء السر .

الثالث عشر : الوعد الكاذب،فان اللسان سباق إلى الوعد،ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من أمارات النفاق،قال الله تعالى : **﴿ ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾**(٢) .

الرابع عشر : الكذب فى القول واليمين وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب .

ولأبى العتاهية :

اسلك بنى مناهج السادات وتخلقن بأشرف العادات
لا تلهينك عن معارك لذة تفنى وتورث دائم الحسرات
إن السعيد غدا زهيد قانع عبد الإله بأخلص النيات

---

(١) الآية ١١٤ من سورة النساء .
(٢) الآية الأولى من سورة المائدة .

أقم الصلاة لوقتها بشروطها فمن الضلال تفاوت الميقات
وإذا اتسعت برزق ربك فاجعلن منه الأجل لأوجه الصدقات
فى الأقربين وفى الأباعد تارة إن الزكاة قرينة الصلوات
وارع الجوار لأهله متورعا بقضاء ما طلبوا من الحاجات
واخفض جناحك إن منحت إمارة وارغب بنفسك عن ردى اللذات

وللعميد الطغرائى :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى لدى العطل
حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت بشدة اليأس من رقة الغزل
حلو الكلام كأن رجع حديثه در يساقطه إليك لسانه

وقال ابن السكيت :

يصاب الفتى من عثرة بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرة القول تذهب رأسه وعثرته بالرجل تبرى على مهل

ولزهير بن أبى سلمى :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه فى التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ولم يبق إلا صورة اللحم والدم

لا تراني راتعا فى مجلس لحوم الناس كالسبع الضرم
ولبعض الصفح والإعراض عن ذى الجنا أبقى وإن كان ظلم

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى رسالة فمبلغك الواشى أغش وأكذب
ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

﴿ الآيات الدالة على فضائل الصمت الناهية عن اللغو ﴾

● قال الله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ [1] .

(١) الآيات ١ - ٣ من سورة المؤمنون .

واللغو:كل ما لا فائدة فيه لا للجسم ولا للنفس ولا للروح ولا للعقل ، فالمؤمن لا يشغل وقته إلا بما يفيده فى حياته العاجلة ، أو حياته القابلة .

● **وقال تعالى : ﴿ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ [(١)] .**

● **وقال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾ [(٢)] .**

فلا نجاة من خطر اللسان إلا بالصمت بحفظه من جميع الآفات ، ألا ترى المؤمن قاتلا وقته بالجلوس على المقاهى يلعب النرد والشطرنج ، أو يخوض فى أعراض الناس ، أو يتحدث فى شئونهم بمالا يجدى نفعا ، أو يتدخل فيما لا يعنيه من شئون السياسة ، وليس من أربابها ولا من المنوط بهم درسها ، والدفاع عنها ، بل تراه هادئا ثابتا صامتا ساكتا لا يتكلم إلا فى مفيد ، ولا يتحرك إلا فى نافع ، ولا يفكر إلا فى منتج . يجد فى تحصيل رزقه وأهله وولده ليكف يده عن المسألة ، ويصون وجهه عن بذل مائه ، ويجلب العزة والكرامة والنبالة .

قال الحسن : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه.وفى الغريب : اللغو من الكلام : مالا يعتد به ، وهو الذى يورد لا عن روية وفكر فيجرى مجرى اللغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور .

قال أبو عبيدة : لغو ولغا نحو عيب وعاب وأنشدهم عن اللغا ورفث التكلم يقال:لغيت تلغى نحو لقيت تلقى وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا قال تعالى : **﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ﴾** [(٣)] ، **﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ﴾**[(٤)] .

● **قال تعالى : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما . إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا ﴾**[(٥)] .

● **قال تعالى : ﴿ واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾**[(٦)] .

● **قال تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾**[(٧)] .

● **قال تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾** [(٨)] .

وقد قال الله تعالى لحبيبه ﷺ : ﴿ ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ [(٩)] أى:اترك أولئك الكفرة الذين ينكرون **﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ؟ ﴾**[(١٠)].

وقال تعالى : **﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾**[(١١)].

(١) الآية ٧٢ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٥٥ من سورة القصص .
(٣) الآية ٣٥ من سورة النبأ .
(٤) الآية ٢٥ من سورة الواقعة .
(٥) الآيتان ١٤٨ ، ١٤٩ من سورة النساء
(٦) الآية ١٠٨ من سورة المائدة .
(٧) الآية ٣ من سورة الأنعام .
(٨) الآية ٦٨ من سورة الأنعام .
(٩) الآية ٩١ من سورة الأنعام .
(١٠) الآية ٩١ من سورة الأنعام .
(١١) الآية ١٠٨ من سورة الأنعام .

ينهى الله تعالى عن سب الآلهة التى يعبدها الكفار خشية أن يتطاولوا على عظمة الله وجلاله .

قال البيضاوى : وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها، وكذلك العاقل يصمت أو يهجر الكلام القبيح فلا يجلس فى مجالس العصاة الفساق .

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مساوئا فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتى هى أحسن

قوله تعالى : ﴿ **والذين هم للزكاة فاعلون** ﴾ . هذه تزكية لأموالهم بعد تطهير قلوبهم بالإيمان ، وتزكية أرواحهم بالصلاة ، وتطهير ألسنتهم عن اللغو ، أثبت لهم القرآن الكريم هنا تزكية أموالهم بإخراج حق السائل والمحروم .

قال تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم** ﴾ [1] .

ولابد لنا أن نسلط بعض الأضواء الكاشفة على تلك الفريضة المحكمة حتى نقطع المعاذير عن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، ونسوا أنهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ، ونبدأ بتعريفها :

فما هى الزكاة ؟ :

تعريفها : الزكاة اسم لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء ، وسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات ، فإنها مأخوذة من الزكاة وهى النماء والطهارة والبركة ، قال الله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ .

وهى أحد أركان الإسلام الخمسة ، وقرنت بالصلاة فى اثنتين وثمانين آية ، وقد فرضها الله تعالى بكتابه ، وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع أمته .

● روى الجماعة عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ لما بعث معاذ بن جبل رضى الله عنه إلى اليمن قال : (**إنك تأتى قوما أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله عز وجل افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**) [2] .

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٦٣ ، وفى المظالم : ٩ . ومسلم فى الإيمان ٢٩ . وأبو داود فى الزكاة : ٥ . والنسائى فى الزكاة : ١ ، ٤٦ . والترمذى فى البر : ٦٨ . وابن ماجه فى الزكاة : ١ . والإمام مالك فى دعوة المظلوم : ١ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٢٣ ، وفى ٣ : ١٥٣ .

● وروى الطبرانى فى الأوسط والصغير عن على كرم الله وجهه أن النبى ﷺ قال : (إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياؤهم ، ألا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا ويعذبهم عذابا أليما) .

قال الطبرانى : تفرد به ثابت بن محمد الزاهد .

قال الحافظ : وثابت : ثقة صدوق روى عنه البخارى وغيره وبقية رواته لا بأس بهم .

وكانت فريضة الزكاة بمكة فى أول الإسلام مطلقة لم يحدد فيها المال الذى تجب فيه ولا مقدار ما ينفق منه ، وإنما ترك ذلك لشعور المسلمين وكرمهم .

وفى السنة الثانية من الهجرة ـ على المشهور ـ فرض مقدارها من كل نوع من أنواع المال ، وبينت بيانا مفصلا .

الترغيب فى أدائها :

● قال الله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ أى:خذ ـ أيها الرسول ـ من أموال المؤمنين صدقة معينة كالزكاة المفروضة أو غير معينة وهى التطوع ﴿ **تطهرهم وتزكيهم** ﴾ أى: تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء والبائسين ، وما يتصل بذلك من الرذائل ، وتزكى أنفسهم بها ـ أى:تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعلمية ، وحتى تكون بها أهلا للسعادة الدنيوية والأخروية .

● وقال الله تعالى : ﴿ **إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما أتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ [١] .

جعل الله أخص صفات الأبرار الإحسان ، وأن مظهر إحسانهم يتجلى فى القيام من الليل ، والاستغفار فى السحر ، تعبدا لله ، وتقربا إليه كما يتجلى فى إعطاء الفقير حقه رحمة به وحنوا عليه .

● وقال الله تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله** ﴾ [٢] .

أى:إن الجماعة التى يباركها الله ويشملها برحمته هى الجماعة التى تؤمن بالله ويتولى بعضها بعضا بالنصر والحب ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتصل ما بينها وبين الله بالصلاة ، وتقوى صلاتها ببعضها بإيتاء الزكاة .

● وقال الله تعالى : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ [٣] .

جعل الله إيتاء الزكاة غاية من غايات التمكين فى الأرض :

---

(١) الآيات ١٥ ـ ١٩ من سورة الذاريات .
(٢) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٤١ من سورة الحج .

● روى الترمذى عن أبى كبشة الأنمارى : أن النبى ﷺ قال : (ثلاثة أقسم عليهم وأحدثكم حديثا فاحفظوه : « ما نقص مال من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر »[١].

● وروى أحمد والترمذى وصححه عن أبى هريرة :

أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله عز وجل يقبل الصدقات ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره أو فلوه أو فصيله ، حتى إن اللقمة لتصير مثل جبل أحد)[٢]. قال وكيع : وتصديق ذلك فى كتاب الله قوله : **﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ﴾**[٣] ، **﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾**[٤].

وروى أحمد ـ بسند صحيح ـ عن أنس رضى الله عنه قال : أتى رجل من تميم رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إنى ذو مال كثير ، وذو أهل ومال وحاضرة ، فأخبرنى كيف أصنع وكيف أنفق ؟ فقال رسول الله ﷺ : (تخرج الزكاة من مالك ، فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق المسكين . والجار والسائل)[٥].

وروى أيضا عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : (ثلاث أحلف عليهن : لا يجعل الله من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الإسلام ثلاثة : الصلاة والصوم والزكاة ، ولا يتولى الله عبدا فى الدنيا فيوليه غيره يوم القيامة ، ولا يحب رجل قوما إلا جعله الله معهم ، والرابعة لو حلفت عليها رجوت ألا آثم : لا يستر الله عبدا فى الدنيا إلا ستره يوم القيامة)[٦].

وروى الطبرانى فى الأوسط عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أرأيت إن أدى الرجل زكاة ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من أدى زكاة ماله ذهب عنه شره) .

وروى البخارى ومسلم عن جرير بن عبد الله قال : (بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم)[٧] .

الترهيب من منعها :

قال الله تعالى : **﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾** .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد : ١٧ . والإمام أحمد فى ١ : ١٩٣ ، وفى ٢ : ٤٣٦ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٨ . ومسلم فى الزكاة : ٦٣ ، ٦٤ . والترمذى فى الزكاة : ٢٨ . والنسائى فى الزكاة : ٤٨ . وابن ماجة فى الزكاة : ٢٨ . والدارمى فى الزكاة : ٣٤ . والإمام مالك فى الصدقة : ١ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٣١ ، ٣٨٢ ، ٥٤١ ، وفى ٦ : ٢٥١ .

(٣) الآية ١٠٤ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٢٧٦ من سورة البقرة .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٣٦ .

(٦) أخرجه مسلم فى البر : ٧١ . والإمام أحمد فى ٦ : ١٤٥ ، ١٦٠ .

(٧) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٤٢ . ومسلم فى الايمان : ٩٧ ، ٩٨ . والنسائى فى البيعة : ٦ ، ١٧ . والدارمى فى البيوع

قال تعالى : ﴿**ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة**﴾(١).

وروى أحمد والشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (مامن صاحب كنز لا يؤدى زكاته إلا أحمى عليه فى نار جهنم ، فيجعل صفائح فتكوى بها جنباه وجبهته ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، ومامن صاحب إبل لايؤدى زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر كأوفر ماكانت ، تستن عليه،كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى جنة وإما إلى ،نار ، ومامن صاحب غنم لا يؤدى زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر كأوفر ما كانت فتطؤه بأظلافها ، وتنطحه بقرونها ، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ، كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . قالوا : فالخيل يارسول الله ؟ قال : الخيل فى نواصيها-أو قال : الخيل معقود فى نواصيها-الخير إلى يوم القيامة ، الخيل ثلاثة : هى لرجل أجر ، ولرجل ستر ، ولرجل وزر ، فأما التى هى له أجر فالرجل سيتخذها فى سبيل الله ويعدها له فلا تغيب شيئا فى بطونها إلا كتب الله له بها أجرا ، ولو سقاها من نهر كان له بكل قطرة تغيبها فى بطونها أجر ، حتى ذكر الأجر فى أبوالها وأرواثها ، ولو استنت شرفا أو شرفين كتب له بكل خطوة يخطوها أجر ، وأما التى هى له ستر : فالرجل يتخذها تكرما وتجملا ، ولاينسى حق ظهورها وبطونها فى عسرها ويسرها ، وأما التى هى عليه وزر فالذى يتخذها أشرا وبطرا وبذخا ورياء الناس ، فذلك الذى عليه الوزر.قالوا : فالحمر يارسول الله ؟ قال : ماأنزل الله على فيها شيئا إلا هذه الآية الجامعة الفاذة :

﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ (٢)(٣) .

● وروى الشيخان عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ، يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه- يعنى شدقيه- ثم يقول : أنا كنزك ، أنا مالك ، ثم تلا هذه الآية : ﴿**ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله**﴾ (٤)(٥) .

وروى ابن ماجه والبزار والبيهقى-واللفظ له - عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

(يا معشر المهاجرين ، خصال خمس - إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم

---

(١) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

(٣) خرجه مسلم فى الزكاة : ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ . وأبو داوذ فى الزكاة : ٣٢ . والنسائى فى الزكاة : ٢ ، ٩ . والدارمى فى الزكاة : ٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٦٢ ، ٣٨٣ ، ٤٩٠ ، وفى ٣ : ٣٢١ .

(٤) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

(٥) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٣ . ومسلم فى الزكاة : ٢٧ ، ٢٨ . والنسائى فى الزكاة : ٢ ، ٦ ، ٢٠ . وابن ماجة فى الزكاة : ٢ . والإمام مالك فى الزكاة : ٢٢ . والدارمى فى الزكاة : ٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ٩٨ ، ٢٧٩ ، ٣١٦ ، وفى ٣ : ٣٢١ .

تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة . وجور السلطان ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض مافى أيديهم ، ومالم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم)[1] .

وروى الشيخان عن الأحنف بن قيس قال : (جلست إلى ملأ من قريش فجاء رجل خشن الشعر والثياب والهيئة حتى قام عليهم فسلم ثم قال : بشر الكانزين برضف يحمى عليه فى نار جهنم ثم يوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نخض كتفه،ويوضع على نخض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه فيتزلزل) .[2]

ثم ولى فجلس إلى سارية ، وتبعته وجلست إليه وأنا لا أدرى من هو . فقلت:(لاأرى القوم إلا قد كرهوا الذى قلت ، قال : إنهم لا يعقلون شيئا : قال لى خليلى . قلت : من خليلك ؟ قال : النبى ﷺ أتبصر أحدا ؟ قال : فنظرت إلى الشمس ما بقى من النهار وأنا أرى أن رسول الله ﷺ يرسلنى فى حاجة له ، قلت : نعم . قال : ما أحب أن لى مثل أحد ذهبا أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير،وإن هؤلاء لا يعقلون إنما يجمعون الدنيا . لا والله لا أسألهم دنيا ولا أستفتيهم عن دين حتى ألقى الله عز وجل)[3] .

﴿ المعانى ﴾

بطح : أى بسط ومد

القرقر : المستوى الواسع من الأرض .

كأوفر : أى كأعظم ما كانت .

تستن : أى تجرى .

مضى : أى مر .

الظلف للغنم : كالحافر للفرس .

عقصاء : أى ملتوية القرنين .

جلحاء : أى التى لا قرن لها .

المرج : أى المرعى .

الشرف : أى العالى من الأرض .

الأشر : أى البطر .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الفتن : ٢٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٤ . ومسلم فى الزكاة : ٣٤ .

البطر : شدة المرح .
وبذخا : تكبرا .
الجامعة : أى المتناولة لكل خير وبر .
الفاذة : أى القليلة النظير .
مثل : صور .
الشجاع : الذكر من الحيات .
الأقرع : الذى ذهب شعره من كثرة السم .
زبيبتان : أى نكتتان سوداوان فوق عينيه .
الفاحشة : أى الزنا .
الأوجاع : أى الأمراض .
السنين : أى الفقر .
القطر : أى المطر .
بأسهم : أى حربهم .
رجل خشن الشعر : هو أبو ذر رضى الله عنه .
الرضف : أى الحجارة المحماة .
نغض: أى أعلى الكتف .

*** حكم مانعها :**

الزكاة من الفرائض التى أجمعت عليها الأمة ، واشتهرت شهرة جعلتها من ضروريات الدين ، بحيث لو أنكر وجوبها أحد خرج عن الإسلام ، وقتل كفرا إلا إذا كان حديث عهد بالإسلام ، فإنه يعذر لجهله بأحكامه .

أما من امتنع عن أدائها ـ مع اعتقاده وجوبها ـ فإنه يأثم بامتناعه دون أن يخرجه ذلك عن الإسلام ، وعلى الحاكم أن يأخذها منه قهرا أو يعزره ، ولا يأخذ من ماله أزيد منها إلا عند أحمد والشافعى فى القديم فإنه يأخذها منه ونصف ماله ، عقوبة له لما رواه أحمد والنسائى وأبو داود والحاكم والبيهقى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (فى كل إبل سائمة . فى كل أربعين ابنة لبون لايفرق إبل عن حسابها من أعطاها مؤتجرا فله أجرها ، ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا تبارك وتعالى ، لا يحل لآل محمد منها شيء)[1] .

وسئل أحمد عن إسناده فقال : صالح الإسناد . وقال الحاكم فى بهز : حديثه صحيح .

ولو امتنع قوم عن آدائها مع اعتقادهم وجوبها وكانت لهم قوة ومنعة ، فإنهم يقاتلون عليها حتى يعطوها ، لما رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : (أمرت أن أقاتل

(١) أخرجه أبو داود فى الزكاة : ١ . والبخارى فى الاعتصام : ٢ . ومسلم فى الايمان : ٣٢ . والترمذى فى الإيمان : ١ . والنسائى فى الزكاة ٢ : ٣ . والإمام مالك فى الزكاة : ٣٠ .

الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) .

ولما رواه الجماعة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (لما توفى رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر : كيف نقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله ﷺ : 'أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله تعالى . فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال،والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها . فقال عمر : فو الله ماهو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق) [1] .

ولفظ مسلم وأبى داود والترمذى : (لو منعونى عقالا) بدل (عناقا) .

المعانى

عقوبة له : ويلحق به من أخفى ماله ومنع الزكاة ثم انكشف أمره للحاكم .

مؤتجرا : أى طالبا الأجر .

عزمة : أى حقا من الحقوق الواجبة .

روى البيهقى أن الشافعى قال : هذا الحديث،لا يثبته أهل العلم بالحديث ولو ثبت قلنا به .

نقاتل الناس : المراد بهم بنو يربوع وكانوا جمعوا الزكاة وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبى بكر فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرقها فيهم فهؤلاء الذين عرض الخلاف فى أمرهم ووقعت الشبهة لعمر فى شأنهم مما اقتضى مناظرته لأبى بكر واحتجاجه على قتالهم بالحديث وكان قتاله لهم فى أول خلافته سنة إحدى عشرة من الهجرة .

عناقا : أى أنثى المعز التى لم تبلغ سنة .

*** على من تجب :**

تجب الزكاة على المسلم الحر المالك للنصاب من أى نوع من أنواع المال الذى تجب فيه الزكاة .

ويشترط فى النصاب :

١ ـ أن يكون فاضلا عن الحاجات الضرورية التى لا غنى للمرء عنها : كالمطعم والملبس والمسكن والمركب وآلات الحرفة .

٢ ـ وأن يحول عليه الحول الهجرى ويعتبر ابتداؤه من يوم ملك النصاب ولابد من كماله فى الحول كله . فلو نقص أثناء الحول ثم كمل اعتبر ابتداء الحول من يوم كماله .

قال النووى : مذهبنا ومذهب مالك وأحمد والجمهور : أنه يشترط فى المال الذى تجب الزكاة فى عينه ويعتبر فيه الحول كالذهب والفضة والماشية : وجود النصاب فى جميع الحول فإن نقص النصاب فى

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢ : ٣ ، وفى ٢٥ : ٢ . ومسلم فى الإيمان : ١٤١ ، ١٤٢ . وأبو داود فى الطلاق : ٥٠ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٥ : ١ ، ٢ . والنسائى فى التحريم : ٤ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٠ ، ٤٣١ ، وفى ٦ : ٨ .

لحظة من الحول انقطع الحول . فإن كمل بعد ذلك استؤنف الحول منه حين يكمل النصاب .

وقال أبو حنيفة : المعتبر وجود النصاب فى أول الحول وآخره ، ولا يضر نقصه بينهما ، حتى لو كان معه مائتا درهم فتلفت كلها فى أثناء الحول إلا درهما ، أو أربعون شاة فتلفت فى أثناء الحول إلا شاة ثم ملك فى آخر الحول تمام المائتين أو تمام الأربعين وجبت زكاة الجميع .

وهذا الشرط لا يتناول زكاة الزروع والثمار فإنها تجب يوم الحصاد . قال الله تعالى : ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ [1] .

وقال العبدرى : (أموال الزكاة ضربان أحدهما ما هو نماء فى نفسه كالحبوب والثمار ، فهذا تجب الزكاة فيه لوجوده ، والثانى ما يرصد للنماء كالدراهم والدنانير وعروض التجارة والماشية ، فهذا يعتبر فيه الحول ولا زكاة فى نصابه حتى يحول عليه الحول ، وبه قال الفقهاء كافة . أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ .

بعدما زكى الله تعالى قلوبهم بالإيمان ، ونفوسهم بالصلاة ، وألسنتهم عن اللغو ، وأموالهم بإخراج الزكاة ، زكى أعراضهم بالحفاظ عليها إلا فى حدود ما أمر الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** ﴾ .

أى والذين يحفظون فروجهم فى كافة الأحوال إلا فى حال تزوجهم أو تسريهم (قربانُ الأمة بالملك) فإنهم حينئذ يكونون غير ملومين ، والمراد بهذا الوصف مدحهم بنهاية العفة ، والإعراض عن الشهوات .

﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ .

أى:فمن طلب غير أربع من الحرائر وما شاء من الإماء فأولئك هم المتناهون فى العدوان ، والمتعدون لحدود الله .

نعم إن المؤمنين هم الذين حفظوا فروجهم من الحرام فلم يقعوا فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط واستمناء باليد لا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم ، أو ما ملكت أيمانهم من السرارى التى أخذت فى الحروب ، لا التى شاعت فى القرون السابقة ، وكانت تباع فى الأسواق ، فالشرع لم يحلل الرق إلا فى صورة واحدة هى فى حروب الإسلام مع الكفار ، فتقسم النساء على المحاربين إكراما لهم ، مع أن الدين حض فى كل مناسبة على تحرير الرقاب ، ولم يكن الرق واجبا حتميا بل جعله فى يد الإمام يفعله متى شاء ، وعلى ذلك فلنا أن نحرمه الآن لما يترتب عليه .

ومن تعاطى ما أحله الله فلا لوم عليه ولا حرج ﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك** ﴾ أى:غير الأزواج والإماء ، فأولئك هم المعتدون المتجاوزون ، وعلى ذلك حرم نكاح المتعة ، والاستمناء باليد .

والإجماع من كل العلماء ماعدا أحمد بن حنبل على تحريمه لظاهر الآية ، ولحديث أنس بن مالك : (سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم . ولا يجمعهم مع العالمين ، ويدخلهم النار فى أول الداخلين : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومدمن الخمر ، والضارب والديه حتى يستغيثا ،

(١) الآية ١٤١ من سورة الأنعام .

والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه ، والناكح حليلة جاره)

* الرق .. وملك اليمين *

اعلم أن الإسلام محرر العبيد ﴿ **لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ (١) .

الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم وغمرها بعدله ، فما أشد حاجة البشرية إليه !

والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد وركز فيه سبل الإصلاح ، والإسلام هو الذى حرر العقل من الجمود والتقليد ، وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير !

والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستعباد ، وجعل منهم سادة أقوياء :

لقد حاول أعداء الإسلام على كر العصور ومر الدهور أن يثيروا شبهات حول الإسلام ، فجعلوا من مسألة (الرق) ثغرة يحاولون النفوذ منها للطعن فى الإسلام ، والنيل منه ، بعدما أعجزتهم الحيل فلم يجدوا فى الإسلام مغمزا لطاعن ، أو طعنة لغامز ، لو تدبر هؤلاء مسألة (الرق) لوجدوا أنها كانت من القضايا التى يعود الفضل كله للإسلام فى حلها ، بل هى مفخرة من مفاخر الاسلام :

يقول الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله فى كتابه : (ما يقال عن الإسلام) :

مسألة الرق فى الإسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية ، يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شىء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للأديان ، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك .

ويتفق الماديون والمبشرون لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء ، **أولاهما** : نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية ، وحقوق الإنسان ، ويجهلون دينهم ، فيصدقون ما يقال منهم عنه فى مسألة الرق ، ولا يعلمون به أنه الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأو الإسلام فى إنصافه لجميع الأرقاء .

أما **الوجهة الأخرى** التى يتفق عليها الماديون والمبشرون : فهى غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الإسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية ، خوفا من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام ، قياسا على نجاح الإسلام بين الافريقيين فى الأزمنة القريبة مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك ، وعظم الجهود التى يبذلها المبشرون وتعاونهم عليها حكومات الدول الغربية ، فالماديون والمبشرون يجتهدون غاية الجهد لنشر دعوتهم بإغراء المال والسياسة ، ووسائل التعليم والتطبيب ، ويعلمون أن الإسلام كفيل بإحباط مساعيهم إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ، ويشتركون معهم فى الموطن ، ومصالح المعيشة ، فيتوسلون إلى تشويه سمعة الاسلام والمسلمين بإعادة القول فى مسألة (النخاسة) وتلفيق الأكاذيب التى توهم الأفريقيين المتحررين أن العرب قد احتكروا (النخاسة) قديما وحديثا ، وهم - أى دعاة المادة والتبشير - أول من يعلم من تاريخ (النخاسة) أنها كانت صناعة شركات أوربية وأمريكية ، تعتمد على سماسرتها

(١) الاية ١٦٤ من سورة ال عمران

من غير العرب المسلمين ، ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا فى مدارس المبشرين .

أما الحقيقة التى تقابل هذه الدعاية المسمومة وينبغى أن تقابلها فى ميادينها الواسعة ، فهى واضحة قريبة المنال ، كفيلة بإقناع من يستمع إليها مسلما كان أو غير مسلم .

ولكنه برىء من دواعى الغرض وسوء النية ، ولو امتلأت أذناه قبل ذلك بأكاذيب الماديين ومحترفى صناعة التبشير ، إن الأديان جميعا قبل الإسلام أباحت الرق ، وألزمت الأرقاء طاعة سادتهم ومسخريهم فى خدمتهم وخدمة ذويهم ، واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرما يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ويضلون عن سبيله .

وجاء الإسلام فشرع العتق ولم يشرع الرق : وقد ندب المسلمين إلى فك الاسار عن الأسرى ، فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة .

لقد أوجب الإسلام قبول الفداء مع استحسان فك الإسار بغير فداء .

وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ، ومن يحنث فى يمينه ، ومن يظاهر من زوجه ، ومن يؤدى الزكاة فى مصارفها ، ومنها فدية الرقاب ، ولم يبق الإسلام من قيود الرق إلا ما هو باق إلى اليوم باتفاق الدول ، وسيبقى بعد اليوم إلى أن يشاء الله .

فالقوانين الدولية تبيح اليوم تسخير الأسرى واعتقالهم ، إلى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى ، أو ببذل التعويض الذى تفرضه الدولة الغالبة ، وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنتظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الإسلام ، وأوجبه على الدولة الإسلامية ، وهى تتولى صرف الزكاة (فى الرقاب) فإذا كانت الدول غير الاسلامية لم تعرف لها نظاما تتبعه لاطلاق أسراها من الرق ، فهى المسئولة عن هذا التقصير ، وليس على الإسلام أو الدولة الإسلامية ملامة فيه .

وقد نعود إلى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الاسلامية وغيرها فنعلم أن هذه الدول الأخرى قد تعلمت من المسلمين نظام تبادل الأسرى ، وتحرير الأرقاء ، فقد اشتبكت الحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى ، وحكومات المسلمين التى تجاورها ، ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الاسلامية ، لتقدم العالم كله فى قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون .

اسألوا أدعياء التحرير فى العصور الحديثة

ماذا يحدث فى هذا العصر لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقا عليها بين المتقاتلين ؟

ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟

هل تعفيهم من العمل ؟

هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق ؟

هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند أعدائها ؟

هل تصنع بهم صنيعا أكرم من صنع الإسلام يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح ، أو يقبلوا الفداء والعتق ، أو يوجبوه فى مقام التكفير والإحسان ؟

إن صنيع الإسلام الذى أوجبه قبل أربعة عشر قرنا هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم فى إنصاف أسراها ، وأسرى أعدائها : فأما أن يكون لها صنيع أكرم منه : فلا ندرى كيف يكون ؟ ولا كيف يأتى النظام من النظم الدولية أن يستقر عليه ؟

على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الإسلامى فى تشريعات الدين بغير استثناء دولة منها فى أحدث تشريعاتها الإنسانية كما تسميها .

فالإسلام قد أنصف الأرقاء ابتداء بغير اضطرار إلى الإنصاف اتقاء لثورة سياسية ، أو منازعة اقتصادية ، أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح .

إن أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة إلى تحرير الأرقاء : جاءت على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى فى بلاد تنفق الأجور الوافرة على الصناع ، وبين أصحاب هذه الصناعات ، حيث تدار بأيدى الأرقاء ، ولا تنفق عليها أجورا ، فإن أصحاب الأموال والصناع معا حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة ، واستجابوا لدواعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الإنسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية : يوم احتاجت الدول إلى العبيد لتجنيدهم ، أو لصنع السلاح فى غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت .

وجاءت خطوة أخرى بعد هذه الخطوة : يوم أصبحت للعبيد أصوات يتنافس عليها المرشحون .

وجاءت بعدها آخر الخطى : يوم نهضت القارة الأفريقية نهضتها ، وتحررت شعوبها من سادتها ، وخاف أولئك السادة أن يستمال السود إلى معسكر أعدائهم فى سباق التنافس على التحرير ، واجتذاب قلوب المستضعفين إلى هذا الفريق أو ذاك .

فلما وصلت الحضارة الأوربية إلى هذا المدى بعد طول التعثر والمجال ، لم تكن قضية الرق عندها قضية سماحة وإنصاف ، ولكنها كانت ولاتزال قضية مساومة واضطرار وحيلة من حيل السياسة والإدارة ، وخطة من خطط التأجير والاستغلال ، والفارق الأكبر فى مسألة الرق من جانب الواقع التاريخى هو ذلك الفارق الذى تحصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء فى البلاد الإسلامية ، وعددهم فى البلاد الغربية ، حيث يعيشون اليوم بين الأمريكتين - فإن الأرقاء من الزنوج لم يزيدوا فى البلاد الإسلامية بعد ثلاثة عشر قرنا على ثلاثة ملايين أو نحو هذا العدد القليل ، بالقياس إلى سعة البلاد ، وطول الزمن ، واقتراب المكان ، ولكن عدد السود فى الأمريكتين قد بلغ العشرين مليونا ، ولم يمض على قيام الحكم (الأبيض) هناك أكثر من ثلاثة قرون .

وأبعد هذا الفارق فى العدد : فارق المعاملة التى لقيها الأرقاء فى البلاد الإسلامية ، والمعاملة التى لقيها إخوانهم فى الأمريكتين ، فلا وجه للمقارنة بين المساواة فى النسب والمصاهرة ، وحقوق الدم . والمال ، وبين تحريم المساكنة والمصاهرة ، واستباحة الدم انتقاما من الأسود الذى يرفع هذه الحواجز بينه وبين سادته (البيض) . ثم يستطرد الأستاذ العقاد :

إن مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الإسلامية ، والأمم الأفريقية التى تتحرر من قيودها ، وتتلمس سبيلها إلى عقيدة مثلى ، وحضارة تصلح لها وتخاطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية

للإسلام ، وليست بالدعاية التى يحارب بها الإسلام ، فإذا انعكست الآية وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الإسلام ، بمسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟

هكذا ينتهى هذا البحث التحليلى للدعاية المغرضة التى يشنها سماسرة المادة والتبشير ، وقد اتضح لكل ذى عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الإسلام ، إنما هى فى الحقيقة مفخرة عظمى للحل السليم الذى عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة .

ونحن نسأل هؤلاء وأولئك : هل الإسلام هو الذى أنشأ الرق ؟

إن الوقائع تثبت ، والتاريخ يؤكد ، والحقائق تقرر : أن الإسلام جاء والرق فى هذه الدنيا كأنه بحر لجى ، يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، فأخذ الاسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة على تلك الظلمات فيبددها بحكمة معروفة فيه ، كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادىء الذى يدفع الشراع ، دون أن يغرق المركب،أو كالنار الهادئة التى تقتل الجراثيم ، دون أن تحرق المريض .

فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعى ؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه (فى الدين والأخلاق والقومية) ما نصه :

محمد محرر البشرية :

عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقى سواد الليل وبياض النهار ، وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية ؟ وهل كانت حملته الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشىء أو لأحد غير الله .

الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الاسلام الذى أعلن كرامة الإنسان ؟ والاستعباد تبديل للفطرة ، فكيف يكون من أنظمة الإسلام الذى هو دين الفطرة ؟

وإن تعجب لشىء فاعجب لهؤلاء الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام ، وهم قوم يشهد تاريخهم ، بأنهم هم الذين أنشأوا الرق أبيضه وأسوده ، وأنهم هم الذين أفشوه ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها : من طريق الخداع والتمويه ، ومن طريق الإختلاس والاغتصاب ، وأنهم جاوزوا فيه الحدود ، ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب .

فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع ، ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام :

لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب : فى اليونان وفى الرومان وفى غير اليونان والرومان ، فتحت باب الرق على مصراعيه فكان جزاء القاتل أن يكون عبدا لولى الدم ، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكا لدائنه ، وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقا لرب المال ، ومصداقه فى قصة يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿ **قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين** ﴾ [1] .

---

(١) الآيتان ٧٤ ، ٧٥ من سورة يوسف .

وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء ، وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر ، إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد ﷺ ، خاتم النبيين ، وقدوة المصلحين ، فماذا صنع محمد صلوات الله وسلامه عليه حين جاء بالإسلام ؟ إنه أعلنها ثورة غاضبة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة حكيمة منظمة : كثورته على الخمر وثورته على الربا وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة ، والرذائل الموروثة المستحكمة .

لقد كانت سوق الرق فى تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل موصدة المخارج ، كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش فى النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة .

فانظر إلى الجهاز الذى أعده نبى الإسلام ﷺ لانقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة ؟ إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تندلع إلى خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لنطلق منها كل من استطاع النجاة ، وميازيب من الغيث صبها على من بقى فى الدار لتكون النار عليهم بردا وسلاما ، ريثما يتيسر لهم الخروج منها . وسأفسر لك ذلك :

ويمضى الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحا واقعيا فى ظلال الإسلام فيقول :

فأما النطاق الذى ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة : فذلك هو الدواء الواقى الذى أوقف من سير الداء ، حتى لا تسرى عدواه إلى غير المصابين ، ذلك هو القانون الذى منع استرقاق الأحرار ، وأمنهم منه بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب ، فاليوم لا الخطف والسلب ولا البيع والشراء ولا التغلب فى المشاجرات والغارات ، ولا تحكم رب الأسرة ، ولا العجز عن وفاء الدين ، ولا السرقة ولا القتل . . لم يعد شىء من ذلك كله ـ منذ ظهر الإسلام ـ يصلح مبررا لاستعباد الإنسان .

ولم يكتف الإسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل إنه حال بين الأحرار والاماء إلا فى حالة الاضطرار وخشية العنت ، وهذا من أوضح الأدلة على أن الاسلام ـ قبل أن يبدأ بالعلاج الشافى من الرق القائم بالفعل ـ أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء .

غير أن ها هنا شبهة تجول فى الخواطر ، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها : أما الشبهة فهى أن الإسلام ـ وإن كان قد سد كل الأبواب التى أشرنا إليها ، والتى كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد ـ قد ترك ـ إلى جانب هذه الأبواب ـ منفذا صغيرا لم يغلقه ، ذلك : هو حال الحرب الإسلامية المشروعة وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام .

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين ـ فى هذه الحال ـ أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ولو كانوا أحرارا ، وإما بقتلهم ؟

والجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس فى هذه الخطط الثلاث ، فالواقع أنها فى نظر الإسلام ليست سواء فى المشروعية .

فنحن إذا نظرنا فى نصوص القرآن الكريم لم نجد فيه أثرا لقتل الأسير ، ولا استرقاقه ، وإنما

نجد له فيه مصيرا واحدا كريما وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ (١) .

كما أن سنة الرسول الرحيم ﷺ لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير إلا فى حالة شاذة نادرة ، كان الأسير فيها معروفا بخطورة وشدة نكايته بالمسلمين ، فهو ليس قاعدة عامة ، وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطرين ، وهذا هو ما يعرف فى لغة العصر باسم : عقوبة (مجرمى الحرب) .

بقى الاسترقاق ، وواضح أنه يلى القتل فى القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كنظراته إلى القتل ، كما أن الحرية فى نظره شقيقة الحياة .

ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ : تحرير رقبة ؟

إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة . . فإن رفع إلى مستوى الحرية يعد إدراجا له فى زمرة الأحياء ، بعد أن كان محسوبا فى عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس فى روح التشريع الإسلامى ولا فى نصوصه ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ، أو يجعله فى نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام يوما إلى استرقاق الأسير : فإنما يكون منه نزولا على حكم الضرورة اتقاء لخطره ، وكسرا لشوكته وشوكة قومه .

على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائى وإنما يتخذه إجراء مؤقتا وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذى يرضاه ويلح فى المطالبة بتحقيقه ، ألا وهو : التحرير الكامل .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التى أعدها الإسلام لمكافحة الرق ، وأعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التى فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية .

ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب كان هو مفتاح القلوب ، فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ، ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل ، قال تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة ﴾ (٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام :

(من أعتق رقبة : أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار) (٣) .

ومفتاح ثان : هو مفتاح خزائن الدولة . . إذ جعل فيها سهما مكررا فى كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين .

ومفتاح ثالث : هو مفتاح (قانون الكفارات) وهو القانون الذى يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا : كالحنث فى اليمين والفطر فى رمضان والقتل الخطأ وغير ذلك .

ومن أهم هذه الأنواع (كفارة الإساءة) التى تقع من السيد فى حق العبد نفسه : وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ : (من لطم مملوكه أو ضربه : فكفارته أن يعتقه) (٤) .

هذا جزاء الضربة أو اللطمة . أما الجرح أو تشويه الجسم : فإن حكمه ـ عند أكثر الأئمة ـ أن

(١) الآية ٤ من سورة محمد (٢) الآيات ١١ ـ ١٣ من سورة البلد .

(٣) اخرجه البخارى فى الكفارات : ٦ . ومسلم فى العتق : وأبو داود فى العتاق : ١٣ . والترمذى فى النذور ١٤٠ . والامام أحمد فى ٢ : ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ وفى ٣ : ٤٩١ ، وفى ٤ : ١١٣ ، ٣٢١ ، ٣٨٦ ، ٤٠٤ .

(٤) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٤٥ . ومسلم فى الايمان : ٢٩ ، ٣٠

يصير العبد حرا بمجرد إصابته فينزع من ملك السيد قهرا عنه . وكذلك إذا كلفه سيده أعمالا فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الإسلامي الرحيم ، لقد رأينا أبوابا فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبوابا أغلقت دون الرق ، بين هذين الطرفين : ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ، ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، إنهم هنالك - ينتظرون دورهم فى استنشاق هواء الحرية الطلق : فهل صنع الإسلام شيئا لهذه الفئة فى فترة الانتظار ؟

نعم ! لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية فأعد لهم فيها وسائل للترفيه ، تجعلهم فى هذه الفترة يحيون حياة الإنسان ، ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات . . ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادميهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم . . هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين : (إنهم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من الأعمال مالا يطيقون ، فإن كلفتموهم : فأعينوهم) [1] .

صدقت يا نبى الرحمة - صلوات ربى وسلامه عليك !

هذا هو موقف الإسلام من الرق :

١ - منع لإنشائه وابتدائه .

٢ - عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

٣ - عطف سابغ عليه فى أثناء محنته وبليته .

أما بعد ، فهل من منصف يقولها معى :

أما والله لعبد فى ظل الإسلام خير من كثير من الأحرار فى كل نظام

وهكذا ينتهى هذا المقال الرائع الذى وضع النقاط على الحروف ، وكشف النقاب عن الحقيقة التى يثير حولها أعداء الله غبار الشبهات ، وهكذا تبين لنا كيف وقف الإسلام من مشكلة الرقيق وقفة الحزم والعزم ، كما هو فى كل شئونه :

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

داويت متئدا وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء : الداء

أبعد كل هذه الوصايا بالبشرية وإحاطتها بالكرامة . يجرؤ أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ما هو منه براء ؟

إن الإسلام يعد الناس جميعا متساوين فى الإنسانية لأنهم جميعا صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد . . (إن أباكم واحد وإن ربكم واحد) .

﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [2] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٢٢ ، وفى العتق : ١٥ . ومسلم فى الإيمان : ٤٠ .

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

وهذه المساواة العامة للإنسانية تتحطم معها فوارق الجنس واللون والحسب والنسب ، وهى فوارق الانحراف البشرى والظلام الإنسانى . . فوارق الجاهلية الضالة ، والهوى المتسلط ، والتعالى الكاذب ، والتمييز المصطنع ، وهو تمييز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق - فى قليل أو كثير - من طبيعة الخلق والولادة والمأكل والمشرب والحياة وأسباب المعرفة والإدراك .

المساواة فى الإسلام

لست أدرى : أين هى التفرقة فى واقع الخلق حتى تقع بين الخلق ؟ التفرقة فى حقيقتها انتكاس بالإنسانية ، وتفويت لأسباب الرفعة الحقيقية التى لا يمكن أبدا أن تتم لعبد يغفل عن حقيقة نفسه ومعرفة خالقه . والطبيعة تأبى على الإنسان أن يكون غير كونه إنسانا ، فهو خاضع للقوانين المسيطرة والسنن العامة والمصير المشترك ، كما تأبى سنن الخالق تبارك وتعالى أن يمتد بقاؤه فيحقق ما يصبو إليه من استعباد الناس والتعالى عليهم .

فكم من حالم أيقظته مخالب الموت !

وكم من مختال على العباد داسته أقدامهم فى التراب !

وكل ما فوق التراب تراب !

فمن أين تأتى التفرقة ؟ والمبدأ معروف ، والمصير مشترك ؟

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راقى
شخوص وأشكال تمر وتنقضى فتفنى جميعا والمهيمن باقى

الاسلام العظيم يأبى التفرقة ويحاربها ، والنبى الكريم -صلوات الله وسلامه عليه- يعلن فى خطبته الجامعة : (أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم) (١) .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ (٢) .

أخا الاسلام :

لا تركنن إلى القصور الفاخرة واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل يارب إن العيش عيش الآخرة

* *

إن المساواة تدعو إليها الفطرة العامة ويقضى بها المصير المشترك ويتطلبها عدل السلوك سلام الإنسانية . . . قامت فى الإسلام من أول أمره حين دعا الناس جميعا إلى عبادة الرب الواحد ، رب

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٤١١ .
(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

العالمين ، وهذه المساواة فى الإنسانية : تستلزم المساواة فى الحقوق .. فالناس جميعا أمام قانون الله سواء ، لا فرق بين عظيم وحقير وشريف ووضيع ..

فالحق أساس هذا الدين والعدل سياجه والناس ـ مع اختلاف عقائدهم وألوانهم وأجناسهم ـ أمام عدله وحقه : سواء !

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنيا تستعز به وكن عفيفا وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

• أجل ! صدقت يارب العزة يامن قلت : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ (١) .

العدالة فى الاسلام

والعدل فى الإسلام عدل مطلق يستوى فيه الأصدقاء ، والأعداء ، وأنت تسمع من قوانين هذا الدين قوله جل شأنه : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾ (٢) .

وأنت ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يغضب أشد الغضب ويحمر وجهه كأنه الشفق عندما تودعه الشمس الغاربة .. انها غضبة مضرية ..

وإذا غضبت فإنما هى غضبة للحق لا ضغن ولا شحناء

يغضب عندما يرى (أسامة بن زيد) الحب ابن الحب يستشفع لامرأة مخزومية شريفة الأصل ـ كانت قد سرقت ـ ويقول له غاضبا معنفا : (أتشفع فى حد من حدود الله ؟) ثم يخطب فى الناس قائلا : (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله : لو أن فاطمة بنت محمد سرقت : لقطعت يدها) (٣) .

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عملاق الإسلام ، وفاروق هذه الأمة ، يعلن فى سمع الزمن هذا المبدأ الخالد بعدما تولى خلافة المسلمين بعد أبى بكر الصديق رضى الله عنه فيقول :

(أيها الناس : الضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه).

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٨ من سورة المائدة .

(٣) أخرجه البخارى فى فضائل أصحاب النبى : ١٨ ، وفى الحدود : ١٢ . ومسلم فى الحدود : ٨ ، ٩ . وأبو داود فى الحدود : ٤ . والترمذى فى الحدود : ٦ . والنسائى فى السارق : ٥ ، ٦ . وابن ماجة فى الحدود : ٦ . والدارمى فى الحدود : ٥ . والامام أحمد فى ٣ : ٣٨٦ ، ٣٩٥ ، وفى ٥ : ٤٠٩ ، وفى ٦ : ٣٢٩ .

ويقول فى رسالة له لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى أمر القضاء : (آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك) .

وها هو ذا (ضرار الصدائى) يصف أمير المؤمنين عليا كرم الله وجهه وما اتصف به من العدالة والإنصاف للرعية فيقول : (كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه،ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا : لا نكاد نكلمه لهيبته،ولا نبتدئه لعظمته،يعظم أهل الدين ويحب المساكين . . لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله . . . كان ـ والله ـ غزير العبرة ، طويل الفكرة يقلب كفه ويخاطب نفسه) .

وهل ينسى التاريخ هذا الموقف الإسلامى المشرف الذى وقفه الفاروق من « عمرو بن العاص » حين علم أن ابنه ضرب أحد أبناء الرعية وقد قال له كلمته الخالدة : ياعمرو : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟) .

أبعد هذا التكريم للبشرية يجرؤ أفاك أثيم على أن يرفع صوته بهذه الفرية التى تقول:إن الرق فى الإسلام يعتبر تهمة توجه ضده وهو لم يقرأ عن الإسلام شيئا بل إنه يهرف بما لا يعرف .

وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق** ﴾[1] .

هذا الإسلام هو الذى كانت عدالته مضرب الأمثال فى معاملة البشر مهما اختلفت أجناسهم ومعتقداتهم .

ومن جليل ما يذكر فى هذا المجال ما جرى بين على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب وقد تحاكم الأول أمام عمر وكان الخصم يهوديا وكان عمر ـ كعادته ـ ينادى عليه قائلا : ياأبا الحسن فلما ناداه فى هذه المرة وهو يتحاكم أمامه كعادته ظهر الغضب على،وجه على فظن عمر أن عليا يتبرم من وقوفه مع اليهودى على قدم المساواة وعلى هو من تعلم : حسبا ونسبا وإيمانا وصدقا . . قال عمر لعلى : أكرهت أن يكون خصمك يهوديا ؟ فقال على رضى الله عنه : إنما غضبت لأنك لم تسو بينى وبين خصمى اليهودى إذ ناديته باسمه وناديتنى بكنيتى ! !

أرأيت أن المساواة فى الحقوق ليست بين المسلمين وحدهم ، بل بين المسلمين وغير المسلمين ، وأن عليا يقف فى ساحة القضاء مع خصم يهودى يأبى عليه دينه أن يترك لفظا تشم منه رائحة التعظيم له فيغضب ، ويعد هذا تمييزا فى موطن القضاء . . وما كان النداء من عمر إلا نداء قد اعتاده ولكن لم يستطبه منه فى هذا الموطن : (موطن القضاء ورد الحقوق) ! ! !

**

أبعد كل هذا تجوز المقارنة بين عدالة الإسلام ونزاهته ونظافته وطهارته وبين ما يدور فى العالم من شرور التفرقة العنصرية فى أعظم الأمم حضارة فى عصرنا هذا ؟ !

إذ لا تصح المقارنة بين شريعة الله وشريعة الغاب التى وضعها العبد وسولت له نفسه الأمارة بالسوء أن يحكم بها عباد الله .

---

(١) الأيتان ٨ ، ٩ من سورة الحج .

شتان ثم شتان بين عدل الخالق جل شأنه وبين ظلم المخلوق ! !

وحسبك ياأخى أن تعلم أن الاسلام يبنى عزائم المؤمنين لإقامة الحق والعدل مع الصديق والعدو .. مع الفقير والغنى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا**﴾[١] .

ثم تأمل بعد ذلك الهدى الإلهى والعدل الربانى .. تأمل ما تنص عليه شرائع القوم هناك فى العالم الحر : من تفريق بين الأسود والأبيض وتجعل للبيض حقوقا لا ينالها مواطنوهم السود .

وما أمر هذه التفرقة فى أمريكا وجنوب أفريقيا وغيرهما من دول العالم بالأمر الخفى الذى يحتاج إلى بيان ! !

* *

محمد : الذى جعل من العبيد سادة

هذه حقيقة ثابتة لا يجادل فيها إلا مكابر ولا يمارى فى مضمونها إلا كل معتد أثيم ﴿ **يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها** ﴾[٢] .

وأولى بالذين يحاولون أن يجعلوا من مسألة الرق شبهة يثيرون غبارها على جلال الإسلام وجماله .. فأولى بهم أن يرددوا هذه الحقيقة إذا أرادوا الإنصاف وطلبوا وجه الحق .

أولى بهم ان يقولوا:إن محمدا هو الذى جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين موجهين وقادة .

لقد كان مولده الشريف إيذانا بأنه محرر العبيد فقد كانت أول رضعة وأول جرعة لبن نزلت جوفه الشريف من جارية لعمه أبى لهب ، تسمى (ثويبة) وكان من حسن الطالع وبشير اليمن : أن هذه الجارية عندما ذهبت وأخبرت أبا لهب بمولد السيد الجليل محمد ﷺ : فرح بهذا الخبر فرحا عظيما ، وكانت مكافأته لها : عتقها ، فصارت بسبب هذه البشرى الكريمة حرة تنشق نسيم الحياة الكريمة .. وكان مولده الشريف إيذانا وإعلاما بأن هذا المولود سيجعل من العبيد سادة ومن المستضعفين مفكرين وقادة .

وها نحن أولاء ننتقل بالحديث عن جارية أخرى إنها السيدة الجليلة (بركة الحبشية) المكناة بـ (أم أيمن) .

وكانت أمة مملوكة للسيدة آمنة أم رسول الله ﷺ وقال لها سيدنا محمد ﷺ بعد موت أمه : (أنت أمى بعد أمى) وقد أسلمت بعد ما دخلت خديجة ـ رضى الله عنها ـ فى الإسلام .. إذ أن خديجة كانت أول من آمن بالنبى ﷺ من النساء ، وأقامت (أم أيمن) بمكة تحتمل أذى المشركين إلى أن جاءت الهجرة إلى المدينة ، فخرجت من مكة ماشية إليها ، وليس معها ماء تشربه . ولا زاد تأكل منه ، وكان عندها قوة عجيبة على احتمال العطش والجوع . حتى أنها كانت تصوم فى اليوم الحار ، ثم تطوف فى الشمس كى تعطش فلا يصيبها عطش .

---

(١) الآية ١٣٥ من سورة النساء .

(٢) الآية ٨ من سورة الجاثية .

أما جهادها فى الإسلام فقد كانت تقوم بسقى الجيش ، وتداوى الجرحى فى القتال .
ومما حضرته من الغزوات غزوة أحد ، وخيبر ، وكانتا من أهم غزوات النبى ﷺ .
هذا بالإضافة إلى أنها كانت من أكثر النساء المهاجرات حظا فى الشهداء من رجالهن . . فقد تزوجت بعبيد بن زيد ، وأنجبت منه أيمن الذى مات شهيدا (يوم خيبر) وبعد موت (عبيد) : تزوجت بزيد بن حارثة ، وأنجبت منه أسامة بن زيد ، وقد مات « زيد » شهيدا فى (**مؤتة**) فصبرت على فقد زوجها (زيد) وابنها (أيمن) وكان (**أسامة**) غلاما فعكفت على رعايته والعناية به حتى جعلت منه رجلا يقود جيشا : فيه من الأبطال مثل أبى بكر وعمر ، وكان آخر جيش أعده النبى ﷺ ولم يكن (أسامة) قد جاوز العشرين سنة .
ولما مات النبى ﷺ كانت (أم أيمن) تبكيه كلما ذكرته ، ولا ينقطع بكاؤها عليه ، وقد قال أبو بكر لعمر : انطلق بنا لنزور أم أيمن كما كان رسول الله ﷺ يزورها ، فلما دخلا عليها بكت فقالا لها : ما يبكيك فما عند الله خير لرسوله ؟ فقالت : أبكى لأن وحى السماء قد انقطع ، فهيجتهما على البكاء ، فجعلت تبكى ويبكيان معها .

وليس هناك أسمى من هذه النفس التى تبكى انقطاع الوحى ، وتحزن بفقد الاتصال بالسماء ، فهى لا ترى إلا السعادة الروحية التى تصل بيننا وبين الملأ الأعلى ، وتفيض على أهل الأرض فتسمو بهم إلى مواطنها .
وقد ماتت (أم أيمن) بعد عشرين يوما من خلافة عثمان رضى الله عنه ، سنة ٦٤٣ م .

* *

أرأيت إلى هذا الجلال وتلك العظمة فى هذه السيدة التى كانت مملوكة للرسول ﷺ ، فامتدت يداه الكريمتان فأهداها نعمة الحرية ، وجعل منها السيدة التى تكلم الخليفة أبا بكر ووزير عدله عمر كلمة تجعلهما يبكيان ويذرفان الدمع على انقطاع الوحى بعد رسول الله ﷺ ؟ !
إن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن محمدا ﷺ هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة .

زيد بن حارثة

حب رسول الله ﷺ الذى قال فى شأنه : (أنت مولاى ومنى وأحب القوم إلى)[1] .

نشأته وشأنه ومكانته فى الإسلام : ـ

خرجت أمه (سعدى بنت ثعلبة) معه تزور قومها (بنى معن) فأغارت خيل لبنى القيس بن جسر ، فمروا على أبيات (بنى معن) فاحتملوا زيدا ـ وقد كان يومئذ غلاما يافعا ـ ولم يعرف أبوه بعد شيئا عنه .

وكان موسم الحج قد أقبل فحج قوم من (كلب) وأمام أعينهم دائما صورة هذا الرجل الباكى (حارثة بن شرحبيل) ومضوا يطوفون بالبيت ، وهناك رأوا (زيدا) فعرفهم وعرفوه ، وأقبل عليهم وعلموا منه أن خاطفيه وافوا به (بسوق عكاظ) فعرضوه للبيع فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن

(١) أخرجه البخارى فى الصلح : ٦ ، وفى فضائل أصحاب النبى : ٠١٧ والإمام أحمد فى ١ : ١٠٨ ، ١١٥ ، وفى ٥ : ٢٠٤ .

خويلد ، لعمته خديجة بنت خويلد ، بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها شريف قريش : محمد ﷺ وهبته له ، وانطلق « الكلبيون » وأعلموا أباه .

فخرج (حارثة) وأخوه (كعب) بفدائه ، وقدما مكة فسألا عن النبى ﷺ فدخلا عليه وقالا : يابن عبد الله ! يابن عبد المطلب ! يابن هاشم ! يابن سيد قومه ! أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ، جئنا فى ابننا فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه ، فإنا سندفع لك الفداء .

فقال لهم الرسول ﷺ : (ادعوه فخيروه فإن أختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى) .

فدعاه النبى ﷺ وقال له : (هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : من هما ؟ قال زيد : هذا أبى وهذا عمى . فقال رسول الله ﷺ : فأنا من علمت ورأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما) .

فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى بمكانة الأب والأم .

فقالا : ويحك يازيد ! أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ ! قال زيد : نعم إنى قد رأيت من الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا .

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر وقال : (يامن حضر:اشهدوا أن زيدا ابنى ، أرثه ويرثنى) .

فلما رأى أبوه وعمه ذلك : طابت نفساهما وانصرفا.

ونزلت الرسالة على محمد-صلوات الله وسلامه عليه - فكان زيد أول من آمن به من الأرقاء ، ولم يفارق النبى-صلوات الله وسلامه عليه-لحظة فأحبه النبى حبا شديدا وأذن النبى ﷺ فى الهجرة لأصحابه ، هاجر زيد ونزل فى المدينة على سعد بن خيثمة ، ولما هاجر الرسول الأعظم إلى (يثرب) وآخى بين المسلمين : كان حمزة سيد الشهداء ، وزيد : أخوين فى الله ، ثم آخى النبى الأعظم بعد مقتل حمزة بينه وبين أسيد بن حضير .

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد من الرماة المذكورين فشهد بدرا وأحدا ، واستخلفه الرسول ﷺ على المدينة حين خرج إلى (المريسيع) وشهد (الخندق) و (الحديبية) و (حنينا) .

وخرج (زيد) أميرا فى سبع سرايا أولها (القردة) فاعترض لعير قريش فأصابها . وأفلت . أبو سفيان منهم ، وأسر (زيد) (فرات بن حيان العجلى) وقدم بالعير على النبى ﷺ ، وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون .

قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : (ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى جيش قط إلا أمّره عليهم ، ولو بقى بعده : لاستخلف) .

وأراد رسول الله ﷺ أن يغزو الروم فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين وعقد لزيد ، وقدمه على الأمراء الآخرين قائلا : (عليكم زيد بن حارثة) فإن أصيب زيد : فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر ، فعبد الله بن رواحة) .

وتحرك الجيش الإسلامى بقيادة لواء الإسلام (زيد بن حارثة) .

أليس فى هذا المعنى ما يعطى الدلالة الصادقة على أن رسول الله ﷺ هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة؟

هذا (زيد) يقود جيشا فيه (جعفر الطيار ، ابن عم رسول الله ﷺ الشريف الكريم ، وفيه (خالد بن الوليد) وخالد هو سيف الله المسلول .

ومن بعد زيد : قاد ابنه (أسامة) الحملة بعد وفاة رسول الله ﷺ ، قادها إلى فلسطين ، وكان على رأس جيش فيه أبو بكر الصديق ، وعمر الخليفة ، فاروق هذه الأمة .

أى دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى معنى أوضح من هذا المعنى ؟ إنه الإسلام الذى كرم البشرية وزكى النفوس وطهر القلوب ! !

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

الـدين والـدنيـا لنا جمعتهـما لـك شـرعـة قـدسيـة غـراء
والمسلمـون جميعهم جسـد إذا عضو شكا سهرت له الأعضاء

سار المسلمون وعلى رأسهم زيد حتى وصلوا إلى (مؤتة) وهناك علموا بتجمع جيوش الروم فى أكثر من مائة ألف ، وهم ثلاثة آلاف فقط ، وهناك تردد الناس قليلا .

ولكن ما لبث الأمير أن اندفع يقاتل الروم ، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التى يريدها ؟ ! وتناولته السيوف بالطعن وهو يقاتل دون راية رسول الله ﷺ . . وأخيرا . . استشهد الأمير .

أيتها النفس الكبيرة !

لقد عرف النبى الأعظم حقيقتك فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة النبوة ، حيث قال : (زيد ابنى) ، ثم أمرك على المسلمين ، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين .

وفى المدينة وقف النبى ﷺ يقول : (استغفروا لزيد : لقد دخل الجنة وهو يسعى) .

ثم أتى أهله فجهشت بنت زيد بالبكاء ، فبكى النبى ﷺ حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة : يارسول الله ما هذا ؟ فقال له الرسول ﷺ : (ياسعد : هذا شوق الحبيب إلى الحبيب) .

* *

يرحمك الله يازيد بن حارثة ! يامن أثنى عليك رسول الله خيرا ، ويامن أنعم عليك الله بالإسلام ، وأنعم رسوله عليك بالعتق . . يامن ختم الله لك حياتك الكريمة بالموتة الكريمة فلقيته شهيدا ، وعشت فى دار الكرامة فى مقعد صدق عند مليك مقتدر !

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[1] . .

بلال بن رباح

مؤذن رسول الله (وكفى بالأذان شرفا)

أليس المؤذن هو الذى يرفع كلمة التوحيد عالية يشنف بها الآذان ، ويملأ بها القلوب عزة

(١) الآيتان ١٦٩ ، ١٧٠ من سورة آل عمران .

وكرامة ؟

كان (بلال) عبدا مملوكا لأمية بن خلف ، ولاقى من الأذى فى سبيل عقيدته ما لا يقوى عليه أحد غيره ، فوقف من التعذيب والتنكيل موقف الجبل الأشم ، لا تحركه العواصف ، ولا تؤثر فيه الرياح القواصف ، كان كلما اشتد عليه الأذى ، وتضاعفت أمامه الكروب . . ازداد إيمانا على إيمانه .

بلغ من قسوة أمية بن خلف أنه كان يطرحه على رمضاء مكة وقت الظهيرة ، حيث الشمس تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، ويسيل منها لعاب كالمهل يشوى الوجوه .

ولا عجب فأمية عرفه التاريخ بأنه رجل حديد اللسان ، حديد الوجه ، حديد القلب . . لو وزعت قسوة قلبه على الناس ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم .

كلما اشتد الأذى ببلال : كان يردد هذا النشيد الخالد : (أحد أحد ، فرد صمد ، لا والد ولا ولد) .

أجل يابلال ! إن الله واحد فى ذاته لا شريك له،واحد فى صفاته لا نظير له . . إنه رب السماء والضعفاء والجبال والشجر . . إنه رب عزيز قادر له الجبين قد سجد !

ويردد (بلال) هذه الكلمات كلما أمره أمية بالكفر **ويشتاط** عدو الله غضبا فيقول له العبد المؤمن : إن أكن عصيتك فقد أطعت الله . عذب ما شئت فإنك إنما تعذب جسدى ، أما روحى فلن تنال منها شيئا ؟ !

لله درك يابلال : لقد ضربت المثل الأعلى فى الصمود والثبات على المبدأ الحق ، حتى جعل الله لك من الضيق فرجا ، وقد تقدم الصديق رضى الله عنه فاشتراك وأعتقك ، وكنت صاحب المكانة المرموقة عند رسول الله ﷺ .

عرفت بالصوت الندى فى الأذان ، حتى قال عنك رسول الله ﷺ : (إنك أندى صوتا) . وكان لك الشرف العظيم أن تعلن الأذان من فوق البيت الحرام يوم الفتح الأعظم ، حيث اشرأبت الأعناق ، وقال بعض أهل مكة من ذوى النفوس التى ملكها الكبر : ألم يجد محمد غير هذا المؤذن ؟

فرد عليهم القرآن الكريم فى صراحة ووضوح وحزم وعزم : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير** ﴾[1] .

سرعة بديهته رضى الله عنه :

لا ننسى ذكاءك وسرعة بديهتك وحضور حجتك ، عندما سألك سائل فقال لك يابلال : ابن من أنت ؟ فقلت له على الفور : أنا ابن الذى أسجد الله له الملائكة !

صدقت يابلال فرسول الله ﷺ يؤيدك كل التأييد إذ يقول : (كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى)[2] .

ولا ينكر أحد مكانتك فى قلب المصطفى ، لقد غضب من أبى ذر الغفارى الصحابى الزاهد الورع ، عندما قال لك فى لحظة غضب : يابن السوداء،فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك : امتلأ غضبا وقال

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ٤٩ : ٥٠ ، وفى المناقب : ٧٣ . وأبو داود فى الأدب : ١١١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ، ٥٢٤ .

فى حدة وشدة : (ياأباذر : أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية)[١] .

وأخذت هذه الكلمات كل مأخذ وكأنها سهام بتارة ، جعلت أبا ذر رضى الله عنه يضع خده على الرمال ويقول : يابلال : طأ على خدى بقدميك) .

إنه الأدب والخلق الذى تربى عليه أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه . .

إذا أخطأوا ، أو ظلموا أنفسهم ، أو شعروا بانحراف فى النفس : استيقظت لواعج الوجدان ، فذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم !

دعابة لطيفة : -

لقد كان رسول الله ﷺ إذا رأى هؤلاء النفر الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام والعتق : يبش لهم ويبتسم .

سأل رسول الله ﷺ بلالا ذات يوم - وكان يوم الأضحى - بم ضحيت يابلال ؟ فقال:يارسول الله : لم أجد إلا (ديكا) فضحيت به فقال له الرسول ﷺ فى دعابة لطيفة:(مؤذن ضحى بمؤذن) .

وكان المصطفى ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقا .

فرحمك الله يابلال ، يامن رفعت إلى مكانة فى الإسلام عالية مرموقة ، ونلت من الله فضلا عظيما ، وأجرا كريما .

سلمان الفارسى

الرجل الذى بحث عن الحقيقة العليا ، ونخل مخزون فكره ، وقدح زناد رأيه فى سبيل الوصول إلى الحق .

نشأ بين قوم فى بلاد الفرس يعبدون النار من دون الله ، وكان أبوه قد جعله قائما على شأن النار يغذيها بالوقود ، إذا ما أوشكت أن تضعف . . . !

ودارت فى نفسه وعقله أفكار وتساؤلات . . هل يليق بالإله أن يكون محتاجا إلى عباده ؟ وماذا يحدث لو أنه أهمل مده بالوقود ؟ لابد أن تنطفىء هذه النار . .

وأخيرا . . . ولى هاربا وهاجر من هذه البلاد يسعى وراء الحق ، ويطلب الحقيقة . . . ونزل على أحد الرهبان فدله الراهب على أن الحق فى شريعة محمد خاتم الأنبياء ، وولى (سلمان) وجهه شطر المدينة فى قافلة متوجهة إلى هناك ، لكن أحد اليهود المقيمين بيثرب ادعى أنه قد اشتراه فصار (سلمان) عبدا مملوكا لذلك اليهودى ، يقوم على خدمته ورعاية شئونه .

ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة : أسرع سلمان ليختبر منه الصفات التى أرشده إليها الراهب الذى التقى به فى بلاد الشام ، من أن النبى ﷺ لا يقبل الصدقة . ولكنه يقبل الهدية ، وأن خاتم النبوة دليل واضح على صدق دعواه ، وتحققت هذه كلها فى رسول الله أمام سلمان فأسلم ، وتعاون المسلمون على شرائه من اليهودى ، ثم أعتقوه ، فصار حرا ، وكل منهم يريد أن ينسبه إليه فقال الرسول ﷺ لهم : (سلمان منا آل البيت) .

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٢٢ ، وفى الأدب : ٤٤ . ومسلم فى الإيمان : ٣٨ ، ٤٠ وأبو داود فى الأدب : ١٢٤ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٢ : ٠١ الإمام أحمد فى ٥ : ١٦١ .

وكان (لسلمان) موقفه التاريخى المجيد يوم (الخندق) . . عندما ادلهمت الخطوب واشتدت المحن ، وحوصرت المدينة استشار الرسول أصحابه فأشار عليه سلمان بحفر الخندق ، وصادف هذا الرأى قبولا مطلقا فى نفوس المسلمين ، فحفر الخندق وكان فى حفره خير ويمن .

إننا لا ننسى (لسلمان) هذا الموقف الإسلامى الجليل ، ولا ننسى له شدة تمسكه ، وعمق تغلغله فى مفاهيم الإسلام . . قال له سائل : ياسلمان : من أبوك ؟ فقال له بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : (أنا ابن الإسلام) ولما بلغ هذا الخبر أمير المؤمنين (عمر) بكى وقال ثلاث مرات : وأنا ابن الإسلام .

أجل ياسلمان !

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد حط بالشرك النسيب أبا لهب

كان (سلمان) رجلا مجدا فى حياته لا يعرف الكسل . . كان يكتسب لقمة عيشه بكد يمينه وعرق جبينه . . كان يأتى بـ (خوص) النخيل فيصنع منه المكاتل ويبيعها ، ويقسم الربح أقساما ثلاثة : قسم يتصدق به على الفقراء والمساكين ، وقسم ينفق منه على أهله ونفسه ، وقسم يعمل فيه فى التجارة !

وقد صدق فيه قول رسول الله ﷺ : (إن الله يرضى لرضا سلمان ، ويغضب لغضبه ، وإن الجنة لتشتاق إلى سلمان أكثر من اشتياقه إليها) .

رحمك الله ياسلمان ، وجزاك عن الإسلام خيرا ، يامن قال عنك الرسول ﷺ :(سلمان منا آل البيت) :

هنيئا لك ، ثم هنيئا لك بهذا الشرف الذى رفعك إليه سيد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه . .

وخلاصة القول : ـ

هذه نماذج كريمة لقوم جعل منهم الإسلام سادة وقادة

لقد حاول الملأ من قريش أن يصرفوا نظر رسول الله ﷺ عن هؤلاء المستضعفين ، وقالوا له بلسان الكبرياء والصلف : إن أردتنا ان نؤمن بك فاطرد هؤلاء الصعاليك من حولك ، والله يشهد إنهم لكاذبون ، وأن قلوبهم قد إن عليها صدأ الجبروت والعناد .

فماذا كان جواب الإسلام على افترائهم ؟

لقد مروا برسول الله ﷺ ذات يوم فوجدوه قد بسط رداءه لهؤلاء المستضعفين وخفض لهم جناحه لأن الله رد على هؤلاء المتكبرين بقوله : **﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾**[1].

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الكهف .

وقال أيضا : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء ومامن حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾(١) .

بل لقد كرمهم القرآن تكريما دونه كل تكريم حيث قال تعالى : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾(٢) .

وكان السيد الجليل رسول الله ﷺ إذا لقيهم يقول : (مرحبا بمن أوصانى ربى بهم خيرا) .

ذلكم هو الإسلام العظيم

إن الإسلام هو الحق الذى لا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول ولا أرباعها ، ويأبى الترقيع ، ولقد صدع الإسلام فى عهد النبوة كل محاولة لمساومة أصحابه واستدراجهم لقبول بعض الحلول ، أو التنازل عن بعض الحق .

فهذه قريش تقترح على محمد أن يعبد آلهتها شهرا لتعبد إلهه شهرا آخر ، فينزل القرآن الكريم بالموقف الحاسم من أمثال هذه المساومات ، فيقول : ﴿ قل ياأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ﴾(٣) .

وجاء عتبة بن ربيعة يوما إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه العروض السخية ، يعرض عليه المال والملك والسلطان ، على أن يترك الأمر الذى جاء به ، ويتخلى عن الإسلام ، لكن محمدا ﷺ التفت إليه مستعليا بإيمانه ، معتزا بإسلامه ، قائلا : (ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم) .

وقد يكون من نافلة الكلام أن نقول إن البشرية لم تعرف فى مدار التاريخ منهجا (واقعى) الخصائص كالاسلام ، فهوا المنهج (الوحيد) الذى غير مجرى الحياة الإنسانية ، وأحدث فى المجتمع البشرى انقلابا جذريا شاملا ، قوض كل الأفكار ، وكل الأخلاق ، وكل المعتقدات الجاهلية .

فالمنهج الإسلامى تجاوز نطاق النظريات (التجريدية) وتجسدت مبادئه واقعا حيا عاشه الناس ، وحفظه التاريخ ، ونطقت به الشواهد والأحداث .

وكان مبدأ (لا إله إلا الله) دفعة العقيدة فى قلوب الناس ، ومحرك الثورة الأصيل فى نفوسهم ورمز انخلاعهم من ضلالات الجاهلية وأوضارها وانصهارهم فى بوتقة الدين الجديد ، وكان الجذوة المتقدة التى حررت الإنسان من عبودية الأصنام ، وكرمته من اتخاذ الناس أربابا من دون الله ، وألزمته إفراده سبحانه بالربوبية والألوهية ، والخضوع والحاكمية ، فلم تكن (لا إله إلا الله) شعارا تتحرك به الألسن من غير وعى ، أو تردده الشفاه بدون إدراك .

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الانعام .
(٢) الآية ٥٤ من سورة الأنعام .
(٣) سورة الكافرون .

وإنما كان هتافا ربانيا عميقا يحدو القلوب إلى السماء ويشدها نحو العلاء ، فتمتلىء بقوة الله قوة ، وتحس فى وصاله طمأنينة ، وتغدو بجواره عزيزة كريمة .

بهذا الامتلاء العقيدى والعبق الإيمانى ، كان العربى بعد الإسلام يقف أمام طواغيت فارس والروم ، يدعوهم إلى الإسلام بأعتزاز ، ويبين تعاليمه بجرأة ، ثم يحذرهم عاقبة جحودهم وكفرانهم ، ويخيرهم بين الجزية والحرب ، ذكرت كتب التاريخ أنه قبيل معركة (القادسية) طلب رستم قائد الفرس من المسلمين أن يرسلوا إليه وفودا ورسلا منهم ليباحثهم ويباحثوه ، ويفاوضهم ويفاوضوه .

فندب المسلمون فيمن ندبوا (المغيرة بن شعبة) ليكون سفيرهم إلى رستم ، فلما وصل إليهم وهم على زيهم وبسطتهم (أدنى) من مجلس رستم جاء وجلس معه على سريره ، فغضب وأمر بإنزاله عن السرير ، فالتفت المغيرة إليهم قائلا : (إننى لم أر أسفه منكم ، إننا معشر المسلمين لا يستعبد بعضنا بعضا ، فظننتكم كذلك ، وكان أحسن بكم ان تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، مع أنى لم آتكم وإنما دعوتمونى ، فقد علمت أنكم مغلوبون ، ولن يقوم لكم ملك على هذه السيرة) .

وتكلم رستم فعظم من شأن فارس ، ثم قال : (كانت عيشتكم سيئة ، وكنتم تقصدوننا فى الجدب ، فنردكم بشىء من التمر والشعير ، ولم يحملكم على ما صنعتم إلا ما بكم من جهد ، فنحن نعطى لأميركم كسوة وبغلا وألف درهم ، وكل رجل منكم حمل تمر ، وتنصرفون ، فلست أشتهى قتلكم) .

فلم يكن من المغيرة إلا أن التفت إليه قائلا: (أما الذى وصفتنا به من سوء الحال والضيق ، فنعرفه ولا ننكره ، والدنيا دول ، والشدة بعدها رخاء ، ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم قليلا على ما أوتيتم ، وقد أسلمكم الله بضعف الشكر إلى تغير الحال ، وإن الله بعث فينا رسولا يدعونا إلى كذا ، فإن أبيتم فأمر أهون من ذلك فهو الجزية ، فإن أبيتم فالمناجزة) .

والعبادات فى الإسلام ليست طقوسا جامدة ، أو مراسيم ميتة ، لا هدف لها ولا غاية ، بل إن الإسلام أرادها (مدرسة) للتربية (ومصنعا) للأخلاق والمثل ، أرادها معراجا تسمو به النفوس وتحلق ، ومصفاة تصفو بها الأرواح وتزكو ، فالإسلام يحرص من عباداته على نتائجها وآثارها ، ويحاسب على مدى التفاعل بها فضلا عن فرضية أدائها .

فالمدلول التطبيقى ، والهدف العملى لمبدأ (الصلاة) أن تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، وأنه لا قيمة للصلاة عند الله ما لم تؤد هذا الغرض ، فقال تعالى : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾[1] .

وقال الرسول ﷺ : (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا) ,

وقال : (كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب) .

وقال : (ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها) .

والمدلول التطبيقى والهدف العملى لمبدأ (الصوم) ترويض النفس وسائر الأعضاء على الطاعة ،

---

(١) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت

وأنه لا ثواب لمن صام بطنه وأفطر فرجه ، أو صامت معدته عن الطعام وأفطرت جوارحه على البغى والفحش والفجور ، وهذا ما يؤكده الإسلام فى أحاديث كثيرة للرسول ﷺ ، يقول فيها : **(إنما الصوم جنة ، فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم ، إنى صائم)**[١] .

ويقول : **(كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش)** .

ويقول : **(من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه)** . وجاء فى الخبر : **(إن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا ان تتلفا ، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ يستأذنانه فى الإفطار ، فأرسل إليهما قدحا وقال : قل لهما قيئا فيه ما أكلتما ، فقاءت إحداهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا ، وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه ، فعجب الناس من ذلك فقال الرسول ﷺ : هاتان صامتا عما أحل الله لهما ، وأفطرتا على ما حرم الله تعالى عليهما ، قعدت إحداهما إلى الاخرى فجعلتا تغتابان الناس ، فهذا مما أكلتا من لحومهم)**[٢] .

وهكذا تستهدف فلسفة العبادة فى الإسلام تحقيق الأثر الفعلى ، وحصول التحول الكيفى فى حياة الناس .

كذلك القول فى القواعد الأساسية التى يقوم عليها التشريع الإسلامى ، فإنها تمتاز بقابليتها الأصلية ، واستعدادها الفطرى للتطبيق .

فالتشريع الإسلامى ليس كسائر التشاريع المسطرة فى بطون الكتب البعيدة عن صميم حياة الناس ، بل إن نزعته التطبيقية وخصائصه التنفيذية تجعله منهجا ثوريا وحركيا وانقلابيا ، فيه كل امكانات الثورة ، وكل متطلبات الحركة ، وكل حاجات الانقلاب .

فمن الشواهد التطبيقية لمبدأ (المساواة) فى الإسلام أن رسول الله ﷺ قلد أسامة بن زيد إمرة الجيش الإسلامى ، وهو ابن عبد رقيق ، وفى الجيش كبار الصحابة ، وأن بلالا الحبشى بلغ فى الاسلام مقاما عظيما وشأوا كبيرا ، جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا ذكره يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » .

وإنه لما خرج المسلمون لفتح مصر رغب المقوقس فى المفاوضة فأرسل إليهم وفدا ليعلم ما يريدون ثم طلب منه أن يبعثوا إليه وفدا منهم ، فشكل عمرو بن العاص (قائد الجيش آنذاك) وفدا قوامه عشرة من المسلمين ، برئاسة (عبادة بن الصامت) وكان شديد السواد طويلا .

ولما دخل الوفد على المقوقس تقدمهم عبادة ، فأبى أن يكلمه رجل أسود ، وقال لمن معه : نحوا عنى هذا الأسود ، وقد مواغيره يكلمنى : فقال الوفد جميعا : إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع إلى قوله ورأيه ، وقد امره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله .

---

(١) أخرجه البخارى فى الصوم : ٠٢ ومسلم فى الصيام : ١٦١ ، ١٦٢ . وأبو داود فى الصوم : ٢٥ . والترمذى فى الصوم : ٥٤ . والنسائى فى الصيام : ٤٢ ، ٤٣ . وابن ماجه فى الصيام : ١ . والدارمى فى الصوم : ٢٧ ، ٠٥٠ والإمام أحمد فى ١ : ١٩٥ ، وفى ٢ : ٢٧٣ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٤٣١ .

فقال لهم المقوقس : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغى أن يكون دونكم ؟

قالوا : كلا إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعا ، وأفضلنا سابقة ، وعقلا ورأيا ، وليس ينكر السواد فينا .

ومن الشواهد **التطبيقية** لمبدأ (العدالة) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يفرض لجميع المسلمين عطاء من بيت المال ، ويقول : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد إلا وله فى هذا المال نصيب ، ولكن على منازلنا فى كتاب الله تعالى ، فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين **الراعى** بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى غنمه .

وإذا كان الرسول ﷺ قد أعلن مبدأ العدالة فى كلام جامع قال فيه :(لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى)[١] .

فقد أصبح القول عملا ، والمبدأ واقعا فى حياة المسلمين ، وعلائقهم ومعايشهم ، وتحقق فيهم قول الله تعالى:﴿ **يأأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا** ﴾[٢] .

بهذه النماذج التطبيقية كانت تتجسد مبادىء الإسلام التشريعية فى حياة المسلمين ، لم تكن شعارات للاستهلاك والمتاجرة ، كما أنها لم تكن نظريات ومثاليات مجردة،عاجزة عن التطبيق ، عارية عن التصديق .

كذلك فإن قيام المجتمع الاسلامى فى عهد النبوة ، واستمراره زمنا ليس بالقصير ، دليل حاسم على قابلية الاسلام للتطبيق .

يقول (توماس كارليل) : ما كاد الإسلام يظهر حتى احترقت فيه وثنيات العرب ، وجدليات النصرانية ، وكل ما لم يكن بحق فإنه حطب جاف أكلته نار الإسلام ، فذهب والنار لم تذهب ، ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به منها أمة خاملة ، وأرضا هامدة ، لا يسمع لها صوت ولا تحس فيها حركة منذ بدء العالم/فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ، ورسالة من قبله ، فإذا الخمول شهرة ، والغموض قد استحال نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب ، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى صار لدولة العرب رجل فى الهند ، ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ، ودهورا مديدة ، بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة .

ولو تخطينا الإسلام إلى سواه من الاتجاهات والمبادىء الفكرية والسياسية (الوضعية) لرأينا أنها لا

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ١٧ ، وفى الفتن : ٢٠ .
(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء .

تزال تخبط فى مجالات التطبيق خبط عشواء ، فلا تكاد تستوى حتى تتعثر ، ولا توشك أن تتقدم حتى تتقهقر ، ويكفى أنها لم تقدم حتى الآن بين يدى الواقع ما يؤكد قابليتها التطبيقية ، بل إن الفشل عنوان تجاربها ، ومحاولاتها الكثيرة المستمرة .

ويلاحظ المتتبع للتطورات الفكرية والسياسية فى العالم آثار التخبط التى يعانيها الاتجاه الماركسى فى مجالات التطبيق . . وبخاصة فى أرض التجربة الأولى فى (روسيا) .

ففى أيلول عام ١٩٦١ نشرت جريدة (البرافدا) الناطقة بلسان اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفياتى ، مشروع برنامج جديد للحزب يؤكد للمرة الثالثة خروج الحزب عن مبادئه الأساسية . .

فقد تضمن المشروع فكرة إلغاء النهج الثورى الذى تعتمده الشيوعية فى هدم الكيان الرأسمالى ، والذى نصت عليه الفقرة الواردة فى الصفحة ٢٥ من كتاب (المادية الدياليكتيكية) بما يلى : (وبالتالى فالانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية وتحرير الطبقة العاملة من النير الرأسمالى يمكن تحقيقها لا بتغييرات بطيئة ، ولا بإصلاحات ، بل بتغيير كيفى للنظام الرأسمالى أى بالثورة) .

وهذا ما جعل بكين وموسكو - فى السنوات الأخيرة - مسرحا لانشقاق كبير ، وخطير على مستقبل الاتجاه الماركسى نفسه !!

وفضلا عن جنوح المنهج الجديد الذى - نشرته الجريدة المذكورة - عن فلك النظام الأساسى للحزب الشيوعى .

فقد أكد المنهج من خلال تعهده بتحقيق المجتمع الشيوعى خلال العشرين سنة المقبلة ، فشل النظام الشيوعى خلال الأربعين سنة الماضية فى خلق الأساس الأيدلوجى والمادى للمجتمع الشيوعى ، وهذا يعنى بدون شك أن الشيوعية كفكرة فقدت القدرة على ما (تسميه بالحتمية التاريخية فى الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية) .

ويعود منشأ هذا العجز إلى أن النظرية الشيوعية لا ترتكز على أصول وقواعد عامة شاملة مرنة ، مما عرضها إلى كثير من التعديل والتبديل فى نظرياتها المنهجية والفكرية .

فمبدأ محو الملكية الفردية عدل عنه إلى حل وسط . . وهو الاحتفاظ للدولة بالصناعات الثقيلة ، والتجارة الخارجية ، والمصارف ، والمشاريع العامة ، كذلك عدل عن مبدأ توزيع السلع الاستهلاكية ، فبدل أن كانت القاعدة (من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته) أصبحت كما نص عليها الدستور السوفياتى المعدل عام ١٩٣٦ (من كل حسب قدرته ولكل حسب ما يؤديه من عمل . ومن لا عمل له ليس له الحق فى أن يأكل)

ثم جاء المشروع الجديد الصادر عام ١٩٦١ يشير إلى أن الاتحاد السوفياتى سيطبق خلال العشر السنوات الواقعة مابين (١٩٧١ - ١٩٨٠) مبدأ التوزيع حسب الحاجة . . .

وبذلك يتراجع الشيوعيون مرة أخرى عن تعديل عام ١٩٣٦م .

ومن شواهد الفشل التطبيقى لمبدأ المساواة فى المجتمع الشيوعى . . يقول (كرين برنتون) فى كتابه (الثورة الشيوعية عناصرها - تحليلها - نتائجها صفحة ٣٣٥) : يعيش الروس الآن - كما يعرف

حتى المناصرون للشيوعية فى مجتمع يتفاوت فيه توزيع السلع الاستهلاكية ودخل الفرد تفاوتا كبيرا ، فالسياسى الروسى ذو المكانة ، أو مدير المصنع أو الكاتب أو راقصة الباليه يتمتع هؤلاء بثروة مادية تجعل من المجتمع الروسى مجتمعا يفتقر فى أساسه إلى المساواة الاقتصادية ، بقدر ما يفتقر إليها أى مجتمع رأسمالى . .

وثمة شواهد كثيرة على إخفاق (الشيوعية) فى مجالات التطبيق يضيق المجال لتعدادها . .

وقد خدع كثير من شبابنا بمظاهر المدنية الغربية . . وظنوا أن نظافة القوم فى مظاهرهم دليل على نظافة أرواحهم وضمائرهم ، وأن سبقهم فى ميادين الكشوف والاختراع يكفى لجعلهم مثلا عليا فى كل شىء .

ولكن ما كانت المبادىء لتوزن فى ميزان الحق بوفرة إنتاجها الآلى ، بل لما حققته فى المجتمع من قيم أخلاقية وإنسانية .

والحضارة الغربية بهذا المقياس مفلسة غاية الإفلاس . .

وإننا لا نجد من معانى الشعارات التى ينادى بها الغربيون إلا مظاهر التضليل والخداع .

يقول الأستاذ (جودا) أستاذ الفلسفة الانجليزية فى كتابه (سخافات المدنية الحديثة) : إن المدنية الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق .

فالأخلاق متأخرة جدا عن العلم ، ومنذ النهضة ظل العلم فى ارتقاء والأخلاق فى انحطاط حتى بعدت المسافة بينهما ، وبينما يتراءى الجيل الجديد للناظر فتعجبه خوارقه الصناعية ، وتسخير المادة والقوى الطبيعية لمصالحه وأغراضه ، إذ هو يمتاز فى أخلاقه . . فى شرهه **وطمعه** . . فى طيشه ونزقه ، وفى قسوته وظلمه عن غيره . . وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة . . (إلى أن يقول):إذ هو لا يدرى كيف يعيش !!

وفى نطاق المساواة فشل الغرب فشلا ذريعا فى تطبيق مبدأ المساواة العنصرية والتطبيقية بين الناس ، فالتمييز العنصرى لا يزال مشكلة المشاكل فى أميركا . واحتقار البيض للملونين فى البلد الذى يدعى الحرية ، كرسته القوانين الرسمية نفسها ، فالرجل الأسود محروم من التعليم فى مدارس البيض ، وهو محروم من تأدية العبادة فى معابد البيض . . بل هو ممنوع فى بعض الولايات من السير فى شوارع البيض ؟ ومما روته الصحافة الغربية عن قصص التمييز العنصرى مؤخرا القصة التالية (لقد أفرج عن القس الزنجى الأميركى (وليمس كنج) من العاشرة صباح الأحد حتى التاسعة من صباح الاثنين ، لحضور الصلاة العامة ثم أعيد بعدها إلى السجن لينقضى مدة العقوبة المحكوم بها ، لأنه أكل فى مطاعم البيض ؟)

وفى اتحاد جنوب أفريقيا أجرت (بريطانيا) استفتاء مزيفا لتقرير بقاء الاتحاد عضوا فى الكومنولث البريطانى ، أو إعلان الجمهورية فيه ، وقد أعطى هذا الحق لجميع الأوربيين المقيمين فى الاتحاد وعددهم مليون ونصف مليون شخص ، بينما حرم منه سكان البلاد الوطنيون الأصليون وعددهم تسعة ملايين ونصف مليون.؟

وأجدنى فى غنى عن تقديم شواهد على فشل الغرب وكذبه فى دعوى السلام والحرية . . فالعالم العربى والإسلامى عانى وما يزال يعانى الكثير من ويلات الاستعمار وخداعه ووحشيته .

وهاهى ذى أميركا اليوم ترتكب باسم الحرية والسلام فى فيتنام وغيرها أبشع المجازر . . لتقدم بين يدى العالم من جديد دليلا **على** إفلاسها الإنسانى والأخلاقى والعقائدى .

كذلك القول فيما قامت به بريطانيا من تقتيل وتدمير فى جنوب الجزيرة العربية باسم الحرية والسلام . .

ويعلق الأستاذ (جودا) على ذلك فى كتابه (سخافات المدنية الحديثة) فيقول : (انظر إلى الطيارة التى تحلق فى السماء . . يخيل إليك أن صانعيها فى علمهم ولباقتهم فوق البشر . . ولكن انظر إلى المقاصد السيئة التى استخدمت لها الطيارة وغيرها من المخترعات . . إنما هى قذف القنابل وتمزيق جثث الإنسان وخنق الأحياء بالغازات السامة ، وإحراق الأجساد . . وهذا من مقاصد الحمق أو مقاصد الشياطين) .

الإسلام ضرورة

إذا كانت هذه أبسط مظاهر الفشل التى تواجهها الاتجاهات الفكرية والمعسكرات السياسية فى العالم أجمع .

وإذا كان المنهج الإسلامى - التجربة الوحيدة - فى حياة الإنسانية التى برهنت عن أصالتها وعمقها . . والتى حققت النجاح وبلغت الكمال ، **فقد** بات على الأمة أن تلتمس بواعث نهضتها ، وعوامل قوتها ، وطريق وحدتها وحريتها تحت راية الإسلام المجيدة ، وفى ظل قيادته الكريمة الرشيدة .

قوله تعالى: ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾

من صفات المؤمنين الذين استحقوا أن يكونوا ورثة الفردوس ، الحفاظ على الأمانات والعهود ، ومن الأمانات الحفاظ على سلامة العقيدة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[1]

كذلك من الأمانات الحفاظ على النفس ﴿ **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق** ﴾[2] وكذلك الحفاظ على العقل ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** ﴾[3] .

كذلك الحفاظ على العرض ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾[4] كذلك الحفاظ على المال ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾[5]

والأمانات هنا بمعناها الواسع تفيد معنى الرعاية لحقوق الله تعالى ، قال تعالى: ﴿ **فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة** ﴾[6]

وقال سبحانه ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا** ﴾[7]

وقال جل شأنه ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾[8]

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران
(٢) الآية ١٥١ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٩٠ من سورة المائدة .
(٤) الآية ٣٢ من سورة الاسراء .
(٥) الآية ٢٩ من سورة النساء .
(٦) الآية ٢٨٣ من سورة البقرة .
(٧) الآية ٥٨ من سورة النساء .
(٨) الآية ٢٧ من سورة الأنفال .

وهنا يقول تعالى : ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾

وذلك بعد أن زكى قلوبهم بالإيمان ، ونفوسهم بالصلاة ، وألسنتهم عن اللغو ، وأموالهم بالزكاة . وأعراضهم بالعفة ، بعد ذلك زكى معاملاتهم برعاية الأمانة والعهود .

وفى سورة الأحزاب يقول عز من قائل : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾[١]

وكما حافظوا على الأمانات حافظوا على العهود **والعقود** والميثاق ، كل هذه مسئوليات يسأل الانسان عن الوفاء بها ، قال تعالى ﴿ **يأأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾[٢] وقال عز من قائل: ﴿ **وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا** ﴾[٣]

وقال تبارك اسمه: ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة** ﴾[٤]

ومن الرعاية للأمانات والعهود آداء الدين ، وهذا أمر قد خانه كثير من الناس ، فأصبح الغالب على أحوالهم المماطلة فى أداء الديون ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والادلاء بها إلى الحكام ، ولو علم هؤلاء ما جاء على لسان الصادق المعصوم-صلوات ربى وسلامه عليه-فى هذا الشأن لو علموا ذلك لأدوا الأمانات إلى أهلها ، ولوقفوا عند المحافظة على حسن المعاملات .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أعوذ بالله من الكفر والدين . فقال رجل : يا رسول الله ، أتعدل الكفر بالدين ؟ قال : نعم)[٥] رواه النسائى والحاكم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (الدين راية الله فى الأرض ، فإذا أراد الله أن يذل عبدا وضعه فى عنقه) . رواه الحاكم .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : (لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها . قالوا : وماذاك يا رسول الله ؟ قال : الدين)[٦] . رواه أحمد

وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من فارق روحه جسده ، وهو برىء من ثلاث دخل الجنة : الغلول والدين والكبر)[٧] .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه مرفوعا : (من تداين بدين وفى نفسه وفاؤه ثم مات تجاوز الله عنه وأرضى غريمه بما شاء،ومن تداين وليس فى نفسه وفاؤه ثم مات اقتضى الله عز وجل لغريمه يوم القيامة) . رواه الحاكم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه،ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله)[٨] . رواه البخارى .

(١) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .
(٢) الآية الأولى من سورة المائدة .
(٣) الآية ٢١ من سورة النساء .
(٤) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة النحل .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٣٨ .
(٦) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٤٦ ، ١٥٤ .
(٧) أخرجه الترمذى فى السير : ٢١ . وابن ماجه فى الصدقات : ١٢ . والدارمى فى البيوع : ٥٢ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ .
(٨) أخرجه البخارى فى الزكاة : ١٨ ، وفى الاستقراض : ٢ . وأبن ماجه فى الصدقات : ١١ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ،

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (من حمل من أمتى دينا ثم جهد فى قضائه ثم مات قبل أن يقضيه فأنا وليه)[1] رواه أحمد .

وعنها رضى الله عنها أنها كانت تداين ، فقيل لها : مالك وللدين ولك عنه مندوحة ؟ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من عبد كانت له نية فى أداء دينه إلا كان له من الله عون فأنا ألتمس ذلك العون)[2] .

وعن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال : كانت ميمونة تدان فتكثر فقال لها أهلها فى ذلك ولاموها ووجدوا عليها ، فقالت : لا أترك الدين ، وقد سمعت خليلى وصفيى ﷺ يقول : (ما من أحد يدان دينا يعلم الله أنه يريد قضاءه إلا أداه الله عنه فى الدنيا)[3] . رواه النسائى .

وعن صهيب الخير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أيما رجل يدين دينا وهو مجمع ألا يوفيه إياه لقى الله سارقا)[4] رواه ابن ماجه

● ورواه الطبرانى فى الكبير ، ولفظه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أيما رجل تزوج امرأة ينوى ألا يعطيها من صداقها شيئا مات يوم يموت وهو زان،وأيما رجل اشترى من رجل بيعا ينوى ألا يعطيه من ثمنه شيئا مات يوم يموت وهو خائن/والخائن فى النار) .

وعن القاسم مولى معاوية رضى الله عنه أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال : (من تدين بدين وهو يريد أن يقضيه حريص على أن يؤديه فمات ولم يقض دينه ، فإن الله قادر على أن يرضى غريمه بما شاء من عنده ويغفر للمتوفى ، ومن تدين بدين وهو يريد ألا يقضيه فمات على ذلك ولم يقض دينه فإنه يقال له : أظننت أنا لن نوفى فلانا حقه منك؟فيؤخذ من حسناته فيجعل زيادة فى حسنات رب الدين ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات رب الدين فجعلت فى سيئات المطلوب) . رواه البيهقى .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات وعليه دينار أو درهم قضى من حسناته،ليس ثم دينار ولا درهم)[5] .

رواه ابن ماجه .

ولفظه:قال رسول الله ﷺ : (الدين دينان فمن مات وهو ينوى قضاءه فأنا وليه ومن مات وهو لا ينوى قضاءه فذاك الذى يؤخذ من حسناته،ليس يومئذ دينار ولا درهم) .

المعنى

رب الدين : صاحب الأمانة المودعة .

قضى من حسناته : أى أخذ من ثوابه المدخر له سدادا لدينه الذى كان عليه فى حياته .

ليس ثم دينار : أى ليس يوم القيامة مال يدفع وإنما هناك أخذ الأجر تنفيذا وقضاء قال تعالى:﴿ وأما من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ٧٤ ، ١٥٤ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ٧٢ ، ٩٩ ، ١٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٥٠ .
(٣) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ١١ .
(٤) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ١١.
(٥) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ١٢ .

آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾[١] وقال تعالى:﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ﴾[٢] .

وعن محمد بن عبد الله بن جحش رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ قاعدا حيث توضع الجنائز فرفع رأسه قبل السماء ثم خفض بصره فوضع يده على جبهته ، فقال : (سبحان الله سبحان الله ما أنزل من التشديد) . قال : فعرفنا وسكتنا حتى إذا كان الغد ، سألت رسول الله ﷺ فقلنا : ما التشديد الذى نزل ؟ قال : (فى الدين،والذى نفسى بيده لو قتل رجل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل ثم عاش ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضى دينه)[٣] . رواه النسائى .

المعنى

الغد : اليوم الثانى

يقضى دينه : يؤدى.والمعنى أن المجاهد مهما أصاب وجاهد فلا يدخل الجنة حتى يسدد دينه ، وفيه الترهيب من الدين وأن عقابه صارم ويدخل النار ولو كان المدين صالحا مجاهدا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ (ذكر رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم ، فقال : كفى بالله شهيدا: قال،فائتنى بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلا ، قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يركبه ويقدم عليه للأجل الذى أجله فلم يجد مركبا فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر فقال : اللهم إنك تعلم أنى تسلفت فلانا ألف دينار فسألنى كفيلا ، فقلت : كفى بالله كفيلا فرضى بك،وسألنى شهيدا ، فقلت : كفى بالله شهيدا فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له فلم أقدر وإنى أستودعكها ، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو فى ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاء بماله فإذا الخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطبا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الذى كان أسلفه وأتى **بالألف** دينار ، فقال : والله مازلت جاهدا فى مركب **لآتيك** بمالك فما وجدت مركبا قبل الذى جئت فيه . قال : هلا كنت بعثت إلى بشىء . قال أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى جئت فيه . قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثته فى الخشبة فانصرف بالألف الدينار راشدا)[٤] رواه البخارى .

المعنى

يسلفه : يقرضه .

كفى بالله شهيدا : الله مطلع علينا ورقيب وتكفى شهادته وحده سبحانه وتعالى .

(١) الآية ٨٨ من سورة الكهف .
(٢) الآية ٥٧ من سورة آل عمران .
(٣) أخرجه النسائى فى الجهاد : ٣٢ .
(٤) أخرجه البخارى فى الشروط : ١٦ ، وفى الزكاة : ٦٥ ، وفى الاستقراض : ١٧ ، وفى الكفالة : ١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٤٨ .

فائتنى بالكفيل : الضامن
صدقت : وفى رواية أبى سلمة فقال: سبحان الله نعم .
مسمى : موعد محدد
زجج . أى: سوى موضع النقر وأصلحه وهو من تزجيج الحواجب :' وهو حذف زوائد الشعر، ويحتمل أن يكون مأخوذا من الزج وهو النصل كأن يكون النقر فى طرق الخشبة فشد عليه زجا ليمسكه ويحفظ ما فيه وقال، عياض : معناه سمرها بمسامير كالزج أو حشا شقوق لصاقها بشىء ورقعه بالزج وقيل : معناه أصلح موضع النقر .
جهدت : اجتهدت
ولجت فيه : دخلت فيه .

رجل اقترض مبلغا من آخر إلى زمن معلوم ولما آن أوان السداد ذهب إلى البحر فلم يجد مركبا ، فأتى بخشبة وضع المبلغ فيها ورماها فى البحر ثقة بالله تعالى ، وهو نعم الشهيد الكفيل ، والدائن ينتظر مدينه على الميناء ، فرأى خشبة فأخذها للدفء فوجد فى وسطها الأمانة والرسالة .

هذه حادثة يرويها لنا سيدنا رسول الله ﷺ عن صالحين برين مؤمنين معتمدين على الله جل وعلا ، أشرق نور الإيمان بالله تعالى فى قلوبهما ، وسطعت تعاليم نبيهما فى ذلك الوقت ، فهل فينا الآن هذا الإيمان ، وحب الخير والتوكل على الله ، وقضاء الحاجات ابتغاء ثواب الله ، والوفاء والصدق ورد الودائع ، وقد قال الله تعالى فينا: ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾(1)

اكتسبت الأمة الشرف العظيم والتفوق الباهر والخيرية من رسولها الصادق الأمين محمد ﷺ الذى حكى لنا فعل رجلين من بنى إسرائيل ، رجاء أن نعمل مثلهما ، ونتقى الله ونثق به وندعوه رغبا ورهبا ونخشاه .

قال تعالى: ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾(2)

وفى البخارى فى باب الكفالة فى القرض والديون بالأبدان وغيرها فروى هذا الحديث .

وفى الفتح عن عبد الله بن عمرو بن العاص يرفعه : (أن رجلا ذهب إلى النجاشى فقال له أسلفنى ألف دينار إلى أجل ، فقال : من الحميل بك ، قال : الله ، فأعطاه الألف فضرب بها الرجل ، أى: سافر بها فى تجارة فلما بلغ الأجل أراد الخروج إليه فحبسته الريح فعمل تابوتا)(3) فذكر الحديث .

فالذى أقرض هو النجاشى فيجوز أن تكون نسبته إلى بنى إسرائيل بطريق الاتباع لهم ،

نشرها : قطعها بالمنشار فانتثرت الدنانير منها والصحيفة فقرئت وعرف ما فيها . وفى الفتح: فى الحديث جواز الأجل فى القرض . ووجوب الوفاء به ، وقيل: لا يجب بل هو من باب المعروف . وفيه التحدث عما كان فى بنى إسرائيل وغيرهم من العجائب للاتعاظ والائتساء، وفيه جواز التجارة فى البحر وجواز ركوبه، وفيه بداءة الكاتب بنفسه، وفيه طلب الشهود فى الدين وطلب الكفيل .

(1) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .
(2) الآية ٥٨ من سورة النساء .
(3) اخرجه أبو داود فى البيوع : ٠٢ وابن ماجه فى الصدقات : ٩ .

وفيه فضل التوكل على الله تعالى وأن من صح توكله تكفل الله بنصره وعونه .

وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تزوج امرأة على صداق وهو ينوى ألا يؤديه إليها فهو زان ومن ادان دينا وهو ينوى ألا يؤديه إلى صاحبه أحسبه قال : فهو سارق) . رواه البزار .

وعن ميمون الكروى عن أبيه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس فى نفسه أن يؤدى إليها حقها خدعها فمات ولم يؤد إليها حقها لقى الله يوم القيامة وهو زان، وأيما رجل استدان دينا لا يريد أن يؤدى إلى صاحبه حقه خدعه حتى أخذ ماله فمات ولم يؤد إليه دينه لقى الله وهو سارق) . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط .

المعنى

صداق : مهر .

زان : مرتكب الفاحشة .

سارق : خائن مجرم يأكل أموال الناس بالباطل .

خدعها : خانها وغشها .

وعن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه ، فيقال: يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول: يارب إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم ألبس ولم أضيع ولكن أتى على إما حرق وإما سرق وإما مضيعة، فيقول الله : صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك فيدعو الله بشىء فيضعه فى كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل رحمته)[1] . رواه أحمد .

بفضل رحمته : لأنه أخذ الدين لحاجة وفى نيته الأداء إذا استطاع .

وروى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الدين يقتضى من صاحبه يوم القيامة إذا مات ، إلا من تدين فى ثلاث خلال : الرجل تضعف قوته فى سبيل الله فيستدين يتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد بما يكفنه ويواريه إلا بدين ، ورجل خاف على نفسه الغربة فينكح خشية على دينه فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة)[2] . رواه ابن ماجه هكذا والبزار .

ولفظه : (ثلاث من تدين فيهن ثم مات ولم يقض فإن الله يقضى عنه : رجل يكون فى سبيل الله فيخلق ثوبه فيخاف أن تبدو عورته - أو كلمة نحوها - فيموت ولم يقض دينه ، ورجل مات عنده رجل مسلم فلم يجد ما يكفنه به ولا ما يواريه فمات ولم يقض دينه ، ورجل خاف على نفسه العنت فتعفف بنكاح امرأة فمات ولم يقض فإن الله يقضى عنه يوم القيامة) .

المعنى

المعنى: ثلاثة يرد الله عنهم غائلة الدين ، ويبعد عنهم عقاب المماطلة :

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ١٩٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ٢١ .

أ ـ المستدين للجهاد فى سبيل نصر دين الله ، وتكبيت أعداء الإسلام ، والذب عن حياض آدابه .
ب ـ المدين لتكفين الفقير ودفنه .
جـ ـ الأعزب الذى يستدين ليتزوج .

يخلق ثوبه : يبلى

تبدو عورته : تظهر سوءته فاستدان ليتجمل وليخفى ما يجب ستره والعورة للرجل من السرة إلى الركبة ،والمرأة جميع جسمها ،فإن الله يرضى الدائن ويغدق عليه بنعيمه فيرضى عن مدينه .

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله مع الدائن حتى يقضى دينه ما لم يكن فيما يكرهه الله . قال : وكان عبد الله بن جعفر يقول لخازنه : اذهب فخذلى بدين ، فإنى أكره أن أبيت ليلة إلا والله معى بعد أن سمعته من رسول الله ﷺ)[1] . رواه ابن ماجه .

المعنى:

إن الله مع الدائن : الذى يعطى المحتاج ويفرج كربة المتضايق المهموم المحزون مدة إعطائه فى حلال يرضى الله جل وعلا ،يقال دنت الرجل : أخذت منه دينا وادنته جعلته دائنا وذلك بأن تعطيه دينا . قال أبو عبيدة : دنته أقرضته ،ورجل مدين ومديون ،ودنته : استقرضت منه . قال الشاعر :

ندين ويقضى الله عنا وقد نرى مصارع قوم لا يدينون صنيعا .

قال تعالى:﴿ **إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه** ﴾[2] و﴿ **من بعد وصية يوصى بها أو دين** ﴾[3] .

فخذلى بدين : صحابى جليل يريد أن يكون له فضل على الناس بالقرض رجاء أن الله يشمله برحمته ورضوانه ورعايته قال تعالى : ﴿ **إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم** ﴾[4]

وقال أيضا : ﴿ **وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾[5] .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى أمره ومن مات وعليه دين فليس ثم دينار ولا درهم ولكنها الحسنات والسيئات ومن خاصم فى باطل وهو يعلم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ،ومن قال فى مؤمن ما ليس فيه حبس فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج مما قال) . رواه الحاكم وصححه .

المعنى :

حالت شفاعته : منعت عقابا فى الانتقام وتنفيذ أوامر الله .

فقد ضاد الله . أى:كان لله عدوا وضدا وأعلن الحرب على الله تعالى لأنه ساعد المجرمين وضيع حقوق

(١) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ١٠. والدارمى فى البيوع : ٥٥
(٢) الآية ٢٨٢ من سورة البقرة .
(٣) الآية ١١ من سورة النساء .
(٤) الآية ١٧ من سورة التغابن .
(٥) الآية ٢٩ من سورة الحديد .

الله فى وساطته، قال تعالى :

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز . لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾(١).

أى:الذين يحادون الله هم : العصاة والفساق ووسطاء السوء وشفعاء الأشرار لذهاب معالم الحق ، وتفشى الباطل وضياع مظاهر العدل ، وإخفاء الأنوار المضيئة فى البر والخير ، فجند الله أنصار الحق .

من حاد الله : أى خالفه وعاداه،أى:من الممتنع أن تجد قوما مؤمنين يوالون المشركين،والمراد أنه لا ينبغى أن يكون ذلك،وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال،مبالغة فى الزجر عن **موالاة أعداء الله والاحتراز** والاحتراز عن مخالطتهم ومعاشرتهم . .

وقال تعالى : **﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين ﴾**(٢) .

فليس ثم : يوم القيامة **﴿ يوم يؤخذ بالنواصى والأقدام ﴾**

خاصم : جادل وفجر وشق عصا الطاعة .

سخط الله : غضبه

ينزع : يرجع.والمعنى أن الذى يميل إلى النفاق والباطل وعصيان الله يستمر غضب الله ينصب عليه حتى يتوب إلى الله ويعترف بالحق وينصره ويدافع عنه .

ردغة : جاء تفسيرها أنها عصارة أهل النار،والردغة : طين ووحل كثير .

المخرج : يصدق ويبعد عن الذم ويجتنب الغيبة والنميمة ويهجر الزور ويترك الباطل .

وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فقام:رجل فقال أنا يا رسول الله،فقال : من منعك أن تجيبنى فى المرتين الأوليين . قال : إنى لم أنوه بكم إلا خيرا إن صاحبكم مأسور بدينه فلقد رأيته أدى عنه حتى ما أحد يطلبه بشئ)(٣) . رواه أبو داود .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (صاحب الدين مأسور بدينه يشكو إلى الله الوحدة) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

وعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه بها عبد بعد الكبائر التى نهى الله عنها : أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاء)(٤) . رواه أبو داود

(١) الآيات ٢٠ - ٢٢ من سورة المجادلة .
(٢) الآية ١٤ من سورة النساء .
(٣) أخرجه أبو داود فى البيوع : ٩ . والنسائى فى البيوع : ٩٨ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٠ .
(٤) أخرجه أبو داود فى البيوع : ٩.

وعن شفى بن ماتع الأصبحى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (أربعة يؤذون أهل النار على مابهم من الأذى : يسعون ما بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور يقول بعض أهل النار لبعض : ما بال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى . قال : فرجل معلق عليه تابوت من جمر ورجل يجر أمعاءه ورجل يسيل فوه قيحا ودما ورجل يأكل لحمه فيقال لصاحب التابوت : ما بال الأبعد قد آذانا على مابنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد مات وفى عنقه أموال الناس لا يجد لها قضاء أو وفاء) . الحديث رواه ابن أبى الدنيا .

المعنى

مأسور : فى سجن من جهنم وفى يديه سلاسل النار وأغلالها فيشعر بالذلة والعقاب .

الوحدة : العزلة والعذاب والحرمان من نعيم الجنة وفيه الترهيب من الدين وعدم الوفاء بالسداد وعدم حسن الأداء .

لايدع له قضاء : لا يترك شيئا يقوم بأدائه والمعنى يبعثر جميع أمواله ويوزعها فرارا من أداء دينه .

يؤذون : يقدمون لهم الآلام زيادة على الذى لحقهم .

الحميم : الماء الشديد الحرارة قال تعالى: ﴿ **وسقوا ماء حميما** ﴾[1] ﴿ **يصب من فوق رءوسهم الحميم** ﴾[2] .

الجحيم : النار : أى: يمشون بين عذابين . ماء مغلى ونار الله الموقدة .

والثبور : العذاب والهلاك .

ما بال : ما حال أو شأن .

تابوت : صندوق من نار .

يجر أمعاءه : تخرج معدته .

يسيل فوه : يخرج فمه مادة قذرة .

أموال الناس : المذموم البعيد من رحمة الله من تداين دينا لم يترك له سدادا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه)[3] . رواه أحمد والترمذى .

وعن جابر رضى الله عنه قال : (توفى رجل فغسلناه وكفناه وحنطناه ثم أتينا به رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقلنا: تصلى عليه فخطا خطوة ثم قال : أعليه دين ؟ قلنا : ديناران فانصرف فتحملها أبو قتادة فأتيناه ، فقال أبو قتادة : الديناران على فقال رسول الله ﷺ : قد أوفى الله حق الغريم وبرىء منهما الميت ؟ قال : نعم فصلى عليه ثم قال بعد ذلك بيومين : ما فعل الديناران ؟ قلت إنما مات أمس . قال : فعاد إليه من الغد ؟ فقال : قد قضيتهما ، فقال رسول الله ﷺ : الآن بردت جلدته)[4] . رواه أحمد بإسناد حسن .

---

(١) الآية ١٥ من سورة محمد .
(٢) الآية ١٩ من سورة الحج .
(٣) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٧٦ . وابن ماجه فى الصدقات : ١٢ , والإمام احمد فى ٢ : ٤٤٠ ، ٤٧٥
(٤) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٣٠ .

وروى عن على رضى الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا أتى بالجنازة لم يسأل عن شىء من عمل الرجل ويسأل عن دينه فإن قيل عليه دين كف عن الصلاة عليه،وإن قيل ليس عليه دين صلى عليه فأتى بجنازة فلما قام ليكبر سأل رسول الله ﷺ هل على صاحبكم دين ؟ قالوا : ديناران . فعدل عنه رسول الله ﷺ وقال : صلوا على صاحبكم.فقال على رضى الله عنه : هما على يا رسول الله برىء منهما فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه ثم قال لعلى بن أبى طالب : جزاك الله خيرا فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك؛إنه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة . فقال بعضهم : هذا لعلى خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : بل للمسلمين عامة .) . رواه الدارقطنى ورواه أيضا عن طريق عبيد الله الوصافى عن عطية عن أبى سعيد .

المعنى :

معلقة : مرهونة محبوسة بعيدة عن نعيم الله مهما عملت صالحا حتى يؤدى ما عليها بردت جلدته . أى:بعد دفع الدينارين لصاحبهما زال عنه العذاب وتنعم .

كف : امتنع

فعدل عنه : بعد الصلاة

هما على : أنا أدفعهما وفاء لدينه .

برىء منهما : خلصت ذمته منهما وطهرت .

فك رهانك : أطلقت من أسر العذاب .

مرتهن : محبوس فى النار

للمسلمين عامة : الثواب يشمل كل من فك عسر مسلم وأزال عنه حقوق دينه وأتمه ووفاه قال تعالى : **﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾**[١] وقال تعالى:**﴿ وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾**[٢] .

أى:فعلة الحسنى **﴿ من أمرنا ﴾** مما نأمر به **﴿ يسرا ﴾** سهلا ميسرا غير شاق .

وروى عن أنس رضى الله عنه (أن النبى ﷺ أتى بجنازة ليصلى عليها قال : هل عليه دين ؟ قالوا : نعم فقال النبى ﷺ : إن جبريل نهانى أن أصلى على من عليه دين ، فقال : إن صاحب الدين مرتهن فى قبره حتى يقضى عنه دينه) . رواه أبو يعلى والطبرانى .

ولفظه قال :

كنا عند النبى ﷺ : فأتى رجل يصلى عليه ، فقال : هل على صاحبكم دين ؟ قالوا : نعم . قال : فما ينفعكم أن أصلى على رجل روحه مرتهن فى قبره لا تصعد روحه إلى السماء؟فلو ضمن رجل دينه فصليت عليه فإن صلاتى تنفعه) .

قال الحافظ : قد صلى النبى ﷺ،إنه كان لا يصلى على المدين ثم نسخ ذلك .

فروى مسلم وغيره من حديث أبى هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت علية

(١) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الحجر .
(٢) الآية ٨٨ من سورة الكهف .

الدين فيسأل هل ترك لدينه قضاء فإن حدث أنه ترك وفاء صلى عليه وإلا قال : (صلوا على صاحبكم) فلما فتح الله عليه الفتوح قال : (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى وعليه دين فعلىَّ قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته)[١] .

المعنى

جبريل نهانى : فى أول الرسالة امتنع ﷺ من الصلاة ترهيبا للذى يأخذ ولا يفى ، وستجد بعد ذلك أن هذا النهى زال .

مرتهن : محبوس لا يذهب إلى نعيم الجنة حتى يؤدى عنه دينه .

لاتصعد روحه : لاتسمو إلى أعلى فتشعر بنعيمها ومرافقة الأبرار الصالحين .

ضمن : تعهد بالوفاء عنه، ترغيب منه ﷺ فى زيادة أجر المحسنين الذين يؤدون حقوق الله عن أصحابهم .

فقه الأحاديث

وقد استعاذ ﷺ من الدين لتبعد أمته عنه لأضراره :

أولا : الدين يعادل فى العقاب الكفر فى الذلة والإهانة وغلبة الدائن وسلطته على المدين . (أتعدل الكفر بالدين) .

ثانيا : الدين راية الضعف والمسكنة ترفرف على المدين لضعته .

ثالثا : عدم الدين يجلب السعادة وتنسم الحرية والشعور بالكرامة والمروءة (أقلل من الدين) .

رابعا : عدم الاستدانة بشارة الاستقامة وعنوان الهداية وطريق الجنة .

خامسا : ترك الدين فى الرخاء أحسن خشية أن يستدين فلا يجد ما يؤدى به وبذا يدخل جهنم بسبب دينه وتؤخذ حسناته للدائن وتطرح عليه سيئاته أيضا انتقاما منه وترضية لصاحب الدين .

سادسا : كثرة الاستدانة تجلب الفقر وتنزع البركة من المال وتنذر بالخراب والخسران (أتلفه الله) .

سابعا : جواز الاستدانة عند الحاجة فقط على شريطة نية الوفاء وحسن الأداء (التمس ذلك العون) .

ثامنا : قضاء حاجات الناس وفك كروبهم محمدة ومجلبة للخير ورضوان الله (كانت ميمونة تدان فتكثر) .

تاسعا : من أخذ مال الناس بنية عدم الوفاء كالغصب والنهب (لقى الله سارقا) (وهو خائن) .

عاشرا : الزوج إذا لم يدفع المهر لزوجته فهو آثم وعيشته معها محرمة وهو عاص ربه (زان) .

الحادى عشر : لو مات المجاهد الذى أبلى بلاء حسنا فى نصر دين الله (وعليه دين ما دخل الجنة) .

الثانى عشر : توطيد العزيمة على حسن الأداء سعادة ومحبة من الله وأدعى لرحمته وزيادة البركة فى ماله (كفى بالله وكيلا) .

الثالث عشر : المستدين لحاجة يؤدى الله عنه دينه ويكرمه (صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك) .

---

(١) أخرجه مسلم فى الفرائض : ١٤، وأبو داود فى الوصايا : ١٧. والنسائى فى الجنائز . وابن ماجه فى الصدقات : ١٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ٧٠

الرابع عشر : الدائن الذى يزيل كرب الناس مشمول بعز الله ورحمته (الله مع الدائن) فاحذر ياأخى من الدين ما استطعت واقتصد فى إنفاقك وتوسط ولا تسرف .

تحذير

وقد حذر رسول الله ﷺ من مطل الغنى كما رغب فى إرضاء صاحب الدين ..

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (مطل الغنى ظلم وإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع) (١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى . [أتبع ، أى: أحيل] .

وعن عمرو بن الشريد عن أبيه رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (لى الواجد يحل عرضه وماله) رواه ابن حبان فى صحيحه .

(لى الواجد) بفتح اللام وتشديد الياء : أى مطل الواجد الذى هو قادر على وفاء دينه يحل عرضه ، أى: يبيح أن يذكر بسوء المعاملة ، وعقوبته حبسه .

وعن على رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يحب الله الغنى الظلوم ولا الشيخ الجهول ولا الفقير المختال . وفى رواية : إن الله يبغض الغنى الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال) رواه البزار والطبرانى فى الأوسط من رواية الحارث الأعور عن على والحارث وثق ولا بأس به فى المتابعات .

المعنى

مطل : تأخير الحق وتسويف دفعه للدائن .

الغنى : أى القادر على وفاء الدين لربه بعد استحقاقه .

ظلم : محرم عليه ، وخرج بالغنى العاجز عن الوفاء ، قال الشرقاوى: ولفظ المطل يُشعر بتقدم الطلب فيؤخذ منه أن الغنى لو أخر الدفع مع عدم طلب صاحب الحق له لم يكن ظلما . حكى أصحابنا وجهين أن مطل الغنى غريمه من إضافة المصدر للفاعل. وقيل من إضافته للمفعول والمعنى أنه يجب وفاء الدين وإن كان مستحقه غنيا ولا يكون غناه سببا لتأخيره عنه وإذا كان كذلك فى حق الغنى فهو فى حق الفقير أولى .

فليتبع : فليحتل ندبا لا وجوبا خلافا للحنابلة . أى: إذا أحيل بالدين الذى له على موسر فليرض ، وقوله: ظلم يشعر بكونه كبيرة والجمهور على أن فاعله يفسق لكن هل يثبت فسقه بمرة واحدة أم لا ؟ قال النووى : مقتضى مذهبنا التكرار . والراجح عند المتأخرين من الشافعية الأول فلا يكون كبيرة إلا بالتكرار ثلاث مرات فأكثر ويدخل فى المماطل كل من لزمه حق كالزوج لزوجته والحاكم لرعيته .

---

(١) أخرجه البخارى فى الحوالات : ١ ، ٢ ، وفى الاستقراض : ١٢ . ومسلم فى المساقاة : ٣٣ . وأبو داود فى البيوع : ١٠ . والترمذى فى البيوع : ٦٨ . والنسائى فى البيوع : ١٠٥ ، ١٠١ . وابن ماجه فى الصدقات : ٨ . والإمام مالك فى البيوع : ٨٤ . والدارمى فى البيوع : ٤٨ . والإمام احمد فى ٢ : ٧١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٣١٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٤٦٣- ٤٦٥ .

الغنى : صاحب الخيرات الجمة الذى يأكل حقوق الناس،وكبير السن الفاسق الذى يرتكب المعاصى .

وعن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يبغضهم الله) فذكر الحديث إلى أن قال : (والثلاثة الذين يبغضهم الله : الشيخ الزانى والفقير المختال والغنى الظلوم) [١] رواه أبو داود .

وروى عن خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ: (ما قدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها الحق من قويها غير متعتع ثم قال : من انصرف غريمه وهو عنه راض ، صلت عليه دواب الأرض ونون الماء،ومن انصرف غريمه وهو ساخط كتب عليه فى كل يوم وليلة وجمعة وشهر ظلم) رواه الطبرانى فى الكبير .

المعنى

المختال : الذى يعجب بنفسه .

العائل : الفقير المتصف بالغطرسة .

الشيخ الزانى : الذى يفعل الفاحشة مع أن قوة الشباب زالت منه ويلزمه الوقار والأدب .

ما قدس : ما رضى عنها وما طهرها،والمعنى أن الله تعالى يذل ويهين كل طائفة لا تساعد الفقير على أخذ الحق من الجبار المستكبر،وفيه الحث على نصر الحق وإغاثة الضعيف رجاء دوام عز الله ونصره لمحبى الحق والعدل .

متعتع : غير ناقص متعب .

غريمه : دائنه .

صلت : دعت له بالاستغفار وزيادة النعم .

نون الماء : حوت البحر .

ساخط : غضبان .

كتب : تقيد فى صفحاته سيئات تتكرر مدى الأيام حتى يؤدى ما عليه لأنه ظلمه بتسويفه ونقصه .

وعنها رضى الله عنها قالت : (كان على رسول الله ﷺ وسق من تمر لرجل من بنى ساعدة فأتاه يقتضيه فأمر رسول الله ﷺ رجلا من الأنصار أن يقضيه فقضاه تمرا دون تمره ، فأبى أن يقبله فقال : أترد على رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ومن أحق بالعدل من رسول الله ﷺ ؟ فاكتحلت عينا رسول الله ﷺ بدموعه ثم قال : صدق ومن أحق بالعدل منى ، لاقدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من شديدها ولايتعتعه ، ثم قال : ياخولة عديه واقضيه فإنه ما من غريم يخرج من عند غريمه راضيا إلا صلت

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجهاد : ١٥٧ .

عليه دواب الأرض ونون البحار وليس من عبد يلوى غريمه وهو يجد إلا كتب الله عليه فى كل يوم وليلة إثما) رواه الطبرانى فى الأوسط .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا قدست أمة لا يعطى الضعيف فيها حقه غير متعتع) . رواه أبو يعلى ، ورواته رواة الصحيح .

ورواه ابن ماجه بقصته ولفظه قال : (جاء أعرابى إلى النبى ﷺ يتقاضاه دينا كان عليه فاشتد عليه حتى قال : أخرج عليك إلا قضيتنى، فانتهره أصحابه فقالوا : ويحك تدرى من تكلم ؟ فقال : إنى أطلب حقى ، فقال النبى ﷺ : هلا مع صاحب الحق كنتم، ثم أرسل إلى خولة بنت قيس ، فقال لها : إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك ؟ فقالت: نعم بأبى أنت وأمى يارسول الله فأقرضته فقضى الأعرابى وأطعمه، فقال : أوفيت أوفى الله لك، فقال : أولئك خيار الناس ، إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع) [1] . رواه البزار من حديث عائشة مختصرا . والطبرانى من حديث ابن مسعود بإسناد جيد .

المعنى

ويحك : كلمة رحمة واستعطاف

تدرى : أتعلم من تحادث .

هلا : هلا للتحريض : أى ، أود أن تكونوا مع صاحب الحق تساعدونه .

فأقرضينا : أعطينا شيئا سلفة : والقرض : تمليك شىء على أن يرد مثله .

فقضى : أدى ما عليه ﷺ للأعرابى وأكرمه وقدم له الغداء وأحسن ضيافته .

أوفيت : أتممت الأداء وزدت زادك الله كمالا ورقيا ثم مدح ﷺ المحسنين .

ماذا يريد رسول الله ﷺ

أولا : عدم المماطلة وترك التسويف إذا كان قادرا على الدفع .

ثانيا : قبول الحوالة إذا رأى الدائن حفظ حقه وأدى دينه (فليتبع) .

ثالثا : حسن معاملة الدائن ليتجنب المدين سب عرضه وشتمه وغيبته (لى الواجد) .

رابعا : كل من قدر على أداء ما اقترض ولم يف حشر مع الظالمين وعوقب معاقبة المجرمين المسيئين وحل عليه غضب الله وكراهته (الغنى الظلوم) .

خامسا : المدين المماطل يجلب لأمته الدمار والوباء والخسران ويوقعها فى الذنوب المهلكة ويبعدها من تطهير الله ورحمته ورأفته بها (ما قدس الله أمة) أى : طهرها من الخطايا .

سادسا : أداء الدين بسهولة يجلب رضا الله وإحسانه ويسبب الدعوات الصالحة من العالم أجمع (صلت عليه دواب الأرض) أى : كل ما دب وفيه الحياة .

سابعا : المقصر فى الأداء الذى هجر دائنه وأغضبه وسجلت عليه الآثام بكرور الأزمان (يلوى غريمه) ثم ضرب ﷺ المثل الأعلى لوفائه وحلمه وحسن أدائه . (ياخولة غديه واقضيه) ثم وسع خلقه ذلك الأعرابى الجاف الفظ الغليظ الذى اشتد عليه حتى قال : (أخرج عليك إلا قضيتنى) أى : أعلن

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ٧١.

عليك الحرب وأشق عصا طاعتك إن لم تؤد حقى . مسكين أيها الأعرابى !!

شىء قليل اقترضه منك سيدنا رسول الله ﷺ ، وجئت وليس عنده شىء مطلقا ، لكن أبى كرمه ﷺ إلا أن يكرم وفادته ، ويغدق عليه بإحسانه ، ويرد ما أخذه مضاعفا ، ثم دعا له ﷺ الأعرابى: (أوفيت أوفى الله لك) هكذا تكون مكارم الأخلاق:حسن الأداء مع البشاشة واللطف والجود .

وهنا درس مفيد ، وعظة بالغة ، لعلنا نعمل بها ونتخلق بأخلاق سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ، يريد أصحابه أن يردوا جهل ذلك الأعرابى ويفهموه درجة السيد الأعلى المصطفى ﷺ ، فحضهم ﷺ على نصر الضعيف ، ومجاراة الحق ، والأخذ بيد الضعيف (هلا مع صاحب الحق كنتم) .

أرأيتم أبدع من هذا ؟

يحض أصحابه ﷺ أن يكونوا فى صف صاحب الحق مهما سمت درجة المدين ، وقويت شوكته ، وعز سلطانه ، والأبدع من هذا أن خير الخلق زاهد راغب عن حطام الدنيا ، مستغرق فى طاعة الله ، فقرض من الاعرابى ، ثم قرض من خولة ما يؤدى به حق الأعرابى ، حتى أفرحه وأكسبه رضله ، ولم يخرج من عند رسول الله ﷺ إلا وهو مبتسم جذل فرح ترفرف عليه راية الوفاء وحسن الأداء ، وطيب القضاء ، ثم قال ﷺ:(أولئك خيار الناس) أى:الذين يدافعون عن الحق وينضمون إلى أصحاب الحق ، ويساعدون على تنفيذه ، وكذا د فع الحق بسهولة . من صفات الأبرار الصالحين ، أفاضل الخلق وأطايبهم وأحسنهم .

فعليك ـ أخى ـ بحسن المعاملة ، ودفع ما عليك من الديون بالتى هى أحسن ، والتخلق بأخلاق نبيك ورسولك ، فتفى بوعدك ، وتنجز ما عاهدت عليه ، وتتقى الله وتخشاه ، وتحسن كما أحسن الله إليك ، قال تعالى : **﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ﴾** (١)

الآيات الدالة على إحسان الله إلى المتقين المؤتمنين الذين يرعون حقوق الناس بالحق ويؤدونه

قال تعالى : **﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ﴾** (٢) .

يعنى البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام ، ويؤخذ منها العمل بكتابه وتنفيذ أوامره ، واجتناب مناهيه ومنه رد الأمانة .

﴿ بعد توكيدها ﴾ بعد توثيقها بذكر الله تعالى **﴿ كفيلا ﴾** أى:شهيدا شاهدا بتلك البيعة ، فإن الكفيل مراع لحال المكفول به رقيب عليه ، وقد اطلعت أيها المسلم على حديث رجل من بنى إسرائيل ، ورأيت حفظ الله لماله الذى رماه فى البحر فى خشبة .

(١) الآية ٢٠ من سورة الشورى .

(٢) الآية ٩١ من سورة النحل .

وقال تعالى ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ (١) .

وقال تعالى:﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (٢) .

قال تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ (٣) .

قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾ (٤) .

قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ (٥) .

﴿ زكاها ﴾ :أنماها بالعلم والعمل ﴿ دساها ﴾ :نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق والخيانة .

وقال تعالى : ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون . ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون . وربك الغنى ذو الرحمة ﴾ (٦) .

وقال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾ (٧) .

من سورة الأنفال :

أى :مبدلا إياها بالنقمة لخيانتهم ومعاصيهم يزيل الخير ويحفهم بالضر سبحانه .

وقال تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون ﴾(٨)

وقال تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ (٩) .

خاتمة الصفات

قوله تعالى : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ :

كما افتتح الله تعالى صفات المؤمنين بقوله :﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ اختتمها بالمحافظة على تلك الصلوات فهم فيها خاشعون ، وعليها محافظون .

خاشعون فى أدائها ، لا تنصرف قلوبهم إلى شواغل الدنيا ، محافظون على أوقاتها وأركانها وشروطها وسننها .

قوله تعالى :﴿ أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ :

أى :أولئك المؤمنون الذين تحلوا بتلك الخلال السامية جديرون بأن يتبوءوا أرفع مراتب الجنات ، كفاء ما زينوا به أنفسهم من الأخلاق الفاضلة والآداب العالية ، ويبقون خالدين فيها أبدا . لا يخرجون منها ولا يموتون .

وقصارى ما سلف ـ أن فلاح المؤمن موقوف على اتصافه بتلك الصفات السامية العالية القدر ، العظيمة الأثر ، فى حياته الروحية وكمالاته النفسية .

(١) الآية ٩٢ من سورة النحل .
(٢) الآية ٩٥ من سورة النحل .
(٣) الآية ٣٤ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ١٢ من سورة الروم .
(٥) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .
(٦) الآيات ١٣١ ـ ١٣٣ من سورة الأنعام
(٧) الآية ٥٣ من سورة الأنفال .
(٨) الآية ٣ من سورة الأنعام .
(٩) الآية ٣٨ من سورة الحج .

وروى عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل ، فأنزل عليه يوما ، فمكث ساعة ثم سرى عنه فاستقبل القبلة فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا . ثم قال : لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة) [1] . ثم قرأ : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ حتى ختم العشر .

المبدأ والمعاد

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾

تفسير المفردات

السلالة : ماسل من الشيء واستخرج منه،وتارة تكون مقصودة كخلاصات الأشياء كالزبد من اللبن ، وتارة تكون غير مقصودة كقلامة الظفر ، وكناسة البيت .

قرار : أى مستقر .

مكين : أى متمكن .

العلقة : الدم الجامد .

المضغة : قطعة اللحم قدر ما يمضغ .

تبارك الله : أى تعالى وتقدس .

التفسير

عن أنس رضى الله عنه : (قال عمر : وافقت ربى فى أربع ، قلت:يارسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ [2] وقلت : يارسول الله لو اتخذت على نسائك حجابا فإنه يدخل عليك البر والفاجر فأنزل الله ﴿ **وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب** ﴾ [3] . وقلت لأزواج النبى ﷺ : لتنتهن أو ليبدلنه الله أزواجا خيرا منكن فنزلت ﴿ **عسى ربه إن طلقكن** ﴾ [4] . الآية . ونزلت ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة** ﴾ إلى قوله:﴿ **ثم أنشأناه خلقا آخر** ﴾ فقلت : ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت ياعمر) أخرجه الطيالسى .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٤ ، وفى ٤ : ٢٦٨ ، ٢٧١ . والدارمى فى المقدمة : ٢ .

(٢) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٥٣ من سورة الأحزاب .

(٤) الآية ٥ من سورة التحريم .

أيها الإنسان:أصلك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت بين هذا وذاك تحمل فى جوفك العذرة ،تنتنك عرقة ، وتؤذيك بقة ، وتقتلك شرقة ، فكيف تتكبر على الله وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين .

سبحانك ربى يا من قلت:﴿ **كلا إنا خلقناهم مما يعلمون** ﴾ (١).ويا من قلت : ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون** ﴾ (٢) .

﴿ **يأأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك** ﴾ (٣) .

دواؤك فيك وما تبصر وداؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذى بأحرفه يظهر المضمر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾ :

أى،ولقد خلقنا أصل هذا النوع وأول أفراده وهو آدم عليه السلام من صفوة طين لا كدر فيه .

ويرى جماعة من المفسرين : أن المراد بالإنسان هنا ولد آدم وهم يقولون : إن النطف تتوالد من الدم الحادث من الأغذية ، وهى إما حيوانية وإما نباتية ، والحيوانية تنتهى إلى نباتية ، والنبات يتوالد من صفو الأرض والماء ، فالإنسان على الحقيقة متوالد من سلالة من طين ، ثم تواردت على تلك السلائل أطوار الخلقة إلى أن صارت نطفا .

قوله تعالى : ﴿ **ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين** ﴾ .

ولابد من تسليط الأضواء العلمية الكاشفة على هذا القرار المكين الذى سماه خالقه قرارا،أى: مستقرا . ووصفه بأنه مكين ، ذلك لأن عادة الجسم قد جرت على أمر معهود وهو طرد الأجسام الغريبة ، فلماذا لم يطرد الرحم النطفة التى حبت فيه من ماء الرجال ، وهى غريبة ، ذلك لأن الله هيأ المكان ليكون قرارا ، وليكون مكينا .

فماذا يقول العلم ؟ وماذا يقول العلماء المتخصصون فى الأجنة ؟

إن العلم له حديث شجون فى هذا المجال الذى إن دل على شىء فإنما يدل على الوحدانية الخالصة ، والعلم المحيط ، والإرادة النافذة ، والقدرة الفائقة ، لمن يقول للشىء كن فيكون ، ولمن يقول :﴿ **هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ (٤) .

القرار المكين :

﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون** ﴾ .

(١) الآية ٣٩ من سورة المعارج .
(٢) الآيات ٢٠ ـ ٢٣ من سورة المرسلات .
(٣) الآيات ٦ ـ ٨ من سورة الانفطار .
(٤) الآية ٦ من سورة آل عمران .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ﴾ :

لقد سمى الله تعالى الرحم القرار المكين . . الذى تنمو فيه النطفة الأمشاج ، حتى تصير جنينا ، ثم حميلا ، ثم تخرج طفلا كامل الخلقة سوى التكوين .

ولذا فلابد أن يكون الرحم محروسا ومهيأ لأن يكون القرار المكين ، كما أنه الفراش الوثير لتلك النطفة فالعلقة ..

وأول شيء نلاحظه هو أن الرحم موضوع فى الحوض الحقيقى لهيكل المرأة الذى يحمى الرحم من كل عدوان خارجى ، ثم نجد الأربطة والصفاقات المختلفة التى تمسك بالرحم ، ومع ذلك تسمح له بالحركة والنمو ، حتى أن حجمه ليتضاعف أكثر من ثلاثة آلاف مرة فى نهاية الحمل . . إذ أن حجم رحم الأنثى البالغة لا يتسع لأكثر من مليليتر ونصف ، بينما يتسع حجم الرحم ذاته فى نهاية الحمل لسبعة آلاف مليليتر . . ومع ذلك يبقى الرحم فى مكانه والأربطة ممسكة به . . كما نلاحظ عضلات الحوض . . والعجان (يعرف الأطباء العجان باسمه اللاتينى الاغريقى PERINEUH) وهى تحفظ الرحم فى مكانه كما تحفظ الأعضاء الأخرى الهامة الموجودة فى الحوض ، كالمثانة والمستقيم والقناة الشرجية ، ولولا ذلك الضغط المستمر من عضلات العجان لسقطت أعضاء الحوض مثل الرحم والمثانة والقناة الشرجية ، ولبرزت إلى الخارج ، وذلك ما نشاهده فعلا عند تمزق عضلات العجان فى حالات الولادة المتعسرة ، أو فى الأمراض التى تصيب عضلات العجان مما يؤدى إلى سقوط هذه الأعضاء .

وبعد ذلك نرى النسيج الخلوى الضام الذى يحيط بعنق الرحم ، وبالجزء العلوى من المهبل ، ويربط أجزاءه بالمثانة من الأمام ، وبالمستقيم من الخلف ، يساند مساندة فعالة فى جعل الرحم قرارا مكينا لنمو النطفة الإنسانية فى أدوارها المختلفة ، كما أننا نلاحظ توازنا عجيبا بين الضغط الموجود فى تجويف البطن وتجويف الحوض ، بحيث يمسك بالأعضاء فى أماكنها .

وأعضاء الحوض تساند بعضها بعضا . . واتصال الرحم بالعنق واتصال عنق الرحم بالمهبل مما يساعد مساعدة فعالة فى ثبات الرحم فى مكانه . . ثم إن الرحم بذاته مكون من ثلاث طبقات . خارجية من البريتون وداخلية تكون غشاء الرحم .

وبينهما الطبقة العضلية الثخينة والمكونة ذاتها من ثلاث طبقات من العضلات ولهذه العضلات اهمية خاصة فى منع النزيف من الرحم ، وخاصة بعد الولادة إذ لولا انقباضها الشديد لتفجرت الأوعية المتفتحة أنهارا من الدم حتى تودى بحياة الأم ، ولكن الله هيأ هذه العضلات العاصرة لتقفل هذه الفوهات المتدفقة بالدماء عقب الولادة مباشرة .

كما أن الرحم يستقر كذلك نتيجة إفراز هرمون الحمل البروجسترون . . إذ أن هذا الهرمون يجعل انقباضات الرحم بطيئة ومتئدة عكس هرمون الأنوثة الأوستروجين الذى يجعل انقباضات الرحم نزقة هاشة باشة للمنى . . كما وصفها الفخر الرازى بقوله : (إن الرحم إذا كان قد انقطع عنه الطمث قريبا وكان خاليا من الفضول المانعة له عن فعله اشتد شوقه إلى المنى حتى أن الإنسان يحس فى وقت الجماع وكأن الرحم يجذب إحليله إلى داخله كما تجذب المحجمة الدم) .

ولا يمكن أن يحصل ذلك اثناء الحمل مثلا . . لأن هرمون البروجسترون (هرمون الحمل)

يمنع الرحم من مثل ذلك الطيش . . ويأمره بالسكينة والوقار فإن بداخله درة مكنونة لو فعل بها ذلك لقذفها إلى الخارج .

بعد أن أجملنا العوامل التى تحفظ الرحم فى مكانه ، وتجعله القرار المكين سنبدأ بشىء من التفصيل ودون أن ندخل فى تفصيلات علم التشريح فذلك متروك لطلبة الطب والأطباء .

١ - الحوض : (BONY PELVIS) :

يتكون الحوض من مجموعة من العظام متصلة ببعضها البعض اتصالا دقيقا محكما فتكون مثل الصندوق الخشبى ولكن له فتحتان رئيسيتان : من أعلى حيث يتصل بتجويف البطن ومن أسفل حيث يغطى بعضلات العجان وبه نهاية القناة الهضمية ونهاية الجهاز البولى والتناسلى . . وتسمى عظمتا الحوض على جانبيه بالحرقفة والورك والعظم الخلفى يدعى العجز والعصعص . . أما العظم الأمامى فيسمى العانة .

ويتصل الحوض بالعمود الفقرى حيث يتصل عظم العجز بالفقرات القطنية كما تتصل الحرقفة من كلا الجانبين بعظمتى الفخذ ويحفظ الحوض فى الأنثى أجهزتها التناسلية الهامة : الرحم والمبيض وقناتى الرحم والمهبل . . كما يحفظ لكلا الرجل والمرأة المثانة ومتعلقاتها والمستقيم ومتعلقاته والأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب .

ولا شك أن وظيفة حوض المرأة تختلف إلى حد ما عن وظيفة حوض الرجل فبالإضافة إلى حفظ الأعضاء التى ذكرناها فإن على حوض المرأة أن يكون مستعدا لنمو الرحم نموا هائلا .

كما أن عليه أن يتقبل إخراج الجنين ومتعلقاته مثل المشيمة والأغشية إلى العالم الخارجى أثناء الولادة .

ولذا لابد أن يختلف حوض المرأة فى تركيبه عن حوض الرجل .

ويقول علماء الأجنة : (يمتاز حوض السيدة عن حوض الرجل بالنسبة لقيامه بوظيفة هامة إضافية تتطلب منه بغض الضروريات اللازمة التى لا يحتاج إليها حوض الرجل . . فنمو الجنين فى الحوض وطرق تغذيته وحفظه ثم مروره بتجويف الحوض . . ومن مخرجه وقت الولادة بالنسبة للأم وللطفل . . وتنحصر كل هذه التغييرات فى أن يكون تجويف حوض السيدة أوسع وأقصر . . وأن تكون عظامه أرق وأقل خشونة وأبسط تضاريس) .

(وإن تكن رقة العظام ونعومتها وبساطة تضاريسها وصغر شوكاتها وقلة غور حفرها ظاهرة جلية فى أكثر عظام الهيكل فى السيدة غير أنها تتجلى بأوضح شكل فى عظام الحوض للأنثى التى بلا نزاع تشارك صفات عظام الهيكل الأخرى بقسط وافر من صفاتها المميزة للأنوثة زيادة على تكيفها النوعى الخاص بما يناسب ما يتطلب منها من القيام بعمل تنفرد به دون غيرها من عظام الهيكل) .

وهكذا يحفظ الحوض العظمى الرحم بداخله بحيث لا يصله شىء من الكدمات والهزات التى تتعرض لها المرأة . . بل لو أصيبت المرأة فى حادث أو سقطت من شاهق وكسرت عظامها فإننا نجد الرحم فى أغلب الأحوال سليما لم يمسسه سوء ، بل لو أن شخصا اعتدى على امرأة ومزق أحشاءها بالسكين فإنه لن يستطيع أن يصل إلى الرحم إلا إذا كانت المرأة حاملا فى الشهر الرابع فما بعده . . وأما

قبل ذلك فيكاد يكون من المستحيل الوصول إلى الرحم بأى أذى .

والحوض على متانته له مفاصل اربعة ، يمكن من خلالها أن يتحرك قليلا حتى يزداد اتساعه وخاصة عند الحمل والولادة ، بينما حوض الرجل لا يكاد يتزحزح وكل مفصل من هذه المفاصل محروس بمجموعة من الأربطة والصفاقات المتينة المحكمة .

وقد احتار القدماء من الأطباء حيرة شديدة فى كيفية خروج الطفل من هذا المكان الضيق فظن بعضهم أن العظام لابد أن تنفلق ولو للحظات حتى يمر الجنين .

وقد أوضح العلم الحديث أن هرمون الحمل البروجسترون يقوم ضمن وظائفه العديدة بتيسير حركة مفاصل الحوض حتى يتسع ، ويؤثر على الأربطة المتينة المحكمة فيه ، ويقول لها أرخى من قبضتيك قليلا ، فتسمع له ، وتطيع وترخى من قبضتها الحديدية فيزداد الحوض اتساعا ، حتى يتسنى للرحم أن يكبر ويتضاعف حجمه آلاف المرات . فإذا قرب موعد الولادة انضم رسول آخر من الغدة النخامية يسمى هرمون الارتخاء (RELAXIN) فيقول للحوض : اتسع ، فيتسع وعند ذاك يمر الطفل فى ذلك الطريق الضيق الذى احتار فيه القدماء كيف تسنى له أن يمر دون أن ينحشر انحشارا مميتا .

فانظر إلى رحمة الله وهى ترعاك فى كل طور من أطوار حياتك ، منذ كنت نطفة مغلقة ، فعظاما فلحما يكسو العظام لحما ، فخلق من بعد خلق .

والمشيمة تمدك بالغذاء والدماء وتدفع عنك الأذى ، فإن حان موعد خروجك إلى الدنيا هيأ لك الأسباب وأرخى لك العظام وجعلها طيعة لينة .

وأمر الرحم بالإنقباض فانقبض انقباضات متتالية ومتقطعة حتى لا تزداد عن حدها فتؤدى الى الضغط عليك ضغطا يؤدى إلى وفاتك ، وهيأ الطريق لخروجك فى ذلك الحيز الضيق الذى لا يمكن أن نخرج منه لولا رحمته ، ثم تخرج لتجد غذاءك جاهزا فى ثدى أمك مع المضادات للأمراض والميكروبات تسقيك إياه من ثديها ، مع ذلك اللبن الذى يخرج من بين فرث ودم .

ثم يرعاك طفلا ويافعا . . فإذا بلغت أشدك استكبرت وعتوت وساقتك الأوهام والخيالات إلى نكران تلك النعم التى تهطل عليك فى كل لحظة وآن . . وأنت عنها غافل سادر .

فما أحراك بالسجود شكرا لله على عظيم مننه وآلائه ، وأحراك أن تطيع فلا تعصى أبدا ، ولكنها النفس الأمارة بالسوء ، ولكنه الشيطان عدو الإنسان يوسوس فى آناء الليل وأطراف النهار . . ولابد من أوبة . . ولابد من توبة . . قبل فوات الأوان . . فإن الله يفتح ذراعيه بالليل ليتوب مسىء النهار ويفتح ذراعية بالنهار ليتوب مسىء الليل .

ولنعد الى القرار المكين حيث رأينا العظام وهى تحرس الرحم حراسة ما بعدها حراسة . . وسنرى الآن كيف تساهم عضلات الحوض والعجان بالمحافظة على الرحم وجعله قرارا مكينا .

٢ - عضلات الحوض والعجان : (PELVIC AND PERINEAL MUSCLES

تساهم عضلات الحوض والعجان مساهمة فعالة فى حفظ أعضاء الحوض وأهمها الرحم ومتعلقاته والمثانة ومتعلقاتها ونهاية القناة الهضمية والأوعية الدموية والأعصاب وهناك كثرة من العضلات المتصلة بالحوض . . إلا أن أهم العضلات المسئولة عن حفظ الرحم الشرج والمثانة هى :

١ ـ العضلة الرافعة للشرج — LEVATOR ANI **MUSCLE**
٢ ـ العضلة العصعصية — COCCYGIUS MUSCLE

وهما يكونان الحجاب الحاجز للحوض بمساعدة الصفاقات . . وهما تحفظان أعضاء الحوض في أماكنها المحدودة والمرسومة ضد العوامل المختلفة الطارئة والدائبة .

والعضلة الرافعة للشرج هى أهم العضلتين ، وتلتف أليافها الأمامية حول المهبل فى المرأة ، وحول البروستاتا فى الرجل . . وتحفظها فى مكانها المقرر لها .

أما أليافها الوسطى والخلفية فتلتف حول القناة الشرجية ونهاية المستقيم وتحفظ بذلك المستقيم والشرج .

ونتيجة لتوترها الدائم تمنع المستقيم والمهبل والرحم والمثانة من أن تسقط كما يقع فى بعض الحالات المرضية . . مثل تمزق العضلة الرافعة للشرج أثناء الولادة المتعسرة ، أو نتيجة لإصابة أعصاب تلك العضلة بأحد الأمراض التى تصيب الأعصاب والعضلات ، فتؤدى إلى ارتخائها مما يسبب سقوط المهبل أو سقوط الشرج إلى خارج الجسم .

وللعضلة الرافعة للشرج دور هام فى الولادة . . إذ أن أليافها الخلفية تساهم فى إطالة الدور الأول للولادة حتى يتسنى لعنق الرحم أن يتمدد . . أما فى المرحلة الثانية وهى إخراج الجنين وقذفه إلى الخارج فتساهم كل من العضلات الرافعة للشرج والعضلات العصعصية فى زيادة الضغط فى تجويف الحوض والرحم بانقباضها المتتالى مما يساعد مساعدة فعالة فى إخراج الجنين وقذفه للخارج .
كما أن هذه العضلات تساهم أيضا فى الدور الأخير من الولادة وهو إخراج المشيمة وطردها من الرحم بعد إخراج الوليد .

٤ ـ صفات الحوض :

يشتمل الحوض على نسيج ليفى غشائى يحيط بأعضاء الحوض وبعضلاته وأوعيته وتربط هذه الصفاقات أعضاء الحوض بعضها ببعض وتعرف بالأربطة الحقيقية ويتخللها نسيج عضلى غير إرادى وتعرف الصفاقات التى تغطى الرحم والمثانة والمستقيم والقناة الشرجية بالصفاقات الحشوية لأنها تغطى الأحشاء ، أما تلك التى تغطى العضلات فتعرف بالصفاقات الجدارية لأنها تغطى جدران الحوض .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
ياحى ياقيوم أنت المرتجى وإلى علاك الجنين الساجد

سبحانك يامن قلت وقولك الحق: ﴿ **إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء. هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ [1] .

---

(١) الآيتان : ٥ ، ٦ من سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

كل هذه الأطوار تحدث فى عالم الأرحام ، ولابد من معرفة علمية كاملة بهذا القرار الذى نشأنا فيه ، ولابد لنا أن نتحدث عن أربطة الرحم ، حتى نقف مسبحين بحمد ربنا ، مقرين له بالجلال والكمال ، والعظمة المطلقة .

٤ ـ أربطة الرحم : ـ

إن وضع الرحم فى وسط الحوض الحقيقى بحيث لا تتعدى قمة الرحم الحرف العلوى لعظم العانة ، ولا يتعدى أسفل الرحم (عنق الرحم) الشوكتين الوركيتين فى أسفل الحوض : .

إن وضع الرحم هكذا يجعله محروسا تماما بعظام الحوض من كل جهة ، ويمسكه فى مكانه كما تقدم ذكره من صفاقات وعضلات بالإضافة إلى أربطة الرحم . .

وللرحم جملة أربطة يتعاون بعضها مع بعض فى جهاتها المختلفة ، لحفظ الرحم فى موضعه الطبيعى ، ولكنها فى نفس الوقت تسمح له بالحركة الحقيقية ، كما تسمح له بالنمو الهائل فى فترة الحمل ، بحيث يتضاعف حجم الرحم آلاف المرات فى نهاية الحمل عما كان عليه قبيل الحمل ، وبحيث يملأ الرحم تجويف البطن حتى يصل إلى عظمة القفص حتى ليجعل التنفس عسيرا على الأم ، وخاصة عند الاستلقاء على ظهرها .

ولكأنما الرحم جسر معلق تربطه مجموعة محكمة من الأربطة والأعمدة المتينة المحكمة . . بل إنه أعظم من ذلك بكثير . . إذ لا يمكن للجسر المعلق أن ينمو أو يغير وضعه وهو متصل بمكانه لا يبرحه .

وتقسم أربطة الرحم الكثيرة إلى مجموعتين : ـ

المجموعة الأولى : ـ

وتدعى بالأربطة الرحمية الكاذبة : وتسمى كاذبة لأنها مكونة من انعطاف البريتون ، وليست بها صفاقات ولا عضلات تمييزا لها عن الأربطة الحقيقية المكونة من الصفاقات والعضلات ، ولكن تسميتها كاذبة لا ينفى عنها أنها تقوم بمهمة عظيمة فى حفظ الرحم فى مكانه ، وأهم هذه الأربطة هى :

أ ـ الرباط الرحمى العريق : ويغطى معظم الرحم من الأمام والجنبين ، وجزءا كبيرا من السطح الخلفى للرحم ، ويحتوى على أوعية الرحم الدموية والمبيض وأعصابه وأوعيته الدموية كما يمر به :

ب : الرباط المبيضى الرحمى : الذى يربط بين المبيض والرحم ويثبت كلا منهما إلى الآخر .

جـ : الرباط الرحمى المثانى : ويثبت الرحم من أمام إلى المثانة .

د ـ الرباط الرحمى المستقيمى : ويثبت الرحم من خلف إلى المستقيم .

المجموعة الثانية :

أما الأربطة الحقيقية التى بها الصفاقات وشىء من العضلات ، فتمسك بالرحم من كل جهة ، وتثبته

فى مكانه وتجعله القرار المكين .

وأهم هذه الأربطة هى : ـ

أ ـ **الرباط الرحمى المبروم** : ويتصل بقرن الرحم من كل جانب ثم يتجه مبتعدا عن الرحم ، حتى يتصل بجبل الزهرة الذى يقع على عظم العانة ، ويثبت الرحم من الجهة الأمامية .

ب ـ **الرباط الرحمى العجزى** : ويربط ما بين الرحم وعظم العجز وبذلك يثبت الرحم من الجهة الخلفية .

جـ ـ **الرباط الحامل للمبيض والرباط المبيضى** : وهذه الأربطة تثبت الرحم من جانبيه الأيمن والأيسر .

كما أن هناك مجموعة من هذه الأربطة تساهم فى تثبيت الرحم مثل الرباط العانى الرحمى المثانى الذى يربط ما بين الرحم وما بين المثانة وعظم العانة من الأمام ، . . . ويساهم مساهمة فعالة فى تثبيت الرحم من الجهة الأمامية . . كما يساهم الرباط الوحشى لعنق الرحم فى تثبيت الرحم من جانبيه الأيمن والأيسر .

٥ ـ مساندة الأعضاء الأخرى فى تجويف الحوض : ـ

إن امتلاء الحوض بالأعضاء مثل المثانة ومتعلقاتها ، ونهاية القناة الهضمية (المستقيم والقناة الشرجية) والأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب ، كلها تساهم فى حفظ الرحم فى مكانه .

٦ ـ توازن الضغط الموجود بتجويف البطن وتجويف الحوض : ـ

يتولد ضغط فى تجويف البطن نتيجة تقلصات عضلات الحجاب الحاجز ، وعضلات جدار البطن . . ويدفع ذلك أعضاء الحوض ومنها الرحم إلى أسفل . . ويقابل ذلك الضغط من أعلى ضغط من أسفل نتيجة تقلص عضلات العجان مثل العضلات الرافعة للشرج ، فتدفع بالرحم إلى أعلى ، ونتيجة لتوازن هذا الضغط يبقى الرحم فى مكانه .

٧ ـ عنق المهبل :

يتصل الرحم بواسطة عنق المهبل ونتيجة لهذا الاتصال يبقى الرحم فى مكانه .

٨ ـ هرمون الحمل : البروجسترون :

يؤثر هذا الهرمون على تقلصات عضلات الرحم ، فيجعلها متئدة وقورة بدلا من تلك الحركات النزقة التى يسببها هرمون الأنوثة الأوستروجين ، . . . ولا شك أن لهرمون الحمل البروجسترون تأثيرا هاما فى استقرار الرحم فى فترة الحمل ، حتى لا يقذف الرحم بالجنين ، وخاصة فى أشهر الحمل الأولى ، ومن الجدير بالذكر أن هذا الهرمون يستعمل فى كثير من حالات الإجهاض المنذر ، أوحالات الإجهاض المتكرر للوقاية من حصول الإجهاض .

وهكذا تتضافر هذه العوامل العديدة فى جعل الرحم القرار المكين وصدق الله العظيم حيث يقول : **﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون ﴾**[1] .

---

(١) الآيات ٢٠ ـ ٢٣ من سورة المرسلات .

ويقول : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

أهمية الرحم :

إن الرحم هو القرار المكين الذى تنمو فيه النطفة الأمشاج ، وتعلق فيه حتى تصير علقة فمضغة فعظاما . . فلحما يكسو العظام . . ثم ينشئه الله خلقا آخر حتى يخرجه الله طفلا كامل الخلقة سوى التكوين .

وللرحم أهمية لاتدانيها أهمية أخرى غير المخ حيث ينتهى إليه الفكر والروية،والقلب حيث تنبعث منه الدورة الدموية .

ومما يدل على تلك الأهمية فى الإسلام أنه قد ورد ذكر الرحم فى مواقع متعددة :

والآيات الكريمة تتحدث عن الرحم بمعنيين :

المعنى الأول :

العضو التناسلى للمرأة وهو المهد والفراش والمحضن للنطفة الإنسانية يحوطها ويغذيها ويرعاها حتى تبلغ أوج نموها وكماله ، فيخرجها الله بشرا سويا . وبهذا المعنى نزلت الآيات الكريمة التالية : ـ

- ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾(١)
- ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار ﴾(٢) .
- ﴿ ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾(٣) .
- ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ﴾(٤) .
- ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ﴾(٥) .

المعنى الثانى :

هو صلة القربى الناتجة عن الرحم وما يحمله ، وهو الوشائج والصلات الناتجة عن التزاوج ، فالآباء والأبناء والأخوال والأعمام ومجموعة الأقارب التى تتصل بهم ـ وإن بعدوا ـ يطلق عليهم لفظ الرحم .

وقد ورد ذكره بهذا المعنى فى قوله تعالى :

- ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾(٦) .
- ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾(٧) .
- ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾(٨) .
- ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ﴾(٩) .

(١) الآية ٦ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٨ من سورة الرعد .
(٣) الآية ٥ من سورة الحج .
(٤) الآية ٣٤ من سورة لقمان .
(٥) الآية ٢٢٨ من سورة البقرة .
(٦) الآية الأولى من سورة النساء .
(٧) الآية ٧٥ من سورة الأنفال .
(٨) الآية ٢٢ من سورة محمد .
(٩) الآية ٨١ من سورة الكهف .

ومن الأحاديث النبوية التى تحدثت عن الرحم بمعنى الصلة :

● عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : (الرحم معلقة بالعرش تقول:من وصلنى وصله الله:ومن قطعنى قطعه الله)[1] أخرجه مسلم

● عن عبد الرحمن بن عوف-رضى الله عنه-قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله عز وجل : (أنا الرحمن وأنا خلقت الرحم واشتققت لها من اسمى،فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته)[2]. (أى:قطعته وأهلكته) . البخارى فى الأدب المفرد .

● عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : (الرحم شجنة من الله . من وصلها وصلة الله ومن قطعها قطعه الله)[3] . البخارى فى صحيحه ، والشجنة : عروق الشجر المتشابكة . . والمعنى أن الرحم أثر من آثار رحمته مشتبكة بها والقاطع لها مقطوع من رحمته تعالى .

● عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ من القطيعة قال : نعم . أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك:قالت:بلى؟قال:فذاك لك . ثم قال رسول الله ﷺ : اقرأوا إن شئتم : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم.أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم »)[4] أخرجه البخارى ومسلم .

● عن جبير بن مطعم عن النبى ﷺ قال : (لا يدخل الجنة قاطع رحم)[5] . أخرجه البخارى ومسلم .

●(من سره أن يبسط له فى رزقه وينسأ فى أثره فليصل رحمه)[6] أى:يكثر رزقه ويطول عمره من وصل رحمه . أخرجه البخارى ومسلم .

● (إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم)[7]. الأدب المفرد للبخارى .

● (ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخره له فى الآخرة من قطيعة الرحم والبغى)[8] . البخارى فى الأدب المفرد .

● (ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل إذا قطعت رحمه وصلها)[9] . صحيح البخارى

(١) أخرجه مسلم فى البر : ١٧. والإمام أحمد فى ٢ : ١٦٣ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٩ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ١٩١ ، ١٩٤ .
(٣) أخرجه البخارى فى الأدب : ١٣. والترمذى فى البر : ١٦. والإمام أحمد فى ١ : ١٩ ، ٣٢١ ، وفى ٢ : ٢٩٥ ، ٣٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٥٥ ، ٤٩٨ .
(٤) أخرجه البخارى فى التفسير سورة : ٤٧ فى الترجمة ، وفى التوحيد : ٠٣٥ مسلم فى البر : ١٦. والإمام أحمد فى ٢ : ٣٣٠ ، ٣٨٣ .
(٥) أخرجه مسلم فى البر : ١٨ ، ١٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٨٤ ، وفى ٣ : ١٤ ، ٨٣ ، وفى ٤ : ٣٩٩ .
(٦) أخرجه البخارى فى الأدب : ١٢ ، وفى البيوع : ١٣. ومسلم فى البر : ٢٠ ، ٢١ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٥٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦ ، وفى ٥ : ٢٧٩ .
(٧) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد . ؟
(٨) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد . ؟
(٩) أخرجه البخارى فى الأدب : ١٥. والترمذى فى البر : ١٠.

● مما سبق يتبين أهمية الرحم القصوى فى الإسلام ،.وكيف اشتق المولى-تبارك وتعالى-اسمها من اسمه ، وكيف جعلها معلقة بعرش الرحمن ، وكيف وصلها-سبحانه وتعالى-بنفسه ، ووصل من وصلها ، وقطع من قطعها .

لا شك أنه تشريف لم يحظ به كثير من أعضاء جسم الإنسان . . (على أهمية تلك الأجزاء مثل القلب والدماغ والكبد) وذلك راجع إلى أن الرحم منبت للبذرة الإنسانية . . فيها تنمو وتترعرع . . يغذوها بدمه ويحفظها من كل سوء حتى إذا آن موعد خروجها إلى الدنيا انقبض الرحم انقباضات متتالية حتى يخرجها إلى الدنيا سليمة معافاة . دون أن يمسها بأذى مع أن مثل تلك الانقباضات الشديدة يمكن أن تودى بحياة الجنين،ولكن الله يجعل له سبيلا ليخرج،ويجعل تلك الانقباضات متقطعة ولا تؤثر على حياة الجنين لأنها تتجه إلى أسفل لتوسيع عنق الرحم بدلا من الضغط المباشر على الجنين .

والرحم موضوع فى وسط حوض المرأة يكون محميا ومصونا من كل أذى . . ولا يقابله فى الرجل سوى أثر مندثر فى شكوة البروستاتا .

والرحم عضو عضلى أجوف وجدار ثمين ومتين وهو كمثرى الشكل ، ويبلغ طوله ٣ بوصات ، وعرضه بوصتان ، وسمكه بوصة واحدة فى الأنثى البالغة .

فإذا حملت المرأة فإن الرحم ينمو ويكبر حتى يملأ البطن من القفص إلى العانة ، أما حجم تجويف الرحم فى الأنثى البالغة فلا يزيد على،مليلترين أما فى نهاية الحمل فإن حجم الرحم يتسع لسبعة آلاف مسلليتر ، أى ان حجمه يتضاعف أكثر من ثلاثة آلاف مرة . .

ووزن الرحم فى غير أوقات الحمل لا يزيد على خمسين جراما ، فإذا كان فى نهاية الحمل فإن وزن الرحم ذاته يبلغ ألف جرام أو تزيد ، أما محتوياته فتزن خمسة آلاف جرام . . . أى:أن وزنه بمحتوياته يزيد أكثر من مائة مرة .

والرحم هو العضو الوحيد فى جسم الانسان الذى له هذه القابلية للتغير السريع من حال إلى حال ، وهو بذلك أسرع نمو يعرفه جسم الإنسان حتى أخطر السرطانات لا تنمو بمثل سرعة نمو الرحم ، وما يحمله فى طياته ومع ذلك فشتان ما بين النمو السرطانى الخبيث ، ونمو الرحم الحميد العاقبة ، المأمون الغائلة . . فذاك يؤدى إلى الموت والهلاك،وهذا يؤدى إلى النماء والبقاء . . .

مم يتركب الرحم ؟

يتكون الرحم من جسم وعنق وكلاهما مكون من طبقات ثلاث :

* **أولها من الخارج :** طبقة البريتون التى تغطى جسم الرحم وشيئا من عنقه من الخلف .
* **وثانيها الطبقة العضلية :** وهى عضلات سميكة غير ارادية وتشمل فى ذاتها ثلاث طبقات من الألياف وهى :

أ ـ الطبقة السطحية : وأكثر أليافها طولية .

ب ـ الطبقة المتوسطة : وأليافها مختلفة الاتجاهات وبعضها على شكل 8 (ثمانية بالانجليزى) .

جـ ـ الطبقة الداخلية : ومعظم أليافها دائرية وتتركز حول عنق الرحم لتكون عاصرة للعنق .

وللعضلات وظائف عديدة أهمها حماية غشاء الرحم الذى تنغرز فيه البويضة الملقحة لتصبح جنينا كما أن وظيفة العضلات قفل الأوعية الدموية العديدة عند الطمث وعقب الولادة .. ولولا ذلك لنزفت الوالدة حتى تموت .

* **وثالث طبقات الرحم :** هى الطبقة المخاطية .. وهى الغشاء المبطن للرحم .. وغشاء الرحم هو الفراش الوثير للنطفة الأمشاج التى تعلق به .. وعن طريقه تتغذى وتنمو .. وهذا الغشاء مكون من طبقات تتخللها الأوعية الدموية الكثيرة .. والغدد الرحمية العديدة .. وتقع هذه الطبقة بالذات تحت تأثير الهرمونات ولها دورة شهرية كاملة تبدأ من سن البلوغ وتنتهى فى سن اليأس .

قناة الرحم :

وتوجد للرحم قناتان على كل جانب واحدة ... وتنتهى القناة بانتفاخ يعرف باسم البوق الذى يحيط بالمبيض بمجموعة من الأهداب ... فإذا أفرز المبيض البويضة تلقفتها أهداب البوق وحملتها حملا رفيقا ، ودفعتها مجموعة من الشعيرات الدقيقة المبطنة لغشائه حتى تصل إلى الثلث الأخير فيه .. وهناك تبقى البويضة حتى تأتيها الحيوانات المنوية فى رحلتها الطويلة المحفوفة بالمخاطر ، فإذا ما نجح حيوان منوى فى تلقيح البويضة ...

وأصبحت البويضة ملقحة « النطفة الأمشاج » أى المختلطة من ماء الرجل وماء المرأة .. عندئذ تبدأ هذه البويضة المخصبة فى الانقسام حتى تصير مثل الكرة .. وتسير فى قناة الرحم تدفعها شعيرات دقيقة فى غشاء قناة الرحم حتى تصل إلى الرحم فى ستة أيام فإذا ما وصلت إلى الرحم فقد أدت قناة الرحم واجبها وأسلمت أمانتها إلى الرحم .. وهناك يستقبل الرحم البويضة الملقحة بعد أن مهد لها الفرش والبطائن وتنغرز فيه وتعلق بجداره وتحاط بالدم الغليظ من كل جهة ، وبما أن العلقة لا تكاد تبين .. ولا يظهر منها إلا هذا الدم الغليظ فقد أجمع المفسرون القدامى على أن العلقة هى دم غليظ وأصابوا من جهة وأخطأوا من أخرى .. فهى محاطة بالدم الغليظ ولكنها ليست هى ذاتها الدم الغليظ .

وتدعى قناة الرحم أيضا القناة المبيضية ، كما تدعى قناة فالوب ، نسبة إلى الطبيب الذى وصفها أول مرة .

* **المهبل : -**

هو شق ضيق يصل ما بين فتحة الفرج من أسفل وعنق الرحم من أعلى ، وجداره الأمامى اقصر من جداره الخلفى ، إذ طول الجدار الأمامى سبعة سنتيمترات ، بينما طول الجدار الخلفى تسعة سنتيمترات .

وبما أن جدار المهبل مكون من عضلات انتصابية ، فإن الجدارين يكونان ملتصقين إلا عند الجماع أو الولادة .. ويظل عنق الرحم فى أعلى المهبل ويحاذى المهبل من أمام قناة مجرى البول وأسفل المثانة .. أما من خلف فيوجد المستقيم والقناة الشرجية ومن الملاحظ أن قناة مجرى البول فى الأنثى مستقلة عن الجهاز التناسلى ، فهى منفصلة عنه ولها فتحة (صماخ) فى أعلى الفرج من أمام لا تكاد تبين ، لفرط صغرها ، أما فى الذكر فإن قناة مجرى البول تمر فى الإحليل (القضيب) حتى تنتهى إلى الفتحة (الصماخ) على حشفة القضيب .

* **المبيضان : ـ**

ويوجد مبيض على كل جانب فى الحوض الحقيقى للمرأة . وهما يقابلان الخصيتين (الأنثيين) عند الرجل .

هناك مبيضان على كل جانب واحد ويقع فى الحفرة المبيضية من الحوض ، وهو مصنع البويضات أو النطف المؤنثة . وهو يقابل الخصية لدى الرجل ، وشكله مثل اللوزة ، وطوله نحو ثلاثة سنتيمترات ، وعرضه نصف طوله ، وسمكه نصف عرضه . .

ويمسك بالمبيض فى مكانه مجموعة من الأربطة مثل الرباط المبيضى الرحمى الذى يربط ما بين المبيض وزاوية الرحم العليا ، ومنها الرباط الحامل للمبيض وهو متصل بالرباط العريض للرحم ومنها مساريقا المبيض (المساريقا هى ما يدعى بالانجليزية MESNTRY وهى عبارة عن طبقتين من البريتون تغطيان سطح المبيض إلا من جانب واحد فقط ، جيث تدخل منه الأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب، وللأمعاء كذلك مساريقا خاصة بها) .

وبواسطته تدخل الأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب من وإلى المبيض .

ويغذى كل مبيض شريان من الأورطى البطنى ، ومخرجه أسفل الشريان الكلوى مباشرة فى أعلى المنطقة القطنية ، أى من بين الصلب والترائب ، كما أن الأوردة الخارجة من المبيض تذهب إلى نفس المنطقة ، الوريد الأيمن إلى الوريد الأجوف السفلى ، أما الوريد الأيسر فيصب فى الوريد الكلوى الأيسر ، وأعصاب المبيض كذلك تأتى من الضفيرة الكلوية والضفيرة التى حول الأورطى البطنى ، كما أن المبيض يبعث بإشاراته وأخباره إلى الجهاز العصبى عبر العصب الظهرى العاشر .

من كل هذا يتضح بكل جلاء أن منشأ المبيض وتغذيته وترويته إنما تأتى من بين الصلب والترائب، تماما كما هو الحال بالنسبة للخصية . . . وسنشرح ذلك عند تعرضنا لتفسير قوله تعالى **﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب ﴾**[1] .

ويتكون المبيض من محفظة متينة تحيط به من كل جانب ، ما عدا فرجته التى تدخل وتخرج منها الأعصاب والأوعية الدموية واللمفاوية المغذية للمبيض ، وبداخل هذه المحفظة نسيج ليفى غنى بأوعيته الدموية يعرف بسداة المبيض . . أما لحمته فمكونة من أجسام كروية مختلفة الأحجام ، متفاوته فى درجة نموها . . وتعرف هذه الأجسام الكروية الشكل بالحويصلات المبيضية . . أو حويصلات (جراف) نسبة إلى الطبيب الذى اكتشفها . .

وتحتوى كل حويصلة على بويضة واحدة . . ويبلغ تعدادها فى الجنين أربعمائة ألف أو تزيد ، ولكن الآلاف منها تضمر وتموت فى فترة النمو ، حتى إذا بلغت المرأة المحيض لم يبق منها إلا بضعة آلاف فقط . . ينمو منها حويصلة واحدة كل شهر طوال حياة المرأة التناسلية فتخرج بويضة مرة فى الشهر . . فلا تزيد مجموع البويضات التى يفرزها المبيض فى حياة المرأة على أربعمائة بويضة . . وقد تقل عن ذلك . . !

(١) الآيات ٥ ـ ٧ من سورة الطارق .

أعلمت أين خلقنا ؟ ثم مم خلقنا ؟ ثم كيف تحولت سلالة الطين أو الماء المهين إلى نطفة فى قرار مكين ، وكيف تطورت النطفة إلى علقة ، والعلقة إلى مضغة ، والمضغة إلى عظام ؟ وكيف لم يكن بين مرحلة العظام واللحم إلا مسافة قريبة من الزمان ؟

لذا جاء العطف بالفاء فى قوله تعالى ﴿ فكسونا العظام لحما ﴾

وكيف بعد ذلك تحولنا إلى خلق آخر ، لقد قامت الخلايا بتكوين الأنسجة ، وقامت الأنسجة بعد ذلك بتكوين الأعضاء ، وقامت الأعضاء بتكوين الأجهزة . أليس هذا خلقا آخر نفخ الله فيه الروح؟ ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[1] .

أما آن لك أن تهتف معى قائلا : ﴿ فتبارك الله رب العالمين ﴾

عظمت بركته وجلت قدرته ، أما آن لك أن تهتف بلسان الحال والمقال قائلا : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ والخلق هنا بمعنى التقدير والتسوية ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى ﴾[2]

قوله -تعالى-:﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ :

هذا هو المصير المحتوم الذى لا مفر منه ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾[3] .

إن الإنسان لا شك خالع ثوب الحياة الدنيا إلى حياة باقية خالدة ..

فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء !

وما الجيل فى زمان إلا لبنة فى بناء !

وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء !

فسبحان من أوجب الوجود لذاته وكتب الفناء على جميع خلقه !

تالله لو عاش الفتى فى دهره ألفا من الأعوام مالك أمره
متلذذا فيها بكل نفيسة متنعما فيها بنعمة عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى بمبيت أول ليلة فى قبره

***

فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، فكل مخلوق يموت ولا يبقى إلا الله ذو العزة والجبروت : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾[4] .. ﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾[5] .

تأمل هذه الأيات وأعمل فيها الفكر . تجدها كلها قضايا كلية موجبة صدرت بكلمة (كل) فلا استثناء لأحد ... ولم تسبقها أداة نفى ، لتعلم أن هذه الدنيا لها أجل معلوم وموعد لا يتخلف .

---

(١) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .
(٢) الآيات ١ - ٣ من سورة الأعلى .
(٣) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ٣٥ من سورة الأنبياء .
(٥) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن .

وسبحان من يقول :

﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾(١) .

الإنسان آية من آيات الله تعالى

﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾(٢)

قال أحد العارفين بالله وهو يناجى ربه : (سبحانك ربى ! آمن بك المؤمن ولم ير ذاتك ، وجحدك الجاحد ووجوده فى ملكك دليل وجودك وعظمة ذاتك) .

قيل للإمام على رضى الله عنه : (متى كان الله ؟ فقال : ومتى لم يكن ؟ قيل له : فما الدليل على وجوده ؟ فقال : ومتى غاب ؟ سبحانه ! هو الأول فلا شيء قبله والآخر فلا شيء بعده والظاهر فلا شيء فوقه ، والباطن فلا شيء دونه . . . سبحانه ! علا : فقهر ، وبطن : فخبر، وملك : فقهر !) .

حقيقة الانسان

فى إحدى أمسيات شهر شعبان من عام أربعة وتسعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، كنت أطالع كتابا تحت عنوان . . (الطاقة الإنسانية) للأستاذ أحمد حسين ، فراعنى هذا الفصل الذى تحدث فيه عن نشأة الإنسان ، وعن الأسرار الإلهية البالغة التى احتوى عليها خلقه ، فأردت أن تشاركنى ـ أخى القارىء ـ فى هذا الجلال الذى يأخذ بذوى الألباب الباصرة ، وأولى الأفئدة المستنيرة إلى محراب الخشوع للخالق العظيم جل جلاله . .

فمن نحن :

إليك ما قاله العلم الحديث فى الإجابة عن هذا السؤال :

نشأة الإنسان : ـ

ينشأ الإنسان منذ كان إنسانا كأى حيوان آخر : من بويضة يفرزها مبيض الأنثى الذى يوجد به حوالى (٣٠٠,٠٠٠) بويضة ، تصل منها أربعمائة إلى مرحلة النضج ، وتتناهى هذه البويضة فى الصغر إلى حد أن عشرين مليون بويضة لا يزيد وزنها على أوقية !!

اما الحيوان اللازم لإخصاب البويضة فإن حجمه لا يزيد على (١/٨٠٠) من البويضة ، وقد قرب لنا عالم بيولوجى أمريكى (وهو هـ . مولر) نسبة حجم الحيوان المنوى إلى البويضة ، ونسبة الاثنين إلى الأحجام المألوفة على الوجه التالى : ـ

لو أنك جمعت بويضات جميع البشر البالغ عددها (وقت كتابة العالم لكتابه) بليونا ومائتى ألف بويضة ، لما شغلت أكثر من (٨/٥) من الجالون .

أما نفس العدد من الحيوانات المنوية فحجمها لا يزيد على نصف قرص من الأسبرين ! ! والمعروف أن البليون : ألف مليون .

---

(١) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة غافر .

(٢) الآية ٤ من سورة التين .

التلقيح : -

ويمضى العلم فى كشف هذه الأسرار فيقول :

وتبدأ البويضة رحلتها من مبيض الأنثى لتقابل الحيوان المنوى المنتظر لإخصابها فى وقت الحيض ، حيث ينفجر الكيس المشتمل على البويضة ، ثم تبرز البويضة فى غشاء بوق فالوب ، فتنقلها الأهداب المتحركة للغشاء (السيليا) إلى داخل الرحم .

فى هذه المرحلة تكون نواة البويضة قد تعرضت لتغير هام . . اذ تكون قد قذفت بنصف مادتها ، او بعبارة أخرى كل كروموزوم ، وعندئذ يخترق الحيوان المنوى (الذى يكون بدوره قد فقد نصف كروموزوماته) اسطح البويضة ، ويتحد القسم الباقى من كروموزوماته بما بقى من كروموزومات ، مكونين بذلك مخلوقا جديدا مؤلفا من خلية واحدة ، طفحت فوق مخاط المهبل ، وليست هذه الخلية الجديدة سوى نقطة من الهلام ، كأى خلية أخرى ومع ذلك : فإنها تختلف كل الاختلاف عن أبويها .

إن فيها صفات الأم وفيها صفات الأب ، بل فيها كل الأمراض الوراثية للزوجين وأسلافهما ، ومع ذلك فهى شىء مستقل الشخصية كل الاستقلال عن الأبوين .

هذه الخلية الميكرو سكوبية الأولى : هى الإنسان الخلية . . إنها كتاب الكون بكل ما خط فى هذا الكتاب من أقسام وأبواب وفصول وصفحات وسطور وكلمات وحروف .

وحسبنا أن نتابع تطور هذه الخلية حتى تكون بشرا سويا ، ليتحقق لنا مصداق ذلك . إذ أن من الخلية الأولى تبدأ رحلة الإنسان .

رحلة الإنسان فى الخلايا :

إن هذه الخلية الواحدة لا تلبث أن تنقسم إلى خليتين متلاصقتين ، تنقسمان بدورهما إلى أربع ، فثمان ، فست عشرة ، فاثنتين وثلاثين . .

وعند هذا القدر من الانقسام ، ينتهى الدور الأول من أطوار الجنين ، الذى يؤلف من نفسه فى هذه المرحلة كرة مجوفة مملوءة بالماء من داخلها ، ومغمورة بالماء من الخارج ، فهو الحياة على صورة النقطة العائمة فى الماء .

وتستأنف عملية الانقسام نشاطها طورا بعد طور ، ومرحلة إثر أخرى ، فإذا الجنين تارة وقد أصبح تكوينه أكثر ما يكون شبها بالدودة (العلقة) وتارة أقرب منها إلى السمكة .

والذى يهمنا أن نشير إليه أن الجنين فى ختام الشهر الثانى يكون حجمه قد تضاعف ملايين من المرات ، لقد أصبح طول حجمه يناهز البويضة ، وقد بدأ خلق الأعضاء وسائر الأجهزة ، وأصبح أقرب ما يكون فى التكوين الى الضفدعة .

وفى الشهر الثالث : وإذ نكون قد وصلنا الآن إلى الشهر الثالث ، فقد أصبح وزن الجنين أكثر من أوقية ، وطوله أكثر من ثلاث بوصات ، وكل الأعضاء والأجهزة والأنسجة موجودة ، حتى الأعضاء التناسلية والأذرع والأرجل والأظافر قد تكاملت .

وفى الشهر الرابع :

وفى الشهر الرابع يهز الجنين الأم بحركاته الأولى التى تتزايد بعد ذلك فى اطراد .

وفى الشهر السادس حتى الخروج :

فإذا كان الشهر السادس : فقد أصبح طول الجنين ٣٠ سنتيمترا ، ووزنه ثلثى كيلو جرام ، وبعد (٢٥٢) يوميا ، اى:فى أواخر التاسع : يكمل نمو الجنين ، ويصبح مهيأ للخروج من الجنة التى كان يعيش فيها ، حيث يأتيه رزقه رغدا فى كل وقت وآن ، بدون جهد أو آلام . .

ويقذفه الرحم خارج الجسم ! !

إنه لم يعد بعد الآن جنينا . . إنه طفل الانسان .

ولما كان الطفل يخرج لأول مرة من المائع الذى كان يعيش فيه ، يتغير المحيط من حوله ، ويصطدم بالهواء الجوى لأول مرة ، وهو ينفذ إلى رئتيه ، فيصرخ الطفل من الألم صرخة الحياة ، وإعلانا عن بدء مرحلة جديدة من معارك الحياة الظاهرة بعد انتهاء المعركة الباطنة بالانتصار .

مولد الجنين : وعندما يولد الجنين : فإن وزنه فى العادة $\frac{3}{4}$ ٢ أو ٣ كيلو جرامات وطوله حوالى ٤٨ سنتيمترا .

وقد حان الآن أن أذكرك أن هذا الحجم الضخم : قد بدأ من هذه البويضة التى كانت (٠٠٠,٠٠٠,٢٠/١ من الأوقية . . أى أنها تضاعفت ألوف الملايين من المرات ، ولكى تعرف مدى هذه النسبة التى كانت خلايا الجنين تنمو بها وتتكاثر نقول :

لو فرضنا أن هذا النمو استمر بهذه النسبة عشرين سنة أخرى : لأنتج حجما أضخم من المجموعة الشمسية ، أى:جسما قطره ملايين الأميال ، ولو ظل يتكاثر بنفس النسبة بضع عشرات أخرى من السنين لزاد على المجرات حجما ، ولزحم الكون الذى نعرفه ، ولكن الحياة لا تمضى فى النمو على هذه الوتيرة ، فهى لا تلبث أن تقف بمجرد وصولها إلى حد وصورة معينين .

أشكال الخلايا المختلفة :

انقسمت هذه الخلية الأولى لتكون (٢٦) مليون خلية ، وكل خلية من هذه الخلايا تقوم بدور يختلف عن دور كل خلية أخرى ، وتتشكل تبعا لذلك تشكلا خاصا يمكنها من أداء دورها الخاص .

كيف أن هذه الخلية الأولى التى لا يستطيع الفحص الدقيق أن يفرق بينها وبين خلية السمكة الأولى ، أو الخلية الأولى لأى حيوان ، تبدأ عند مرحلة معينة فى سلم النمو ، فيتحول شكلها بحيث تصبح مثمنة او نجمية أو خيطية أو مستديرة ، أو على شكل البسكويت ، أو المكعبات أو العصى أو العناكب ، أو على شكل القوس او متفرعة كالشجرة .

فكيف تفرز هذه الخلايا اسمنتا لتربط ، أو سائلا ليتجول فيه بحرية أو تغير مادتها لتصبح غضروفية ، أو جيرية لتكون عظاما ، أو تمعن فى الصلابة لتكون ميناء الأسنان ، ويتحول بعضها إلى زجاج شفاف ، والبعض يصبح معتما كالحجر ، بعضها لا لون له ، ونوع أحمر وآخر أسود ، خلايا تغص بالتفاعلات الكيميائيةالنائرة ، كما لو كانت مصانع وخلايا خامدة ، كما لو كانت ميتة . . خلايا تمثل آلات الجر الميكانيكى ، وخلايا تقوم بدور الدعائم التى تدعم أى بنيان ، البعض يصبح نظاما لاعطاء الإشارات الكهربائية ، والبعض جهاز للإسعاف والنجدة ، وما من خلية من ملايين الملايين هذه إلاّ وتعد نفسها بالحجم المطلوب فى الوقت المحدد ، والمكان الواجب أن تكون فيه لأداء الوظيفة

المقررة فى العضو الذى لن يستعمل إلا بعد فترة معينة ، وفى ظروف معينة :

إنها تعمل فى الظلام لإنتاج الإبصار الذى يعمل فى النور .

إنها تعمل - فى صمت - جهاز السمع الذى يتأثر بالأمواج الصوتية .

إنها خلايا عمياء لا تعرف فوقا ولا تحتا .

ومع ذلك : فإن خلية الأعصاب تعرف طريقها نحو خلية اللمس فى نهاية الأصبع لتتصل بها ! !

إن كل شىء يبدو كما لو كانت كل خلية تنطوى على مبدأ يلهمها المعرفة اللازمة لتنفيذ تصميم معين على ما يقول (شرنجتون) .

بقاء الجسم عند (كاريل) : .

أما (كاريل) فيقرب لنا صورة ما يحدث فى بناء الجسم ، بأن يطلب منا أن نتخيل (طوبة) واحدة تسرع فى بناء منزل بمفردها ، فتكون من نفسها قوالب أخرى من الطين بالألوف والملايين ، وهذه القوالب لا تنتظر رسومات المهندس المعمارى ، أو مجىء البنائين والفعلة ، ولكنها ترص نفسها بنفسها صانعة البلاط ، ومكونة الجدران ، ومتحولة إلى أبواب ونوافذ وزجاج لهذه النوافذ ، والواح للسقف ، وفحم للتدفئة ، وبناء المطبخ والحمام .

وينمو العضو بوسائل أشبه بتلك ، إنه يوجد بواسطة خلايا عاملة سلفا بالبناء الذى يجب أن تنسقه فى المستقبل ، فتصنع من المواد الموجودة فى بلازما الدم : مواد البناء ، بل وتصنع العمال انفسهم .

واستطرد حديث العلم حتى وصل بنا إلى تكوين العين ، فما هو ذلك الجهاز الدقيق الذى يبصر به الإنسان الكائنات المرئية ؟ !

اسمع - ياأخى - إلى هذا العجب العجيب ، واسجد لله فى محراب الشكر والعرفان والخضوع والولاء . . . هو الذى احسن كل شىء خلقه . . إنه صنع الله وإتقانه :

تكوين العين :

يقول العلماء الكونيون : من مخ الجنين ينشأ برعم صغير ، هو الذى يتكون منه الجزء الاكبر من العين ، ومن الجلد الذى يغطى هذا البرعم ، ينشأ القسم الثانى . . . . هكذا تتعاون خلايا المخ والجلد لتكوين كرة العين المقبلة !

وكرة العين ليست فى طبيعتها إلا آلة تصوير صغيرة (إذا جاز لنا أن نعكس التشبيه) ، وصغر آلة تصوير العين ، هو آية كمالها ودقتها،والدقة التشريحية هنا ضرورية لإمكان أداء وظيفة الإبصار بأكثر من ضرورتها فى أى عضو آخر .

إن العين تكون فى الظلام ، ومع ذلك فكل شىء فيها معد لاستقبال النور ، ويوم أن تتعرض للنور ، فإن أشعته سوف تخترق عدسة أعدت لذلك فى المكان الذى يجب أن تكون فيه ، وبالشكل اللازم لتحقيق الغرض المطلوب ، وهو الإبصار ، فهى (أى:العدسة) محدبة من الوجهين ، وهى معدة بمنتهى الدقة لجمع أشعة الضوء فى البعد الواجب عن لوح الخلايا الحساسة للصورة شبكية العين فى المؤخرة .

تدرج عدسة العين :

وقد صنعت هذه العدسة المحدبة الوجهين من خلايا الجلد ، ولكن بعد أن تحورت لتكون زجاجا شفافا ، وأعدت بحيث يكون بقدرتها أن تركز الضوء عبر بؤرتها . . هذا الضوء الذى لن تتعرض له العين إلا بعد بضعة أشهر !

وأمام هذه العدسة يقوم حاجز على شكل قرص مستدير للضبط (القزحية) كما هو الشأن فى أى آلة تصوير أو ميكرسكوب ، وذلك ليضبط اتساع حزمة الضوء الواجبة لاتمام عملية الإبصار ، فحيث يقل الضوء : يجب أن تتسع هذه الحدقة لتسمح بمرور حزمة ضوئية أكبر ، إما إذا زاد الضوء واشتد فإن حزمة صغيرة منه تكفى لأداء الغرض . ومن هنا تضيق الحدقة .

وفى آلة التصوير أو المجهر ، يتم ضبط هذا القرص بواسطة المراقب أو العامل على الآلة ؟ أما فى العين البشرية ، فإن ذلك يتم بطريقة آلية بحتة كأثر مباشر لشدة ضوء الشىء المراد رؤيته .

ولأمر ما : شاء الله أن يجعل هذه القزحية الغينية ذات ألوان مختلفة تتدرج من الأسود إلى الأزرق . . فالعسلى ، تبعا للون قزحية الأبوين ، وكلاهما ملىء بسائل شفاف لا يعدو أن يكون ماء ، ولكنه محفوظ فى درجة ضغط معينة ، ليحفظ على كرة العين شكلها الذى يجب أن تكون فيه .

وتكمل الغرفة الأمامية بطبقة من الجلد التى تحولت بدورها إلى زجاج شفاف ، لتكون نافذة للعين ، وهى ما نطلق عليها اسم القرنية ، وهذه القرنية خالية تماما من الأوعية الدموية ، حتى لا يلقى الدم ظله داخل العين ، فتحجب بعض عناصر الصورة .

ويغطى هذا اللوح من الزجاج الشفاف الحى ، بطبقة من الدموع المائية التى تتميز بقوة كيمائية خاصة لقتل أى جرثومة يمكن أن تلهب العين أو تؤذيها .

وإذا كان من خصائص جلد الانسان أن ينطوى على مظاهر الإحساس الأربعة ، (من حرارة ، وبرودة ، وضغط ، وألم) ، فإن هذه القطعة من الجلد الشفاف التى تكون نافذة العين ، ليس فيها إلا وجه واحد من وجوه الإحساس . . . ذلك هو الإحساس بالألم ، فلمسها يحدث الألم ، لأنها يجب ألا تلمس بحال من الاحوال .

ويتجمع الجلد فوق النافذة وتحتها مؤلفا أجفانا متحركة ، وهى جافة من الخارج كأى جلد عادى ، ولكنها رطبة من الداخل ، لكى يكون باستطاعتها دائما أن تنظف النافذة من ذرات الأتربة ، أو أى جسم غريب قد يقع عليها ، وذلك بإمرار طبقة من الدموع المائية فوقها .

صنع الله الذى أتقن كل شىء :

كل ذلك ونحن لم نصل بعد للبناء الرئيسى للعين الذى يقع فى مؤخرتها ونعنى به شبكية العين ، هذه اللوحة الحساسة للضوء ، والتى يسجل على صفحتها ملايين الملايين من الصور مدى الحياة كلها بدون حاجة إلى تغيير اللوح كل صباح أو مساء . بل بدون تغيير على الإطلاق ، فقد يبدأ الطفل عملية البصر ، إلى أن يكون شيخا هرما قادرا على الإبصار .

ومع ذلك : فهذه اللوحة الحساسة لا تنفك تقوم بعملها ليلا ونهارا بغير انقطاع ، فتتلقى مختلف

الصور من كل لون وطراز ، وتبرق بها إلى المخ ، وتنظم هذه الآلة التصوير بطريقة آلية أبعاد بؤرتها تبعا للصورة التى يهمها التقاطها ، فتارة تكون العدسات أقوى أو أضعف ـ حسب الحاجة ـ فضلا عن أنها تحرك نفسها بطريقة تلقائية فى اتجاه المنظور ، فإن أجهزة العين تلاحقه لتقع الصورة دائما على أحسن نقطة للرؤية فى الشبكية .

سبحان المبدع :

وأخيرا فإن آلة التصوير هذه تصمم نفسها كما لو كانت تعمل مقدما على حفظ ذاتها . . . فلو هددها اى خطر ، ففى أقل من جزء من الثانية تنطبق الأجفان على بعضها ، لتحمى نافذة العين الشفافة ! ! وفى نفس الوقت الذى تكون فيه كرة العين آخذة فى التكوين ، فإن أجزاء أخرى من المخ والجلد تكون منشغلة بإعداد كأس العين الذى ستستقر فيه ، ولا يكاد البناءان يتكاملان حتى تنفصل كرة العين من الأصل الذى تكونت منه لتستقر فى كأسها البصرى الجديد .

وفى غضون بضعة أسابيع ينشأ فى قاع هذا الكأس البصرى : حبل مؤلف من ملايين الألياف العصبية ، التى تربط بين المخ والخلايا العصبية فى العين .

وينتشر على شبكية العين (٣٧) مليون عنصر مستقل ، تعمل كلها لجعل عملية الإبصار ممكنة ، وتظل هذه العناصر والأعصاب التى تنقل المؤثرات المختلفة إلى المخ تتركز وتتركز حتى يصبح عددها لا يتجاوز المليون إلا بقليل ، وما من عصب فى هذا المليون إلا ويعرف مكانه إلى مجمع الأعصاب المناسب ، وهى هذه المحطات التى توصل كل منها إلى محطة أبعد منها .

والمخ فى حقيقته هو غابة كثيفة متشابكة فى محطات التبادل والخطوط الفرعية الذاهبة إلى هنا وهناك ؟ !

وليست العين ـ فى نهاية الأمر ـ سوى حشد من هذه الخلايا الهلامية بتأليف باقى أجزاء الجسم الأخرى ، ولكنها نظمت نفسها كما لو كانت هى التى تعمل متعاونة باتفاق مشترك على تنفيذ الخطة الموضوعة ، حتى إذا تم تكوين العين : فإن هذه الخلايا التى ظلت تعمل وتنقسم وتتخصص :

تقف فجأة عند حد ما أنجزته ، فلا تزيد عليه ، وتقع فى سبات نسبى ، فلا تزيد أو تتكاثر أو تتغير .

وقد يتصور القارىء ذلك الذى وصفناه ضربا من الخيال الفج ، أو القصص البارع ، ومع ذلك فإن هذا الذى قلناه هو حق لامرية فيه . . إنه الواقع العجيب الذى يحدث إبان تكوين أعضاء الإنسان وأجهزته المختلفة . . .

فسبحان ربى العظيم ! !

القلب ووظيفته

يحدثنا القرآن الكريم ، عن القلب على أنه مركز الوعى والإدراك والفهم العميق ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب** ﴾[1].

---

(١) الآية ٣٧ من سورة ق .

وقوله جل شأنه : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ (١)

وهناك حديث مادى للعلم يشرح لنا فيه (القلب) على أنه مضخة ماصة كابسة ، ومع ذلك فلا يكاد العلم يصف لنا هذه المضخة حتى يتملكنا العجب مما يتملكنا ، لو نصفه بمستودع الإلهام والحكمة والعواطف . . . إجلالا وإكبارا وتعظيما لله ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، إنه صنع الله الذى خلق كل شىء فقدره تقديرا .

فقد ثبت بالتشريح ووصف الدور الذى يؤديه القلب للإبقاء على الحياة ما يفوق كل تصور وإدراك . .

إن القلب يمثل الحركة الدائمة ، ما بقى الإنسان حيا . . فهو الذى يدق ، يدق فى النوم مثل ما فى اليقظة ، وفى المرض مثل ما فى الصحة وهذه (الدقة) تعنى أن القلب ـ ذلك الجهاز العجيب ـ يقوم بوظيفته الكبرى للإبقاء على حياة الإنسان ، فيضخ الدم فى الشرايين ويستجلبه من الأوردة .

فلو عاش الإنسان ستين عاما أو تسعين ـ أو أكثر من ذلك أو أقل ـ فإن قلبه لا يتوقف عن الضخ دقيقة واحدة ، بل ولا لبضع ثوان . . ومعنى ذلك فإن القلب إذا كان يضخ فى المتوسط سبعين ضخة ، (أو دقة) فى الدقيقة فإن ما يضخه (أو يدقه) فى العام (٣٧) مليون دقة فلو أن رجلا عاش إلى السبعين من عمره ، فإن ذلك يعنى ان قلبه قد دق ـ أو بالأحرى قد ضخ الدم (٢٥٩٠) مليون مرة فى اتصال عجيب عبر هذا الزمان الطويل !

فإذا علمت أن أية آلة لا تستطيع العمل بدون انقطاع إلا بضعة أيام على الأكثر ـ ولابد دائما من تعهدها بالصيانة والإصلاح والرعاية ، استطعت أن تدرك أى إعجاز آلى يعنيه قلب الإنسان ! !

والقلب يضخ فى الضخة الواحدة ستين سنتيمترا مكعبا من الدم ، أى يملأ فنجان شاى فى كل دقيقة ، ومعنى ذلك أنه يضخ (٣٠٠ لتر من الدم فى الساعة ، أى نحو (٨) آلاف لتر فى اليوم ، وهو ما يساوى (٨) أمتار مكعبة (أو ما يساوى ١٥ طنا من الدم فى اليوم الواحد) لا يستهلك منها لنفسه إلا شيئا يسيرا جدا . . ومع ذلك فإن هذا القلب لا يزيد وزنه على نصف رطل فى المتوسط ولا يزيد عرضه على (٣ ½) بوصة وطوله خمس بوصات ، وسمكه بوصتان ونصف !

فأى سر إلهى عظيم اشتملت عليه هذه الكتلة التى تقوم بهذه الأعمال الحادة ، والتى تعجز آلات فى حجم الجبال أن تقوم بها ؟ ! !

إنه صنع الله الذى اتقن كل شىء ! !

الجهاز العصبى

وينتقل بنا حديث العلم إلى الجهاز العصبى . . ذلك الذى تحار فيه عقول المفكرين ، وتقف واجمة حياله عبقريات البارعين . . فسبحانك اللهم !

يامن يحار الفهم فى قدرتك ... وتطلب النفس حمى طاعتك
تخفى عن الناس سنا صنعتك ... وكل ما فى الكون من صنعتك !

---

(١) الآية ٤٦ من سورة الحج .

ماذا يقول العلم عن هذا الجهاز الدقيق المعجز ؟

يقول العلم : -

إذا كان القلب والدورة الدموية يوحدان الجسم ويربطانه برباط واحد بهذا الدم السائل ، فإن الجهاز العصبى هو الوسيط الكهربى الذى يدعم هذه الوحدة ويصونها ، بما لا يقل فى الأهمية عن دورة الدورة الدموية ..

فالإنسان يناضل فى سبيل بقائه عن طريق عقله ومخه وأعصابه بأكثر مما يفعل ذلك بجسمه .

والجهاز العصبى يتألف من جهازين يكمل كل منهما الآخر :

احدهما : واع موجه تتمثل فيه الإرادة الإنسانية ، وأهم أجزائه المخ .

الثانى : لا شعورى آلى ذاتى الحركة يعمل على ضبط مختلف أعضاء الجسم . وهو ما يسمى « الجهاز السمبثاوى » ! !

الجهاز المركزى

يتكون الجهاز الرئيسى ـ أو المركزى ـ من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل ويطلق على هذه الثلاثة اسم : الدماغ الذى يحتل الجمجمة ، ويبلغ وزنه فى الإنسان حوالى ثلاثة أرطال ، ثم النخاع الشوكى أو العمود الفقرى .

المخ

يقع المخ فى أعلى الدماغ ومقدمه ، ويشبه فى شكله نصف الكرة . . وينقسم المخ إلى قسمين : أيمن وأيسر ، بكل منها أربع قطع ، أو فصوص،واحد مقدمى ،وآخر جانبى من الخارج ، وثالث : جانبى من الداخل ورابع مؤخرى .

وتتكون مادة المخ من مادة ناعمة هَشة تتألف من طبقتين :

١ ـ إحداها : عليا سمراء اللون ، عمقها نحو ٤ ملليمترات ، وتسمى اللحاء ، وتكثر بها الخلايا العصبية والتلافيف والحفر التى يبلغ عمق إحداها بوصة .

٢ ـ الطبقة الثانية : داخلية بيضاء ، وتكثر بها الألياف العصبية التى توصل خلايا اللحاء بعضها ببعض ، وتحتوى المادة المخية ـ على ما يقال ـ على أكثر من (١٢,٠٠٠) مليون خلية وتتصل هذه الخلايا إحداها بالأخرى بواسطة ليف عصبى ، ولكل ليف عدة فروع .

وتتصل الخلايا ببعضها عدة آلاف الملايين من المرات بواسطة هذه الألياف .

وهذه الكومة الهائلة من الخلايا الدقيقة والألياف غير المنظورة ، تعمل بدقة متناهية ، كما لو كانت خلية واحدة ، برغم تعقدها الذى لا يمكن تصوره .

والمخ هو المسيطر على المراكز الفعلية ، والمسئول عن الأعمال العقلية العليا ، ومصدر الأعمال الارادية . . . فهو الذى يتسلم الرسائل الحسية من جميع أجزاء الجلد ، ومن أعضاء الحس .

وبهذه الطريقة تظل الأوساط العصبية على اتصال دائم بالعالم الخارجى ، والمخ هو الذى يرسل الاشارات الحركية إلى العضلات عن طريق الأعصاب المحركة وتسمى الألياف العصبية التى تحمل الرسائل من الحواس الى المخ : أعصاب الحس أو الأعصاب المرسلة . أما الألياف التى تنقل الرسائل منه الى

العضلات ، فتسمى ، أعصاب الحركة ، او الأعصاب المرجعة ، وهناك ألياف أخرى توصل المراكز والخلايا العصبية بعضها ببعض وتسمى (الروابط) .

وتقدر سرعة التيار الذى يحمل الرسائل من المخ وإليه - عن طريق الأعصاب - بنحو ثلاثين مترا فى الثانية الواحدة .

وإذا قورن المخ البشرى بالمخ الالكترونى ، فإنه يوازى مخا يحتوى على الأقل ١٥,٠٠٠ مليون أنبوبة الكترونية .

وقد أجرى هذه المقارنة الدكتور (جوهانس شالريه) عالم الأبحاث البيولوجية فى معهد كاليفورنيا التكنولوجى ، الذى يؤكد ان المخ البشرى يحتوى على ١٥,٠٠٠ الف مليون خلية عصبية كل خلية منها تعمل بقوة واحد على ألف مليون من (الوات) **وعندما** يؤدى المخ عمله ويولد تيارات كهربائية مباشرة ومتغيرة ، فإنه يعمل بقوة تتراوح بين واحد على ألفين ، وواحد على (٢٠٠) ألف من الفولت ، بذبذبة تتراوح بين (٨) إلى (١٤) سيكل فى الثانية ! !

مراكز الإحساس والحركة بالمخ

واللحاء ، أو قشرة المخ وسطحه ، هو مركز الاعمال الفكرية ، كما أسلفنا ، وقد توصل العلماء منذ أوائل القرن العشرين إلى تحديد مناطق خاصة فى اللحاء يتحقق بها الادراك لمختلف الحواس ، وتنبعث منها الحركة إلى سائر أنحاء الجسم .

أقسام مراكز المخ : وقد قسمت مراكز المخ ومناطقه إلى ثلاث :

١ - حسية ٢ - حركية ٣ - مشتركة

فأما الحسية : فتشمل مراكز السمع ، والبصر ، والذوق والشم والحس .

وأما الحركية : فهى التى تصدر منها أعصاب الحركة الموصلة للأعضاء : كاليد والرجل ، والوجه ، والعنق ، واللسان .

ويدخل فى هذه : مراكز للشعور بحركة الجسم .

وأما المراكز المشتركة : فهى التى تحتفظ بآثار المراكز السابقة ، وتنتفع بها فى الفكر والتخيل والتذكر .

ويقع مركز البصر فى مؤخر اللحاء من أسفل . وخلف مركز الذوق يقع مركز السمع ، ويقع فوق الأذن تقريبا .

وبين مركزى البصر والسمع : مركز الكلمات المرئية ، والكلمات المسموعة : كل بجانب المركز الذى يلائمه .

ومركز الأفكار السامية فى أعلى المقدم إلى الأمام ويقع خلفه مركز الكتابة ، فمركز الكلام .

وفى الجهات الباقية من أعلى اللحاء وأوسطه : تقع مراكز الحركة والإحساس العضلى ، والشعور بحركات الجسم ، على هذا الترتيب : من الأمام إلى الخلف .

ويقع مركز حركات الرأس إلى الأمام . وخلفه مركز حركات الرجل واليد والوجه : على الترتيب من أعلى إلى أسفل .

وتحت مركزى حركات الرأس والوجه : يقع مركز حركات اللسان والشفتين .
وهذه المراكز تقع فى كل من جانبى المخ .
ولكن مراكز الجانب الأيسر هى مراكز الحس والحركة للقسم الأيمن من الجسم وبالعكس .
وقد أمكن التوصل لمعرفة هذه المراكز عن طريق التجارب التى دلت على أن أى خلل يحصل لأحد هذه المراكز : يستتبعه - على الفور - حدوث شلل فى العضو المتصل به . وضربة شديدة على مركز الكلام مثلا ، تسبب تعقدا دمويا قد يمنع المريض عن الكلام حتى يذهب هذا التعقد .
ومع عدم القدرة على الكلام يظل الشخص المصاب يسمع ويرى ويكتب ما يريد ، إذا لم تكن مراكز السمع أو البصر أو الكتابة قد أصيبت بأذى .

المخيخ

يقع المخيخ : تحت المخ . وفوق النخاع المستطيل وخلفه . وفى أسفل مؤخرة الجمجمة ، ويتكون - مثل المخ - من طبقتين .
طبقة سطحية سمراء اللون تكثر بها الخلايا ، وبها قليل من التلافيف .
وطبقة داخلية بيضاء اللون ، وتكثر بها الألياف العصبية .
وينقسم (المخيخ) إلى ثلاثة فصوص . واحد فى كل جانب والثالث فى الوسط ، وهو أصغر من الأولين ويسمى بالدودة .
ومهمة المخيخ أن يقوم بمساعدة المخ : بضبط العضلات وتنظيم حركاتها لكى تحفظ توازن الجسم . فإذا حصل خلل فى المخيخ : اضطربت حركات الشخص وسكناته ، وراح يتمايل تمايل الثمل ويؤدى المخيخ عمله بطريقة آلية بحتة . . ولا يتدخل المخ فى شئونه إلا عند الحركات الإرادية الشعورية : كتعلم المشى للطفل .

النخاع المستطيل

ثم يأتى النخاع المستطيل ، وهو فى الحقيقة امتداد للنخاع الشوكى بحيث يمكن اعتباره جزءا منه .
ويملأ الجزء الواقع أمام المخيخ وتحته فى أسفل الجمجمة وتحت المخ .
ويتكون - على عكس المخ والمخيخ - من مادة بيضاء اللون بداخله . . أما الألياف : فتكثر فى طبقته الخارجية .
ويقوم النخاع المستطيل بتنظيم الحركات الآلية الداخلية كالدورة الدموية ، وعملية التنفس ، والهضم ، ويساعد النخاع المستطيل : (العصب السمبتاوى) فى القيام بوظيفته .

النخاع الشوكى

يملأ القناة الشوكية التى فى العمود الفقرى ، ويتألف من مادة تسمى (النخاع الشوكى) ومن الممكن اعتباره أغلظ عصب فى الجسم ويبلغ طوله نصف متر .

ويتكون ـ مثل النخاع المستطيل ـ من مادة بيضاء سطحية ، وأخرى سمراء داخلية ، فخلاياه العصبية فى الداخل وأليافه فى الخارج ، إلا أن المادة السمراء الداخلية تقل بالتدريج حتى تنعدم فى الثلث الأسفل .

وتخرج من كل من جانبى النخاع الشوكى : أعصاب تذهب إلى جميع أجزاء الجسم فتوصله بالمخ والحواس والعضلات ، ووظيفة النخاع الشوكى : هى القيام بالأعمال المنعكسة ، مما سنتحدث عنه فى الفصل التالى إن شاء الله .

الأعصاب

وتكون الأعصاب : الجهاز الدائرى للجسم ، والعصب : مجموعة من الألياف العصبية المتفرعة من خلايا مختلفة .

وتنقسم الأعصاب إلى ثلاثة أقسام ، وهى :

١ ـ **أعصاب حس** : أو أعصاب مرسلة : وهى التى تحمل الآثار من الحواس وباقى الجسم إلى المراكز العصبية العليا أو السفلى .

٢ ـ **أعصاب الحركة** : أو أعصاب مرجعة : وهى تنقل الرسائل من المراكز العصبية إلى العضلات ، فتقوم هذه بعملها حسب إشارة المراكز العصبية .

٣ ـ **أعصاب مشتركة** : أو وصلية : وهى التى توصل المراكز العصبية بعضها ببعض ، أو تقوم مقام أعصاب الحس والحركة ، وقد تكون الرسالة التى عملها : رسالة من مركز إحساس وقد تكون من مركز حركة .

وهذه الأعصاب كلها متصلة بالمجموعة المركزية ، أى:الدماغ والنخاع الشوكى . ولذلك : فهى تنقسم إلى قسمين : قسم دماغى ، وقسم شوكى،أما الأعصاب الدماغية : فيخرج بعضها من المخ ، والبعض الآخر من النخاع المستطيل ، ثم تذهب إلى الحواس والعضلات وأما الأعصاب الشوكية فتخرج من النخاع الشوكى خلال ثقوب على جانبيه واقعة بين الفقرات .

وهذه الأعصاب تذهب إلى الجلد والحواس والعضلات : ففروع الحس تذهب إلى الجلد والحواس ، وفروع الحركة تذهب إلى العضلات لتأمرها بالحركة عند الطلب .

الجهاز العصبى ، الآلى أو السمبتاوى

وإلى جوار الجهاز العصبى الرئيسى أو المركزى ، يقوم الجهاز العصبى الآلى ، وهو الذى يمكن كل عضو من أعضاء الجسم الداخلية من التعاون مع الجسم كل فى معاملاته مع العالم الخارجى .

ويتكون هذا الجهاز من عقد عصبية ممتدة على جانبى العمود الفقرى ، وكل عقدة تتصل بما فوقها وبما تحتها من أعصاب ، بحيث تكون هذه العقد والأعصاب ما يشبه حبلين معقدين ممتدين على جانبى العمود الفقرى ، ثم يلتقيان على مقربة من أسفل العمود الفقرى ، ويكونان حبلا واحدا أو سلسلة واحدة ، وتتصل الأعصاب الشوكية بهذه العقد بعد خروجها من النخاع الشوكى بقليل ، وترسل هذه

العقد خيوطها وأليافها إلى الأعضاء الباطنية : كالقلب والرئتين والكبد والكليتين .

ويطلق على الأعصاب السمبتاوية أو الآلية لمناطق الرأس والحوض : اسم (بارا سمبتاوية) . أما تلك الخاصة بالظهر فتسمى (السمبتاوية)

ويتلقى كل عضو من أعضاء الجسم تأثيرين مختلفين من هذين النوعين من الأعصاب فى وقت واحد .

(فالباراسمبتاوية) تبطىء القلب ، فى حين أن السمبتاوية تزيد من سرعته ، والأولى تمدد حدقة العين ، بينما تسبب الأخيرة تقلصها،وهكذا : وتبعا لسيطرة أحد هذين الجهازين والآخر ، تكتسب المخلوقات الحية أمزجتها المختلفة .

ودورة كل عضو خاضعة لتنظيم هذه الأعضاء .

فالأعصاب (السمبتاوية) تحدث ضيق الشرايين واصفرار الوجه ، كما يلاحظ عند الانفعال وعند الإصابة بأمراض معينة .

سيطرة الجهاز العصبى على الجسم

بهذين الجهازين العصبيين : (المركزى ، والسمبتاوى) تتحقق للانسان ـ بإذن الله تعالى وإرادته ـ سيطرته الكاملة على جسده .

تبارك الله أحسن الخالقين

هذا هو الإنسان ، الذى إن دل خلقه على شىء ، فإنما يدل على وجود الله ووحدانيته وعلمه وإرادته وقدرته !

تباركت ربنا وتعاليت ! !

يامن قلت وقولك الحق :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾

ثم ماذا . . . ؟

﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾

وماذا بعد الموت ، برزخ وبعث **﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾** .

ومن هنا : فسوف يدور حديثنا حول مرحلة الانتقال من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة . . من عالم الفناء إلى دار البقاء . .

ونعنى بمرحلة الانتقال : مرحلة ما بعد الوفاة إلى أن تقوم الساعة ، وهو ما يسميه علماء العقيدة : بعالم (البرزخ) الذى صرحت به الآية الكريمة : ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾[١] .

ونبدأ الكلام بما يسن فعله للمحتضر ، وهو الذى أوشك أن يسلم الروح إلى خالقها ، ليضع قدمه على عتبة الآخرة .

فما هى هذه السنن ؟

ها نحن أولاء نبينها على الوجه التالى :-

يسن عند الاحتضار مراعاة السنن الآتية :

أولها : تلقين المحتضر : لا إله إلا الله . لما رواه مسلم وأبو داود والترمذى عن أبى سعيد الخدرى -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله)[٢] .

والمقصود (بموتاكم) هنا : المحتضرون ، الذين هم فى سياق الموت من المسلمين .

وروى أبو داود وصححه الحاكم عن معاذ بن جبل -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ: (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)[٣] .

والتلقين : إنما يكون فى حالة ما إذا كان لا ينطق بلفظ الشهادة ، فإن كان ينطق بها ، فلا معنى لتلقينه ، والتلقين : إنما يكون لحاضر العقل القادر على الكلام ، فإن شارد اللب لا يمكن تلقينه ، والعاجز عن الكلام يردد الشهادة فى نفسه .

قال العلماء : وينبغى ألا يلح عليه فى ذلك .

﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب** ﴾[٤] واجعلنا من الذين تقول فيهم : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[٥] .

ولو علم المسلمون ما لكلمة التوحيد من مثوبة عند الله ما غفلوا عنها ولأضاءوا قلوبهم بنورها واستناروا بضوئها .

وحسبنا أن نقول: إنها الكلمة الطيبة التي جاءت فى قوله تعالى : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء. تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها** ﴾[٦] .

إنها كلمة الله التى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ **وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم** ﴾[٧] .

إنها كلمة التقوى ، التى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين**

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة المؤمنون .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنائز : وأبو داود فى الجنائز : ١٦ . والترمذى فى الجنائز : ٧. والنسائى فى الجنائز : ٤ . وابن ماجه فى الجنائز : ٣. والإمام أحمد فى ٣ : ٣.

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : وأبو داود فى الجنائز : ١٦. والإمام أحمد فى ٥ : ٢٢٣ ، ٢٤٧ .

(٤) الآية ٨ من سورة آل عمران .

(٥) الآيات ٦٢- ٦٤ من سورة يونس

(٦) الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ من سورة إبراهيم .

(٧) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾[١] .

إنها اللواء الذى عمل الأنبياء جميعا لرفعه . . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٢] .

إنها الراية التى عاش فى ظلها الأنبياء والمرسلون : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾[٣] .

إنها الكلمة التى أضاءت سيناء وما حولها : ﴿ وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدىً . فلما أتاها نودى ياموسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك ، إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله ، لا إله إلا أنا ، فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى ﴾[٤] .

وقد ورد فضل لا إله إلا الله : فى كلام النبى ﷺ فعن أبى هريرة-رضى الله-عنه قال : قلت: يارسول الله (من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ:لقد ظننت ياأبا هريرة ألا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث : أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال:لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه)[٥] . رواه البخارى .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله،وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق . أدخله الله الجنة على ما كان من عمل) زاد عبادة:(من أبواب الجنة الثمانية شاء)[٦] رواه البخارى .

وفى رواية لمسلم عنه أيضا : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله : حرم الله عليه النار)[٧] .

وعن أنس-رضى الله عنه-أن النبى-صلى الله عليه وسلم-ومعاذ ردفه على الرحل ، قال : (يامعاذ ابن جبل . قال:لبيك يارسول الله وسعديك (ثلاثا) قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار .

قال يارسول الله أفلا اخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال : إذن يتكلوا ، وأخبر بها معاذ عند موته تأثما)[٨] . رواه البخارى ومسلم ومعنى (تأثما) أى:تحرجا من الإثم وخوفا منه أن يلحقه إن كتمه .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة الفتح .

(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٢ من سورة النحل .

(٤) الآيات ٩ - ١٥ من سورة طه .

(٥) أخرجه البخارى فى العلم : ٣٣ ، وفى الرقاق : ٥١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٣ .

(٦) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٤٧ ، وفى تفسير سورة ١٧ : ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٤٦ ، ٣٢٧ . والترمذى فى القيامة : ١٠ . والدارمى فى المقدمة : ٨ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٠٣ ، ٤٦١ ، وفى ٥ : ٢٩٢ ، ٣١٤ .

(٧) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٦ ، وفى الاستتابة : ٩ . ومسلم فى الإيمان : ٤٧ . والترمذى فى الإيمان : ١٧ . والإمام أحمد فى ٤ : ٤٤ ، وفى ٦ : ٨٥ ، ٤٢٦ .

(٨) أخرجه البخارى فى العلم : ٤٩ ، وفى الجمعة : ١٨ . ومسلم فى الإيمان : ٥٣ . والترمذى فى الصلاة : ٢٠٠ . وابن ماجه فى الزهد : ١٩ . والدارمى فى الجهاد : ٨ .

وروى عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قال:لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة . قيل : وما إخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله) . رواه الطبرانى

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ:(ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصا إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضى إلى العرش ما اجتنبت الكبائر)(١) . رواه الترمذى .

وعن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : (قال موسى ﷺ:يارب علمنى شيئا أذكرك به وأدعوك به . قال : قل لا إله إلا الله قال:يارب كل عبادك يقول هذا،قال:قل لا إله إلا الله قال: إنما أريد شيئا تخصنى به . قال : ياموسى لو أن السماوات السبع والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهم لا إله إلا الله)(٢) . رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (أفضل الذكر لا إله إلا الله،وأفضل الدعاء الحمد لله)(٣) . رواه ابن ماجه والنسائى .

وعن يعلى بن شداد قال : حدثنى أبى شداد بن أوس رضى الله عنه وعبادة بن الصامت حاضر يصدقه قال: (كنا عند النبى ﷺ فقال: هل فيكم غريب ؟ (يعنى أهل الكتاب) قلنا:لا يارسول الله ، فأمر بغلق الباب وقال : ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله : فرفعنا أيدينا ساعة ثم قال : الحمدلله اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة وأمرتنى بها ووعدتنى عليها الجنة وأنت لا تخلف الميعاد . ثم قال : أبشروا فإن الله قد غفر لكم)(٤) رواه أحمد

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (جددوا إيمانكم:قيل يارسول الله وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله)(٥) . رواه أحمد والطبرانى وإسناد أحمد ، حسن .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أكثروا من شهادة أن لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها) رواه أبو يعلى بإسناد جيد قوى .

وروى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله)(٦) رواه أحمد والبزار .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ:(ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا منشرهم:وكأنى أنظر إلى أهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون،الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن)

وفى رواية : (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ولا عند القبر) . رواه الطبرانى .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أخبركم بوصية نوح لابنه ؟

قالوا : بلى . قال : أوصى نوح ابنه فقال لابنه : يابنى إنى أوصيك باثنتين وأنهاك عن اثنتين :

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١٢٥.
(٢) أخرجه النسائى فى الصلاة : ١٠
(٣) أخرجه ابن ماجه فى الأدب : ٥٥.
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٢٤ .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٥٩ .
(٦) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٢٤٢ .

أوصيك بقول لا إله إلا الله فإنها لو وضعت فى كفة ووضعت السماوات والأرض فى كفة : لرجحت بهن ولو كانت حلقة لقسمتهن حتى تخلص إلى الله) رواه البزار .

وروى الترمذى عن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ قال : (التسبيح نصف الميزان والحمد لله تملأه ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه)(١) .

وعن أبى أيوب ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل)(٢) . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

وعن يعقوب بن عاصم رضى الله عنه عن رجلين من أصحاب النبى ﷺ أنهما سمعا النبى ﷺ يقول : (ما قال عبد قط لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير مخلصا بها روحه مصدقا بها قلبه ناطقا بها لسانه إلا فتق الله عز وجل له السماء فتقا حتى ينظر إلى قائلها من الأرض ، وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤاله) رواه النسائى .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال : (خير الدعاء : دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير)(٣) . رواه الترمذى

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو الحى الذى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير لا يريد بها إلا وجه الله أدخله الله بها جنات النعيم) . رواه الطبرانى

لا إله إلا الله

كلمة التوحيد ، لها أثر كريم فى تفريج الكروب :

فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (من قال لا إله إلا الله قبل كل شىء ، ولا إله إلا الله يبقى ربنا ويفنى كل شىء : عوفى من الهم والحزن) . رواه الطبرانى .

هذا الحشد المقدس من الأحاديث النبوية الشريفة : يتألق ضياؤه ، مستمدا من كلمة التوحيد ، ويضىء سناه مشرقا من كلمة لا إله إلا الله .

نسأل الله تعالى أن يذكرنا بها عندما يحين الأجل ويجعلها آخر كلمة نختتم بها صحيفة الدنيا .

الخطوة الثانية التى يستحب فعلها عند الاحتضار :ـ

توجيهه إلى القبلة

يستحب توجيه المحتضر إلى القبلة مضطجعا على شقه الأيمن :

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ٨٦ . والإمام أحمد فى ٥ : ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٦٥ . ومسلم فى الذكر : ٢٩ . وابن ماجه فى الأدب : ٥٤ ، وفى الرهون : ١٦ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٣ ، ٣٣٦ ، ٣٨٧ ، وفى ٥ : ٤٢٢ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الأدب : ٥٥ ، وفى الدعاء : ٥ . والترمذى فى الدعوات : ١٨٤ ، ١١٢ . والإمام مالك فى القرآن : ٢٣٢ ، وفى الحج : ٢٤٦ ، والإمام أحمد فى ٢ : ١٢٧ ، ٥١٥ .

لما رواه البيهقى والحاكم وصححه ، عن أبى قتادة : أن النبى-صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة سأل عن البراء بن معرور ، فقالوا : توفى وأوصى بثلث ماله لك .

وأن يوجه للقبلة إذا ما احتضر، فقال النبى ﷺ : أصحاب الفطرة ، وقد رددت ثلث ما له على ولده ، ثم ذهب فصلى عليه وقال : اللهم أغفر له وأرحمه وأدخله جنتك وقد فعلت) قال الحاكم: ولا أعلم فى توجيه المحتضر إلى القبلة غيره .

وروى أحمد : (أن فاطمة بنت النبى ﷺ عند موتها استقبلت القبلة ثم توسدت يمينها) .

وهذه الصفة : التى أمر الرسول ﷺ النائم أن ينام عليها والتى يكون عليها الميت فى قبره .

وفى رواية عن الشافعى : (أن المحتضر يستلقى على قفاه ، وقدماه إلى القبلة وترفع رأسه قليلا ليصير وجهه إليها) . والأول الذى ذهب إليه الجمهور : أولى .

الثالثة : قراءة سورة يس

يستحب قراءة سورة يسٓ عند المحتضر :-

وذلك لما رواه أحمد وأبو داود والنسائى والحاكم وابن حبان وصححاه عن معقل بن يسار ، أن رسول الله ﷺ قال : (يسٓ قلب القرآن ، لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة ألا غفر له ، واقرأوها على موتاكم)[1] .

قال ابن حبان: (أراد به من حضرته المنية لا أنها تقرأ على الميت) .

ويؤيد هذا المعنى : ما رواه أحمد فى مسنده عن صفوان قال : (كانت المشيخة يقولون : إذا قرئت يسٓ عند الموت خفف عنه بها) قال أبو الدرداء . وأبو ذر: قال رسول الله ﷺ: (ما من ميت يموت فتقرأ عنده يسٓ إلا هون الله عليه) .

الرابعة : تغميض عينيه

يستحب تغميض عينى المحتضر :-

لما رواه مسلم أن النبى ﷺ دخل على أبى مسلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال : (إن الروح إذا قبض : تبعه البصر)[2] .

الخامسة : تغطيته

يستحب تغطية الميت :

صيانة له عن الانكشاف وسترا لصورته المتغيرة عن الأعين، فعن عائشة رضى الله عنها- : (أن النبى ﷺ حين توفى : سجى ببرد جده)[3] . رواه البخارى ومسلم .

ثم : يجوز تقبيل الميت إجماعا ، فقد قبل رسول الله ﷺ عثمان بن مظعون وهو ميت ، وأكب أبو بكر على رسول الله ﷺ بعد موته فقبله بين عينيه وقال : يانبياه ، ياصفياه ! !

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٢٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٧. وابن ماجه فى الجنائز : ٦.

(٣) أخرجه البخارى فى اللباس : ١٨ ، وفى الجنائز : ٣. وأبو داود فى الجنائز : ٣. والنسائى فى الجنائز : ٢ ، ٣٩.

المبادرة بتجهيزه متى تحقق موته

من حق الميت على الأحياء : أن يسرعوا بتجهيزه :

وذلك لما رواه أبو داود أن طلحة بن البراء فى مرضه أتاه النبى ﷺ يعوده فقال : (إنى لا أرى طلحة إلا وقد حدث فيه الموت فآذنونى به وعجلوا ، فإنه لا ينبغى لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهرانى أهله)[1] .

ولا ينتظر به قدوم أحد . . خوف تغيره ، فقد قال الرسول ﷺ : (ياعلى : ثلاث لا تؤخرها : الصلاة إذا أتت ، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت كفؤا)[2] .

تجهيز الميت : ـ

والآن : ـ

نبين الأحكام الشرعية التى تتعلق بتجهيز الميت : وتجهيزه عبارة عن غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه . وهذه الأمور الأربعة : واجبة على الحى نحو الميت .

وسوف نتناول الحديث عنها تفصيلا .

غسل الميت : ـ

يرى جمهور الفقهاء أن غسل الميت فرض كفاية أى:إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، لأن رسول الله ﷺ أمر به وحافظ على ذلك المسلمون .

وهذا بالنسبة لموتى المسلمين فقط .

الشهداء : ـ

وهو الذى قتل بأيدى الكفار ، وهو يجاهد لإعلاء كلمة لا إله إلا الله ، وهذا الشهيد : لا يغسل ، ويكفن فى ثيابه الصالحة لتكفينه ويدفن فى دمائه ، ولا يغسل منها شىء .

روى أحمد أن رسول الله ﷺ أمر بدفن شهداء أحد فى دمائهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم .

قال الشافعى ـ رضى الله عنه ـ: لعل ترك الغسل والصلاة : لأن يلقوا الله بكلومهم (أى بجراحهم) .

وذلك لما جاء أن ريح دمهم : كريح المسك ، واستغنوا بإكرام الله لهم عن الصلاة عليهم ، مع التخفيف على من بقى من المسلمين ، لما يكون فيمن قاتل من جراحات وخوف عودة العدو ، رجاء طلبهم وهمهم بأهلهم وهم أهلهم بهم .

وقيل : إن الحكمة من ترك الصلاة عليهم : أن الصلاة إنما تكون على الميت أما الشهيد : فهو حى .

ومصداق ذلك قوله ـ تعالى ـ: **﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾**[3] .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٣٤.

(٢) أخرجه الترمذى فى الصلاة : ١٣ ، وفى الجنائز : ٧٣ . وابن ماجه فى الجنائز : ١٧ ، ١٨. والامام أحمد فى ١ : ١٠٥.

(٣) الآية ١٦٩ من سورة آل عمران .

وقيل : إن الصلاة على الميت شفاعة له،والشهداء قد نالوا هذه الكرامة باستشهادهم لأنهم يشفعون لغيرهم .

شهداء يغسلون ويصلى عليهم :

هناك أنواع من الشهداء يغسلون ويصلى عليهم . وقد بينهم لنا الحديث الشريف . . فقد روى جابر بن عتيك أن النبى ﷺ قال : (الشهادة سبع سوى القتل فى سبيل الله : المطعون : شهيد والغريق : شهيد ، وصاحب ذات الجنب : شهيد ، والمبطون : شهيد ، وصاحب الحرق : شهيد ، والذى يموت تحت الهدم : شهيد ، والمرأة تموت بجمع : شهيدة)[١].

● **وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (ما تعدون الشهيد فيكم ؟ قالوا يارسول الله : من قتل فى سبيل الله فهو الشهيد،قال.إن شهداء أمتى إذن لقليل،قالوا.فمن هم يارسول الله ؟ قال : من قتل فى سبيل الله : فهو شهيد،ومن مات فى سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات فى الطاعون : هو شهيد،ومن مات فى البطن : فهو شهيد، والغريق : شهيد)[٢] .**

وهذا نموذج آخر من الشهداء الذين يغسلون ويكفنون ويصلى عليهم : عن سعيد بن زيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه : فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه : فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله : فهو شهيد)[٣] . رواه أحمد والترمذى وصححه .

* * *

أما وقد علمنا : من الذين يغسلون والذين لا يغسلون . . فما هى صفة الغسل ؟

صفة الغسل

الواجب فى غسل الميت أن يعمم بدنه بالماء مرة واحدة ولو كان جنبا أو حائضا .

والمستحب فى ذلك أن يوضع الميت فوق مكان مرتفع ويجرد من ثيابه ويوضع عليه ساتر يستر عورته ما لم يكن صبيا . ولا يحضر عند غسله إلا من تدعو الحاجة إلى حضوره .

اما غاسل الميت فينبغى أن يكون ثقة ، أمينا ، صالحا ، لينشر ما يراه من الخير ويستر ما يراه من الشر .

فقد قال رسول الله ﷺ : (ليغسل موتاكم المأمونون)[٤] رواه ابن ماجه .

كيفية الغسل

يبدأ الغاسل أولا بعصر بطن الميت عصرا خفيفا ، لإخراج ما عسى أن يكون بها من الفضلات ، ويزيل ما على بدنه من نجاسة ، على أن يلف على يده خرقة يمسح بها عورته (فإن لمس العورة حرام ، للحى والميت ، على حد سواء) . ثم يوضئه وضوء الصلاة بعد ذلك ، لقول رسول الله ﷺ:(إبدأ

---

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد : ٣٠، وأبو داود فى الجنائز : ١١. والنسائى فى الجنائز : ١٤. والإمام أحمد فى ٥ : ٤٤٦.

(٢) أخرجه مسلم فى الإمارة : ١٦٥. وأبو داود فى الجنائز : ١١. والنسائى فى الجنائز : ١٤. وابن ماجه فى الجهاد : ١٧. والإمام أحمد فى ٢ : ٣٢٥ ، ٤٤١ ، وفى ٥ : ٤٤٦.

(٣) أخرجه الترمذى فى الديات : ٢١. وأبو داود فى السنة : ٢٩.

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٠٨

بميامنها)[١] ومواضع الوضوء منها ، ثم يغسله بعد ذلك ثلاثا بالماء والصابون أو الماء الخالص ، مبتدئا باليمين فإن رأى الزيادة على الثلاث ـ بعدم حصول الإنقاء بها أو لشيء آخر ـ غسله خمسا أو سبعا ففى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (اغسلها وترا : ثلاثا أو خمسا أو سبعا أو أكثر من ذلك إن رأين [٢] .

فإذا كان الميت ، أنثى : ندب نقض شعرها وغسله وأعيد تضفيره وأرسل خلفها .

ففى حديث أم عطية : (أنهن جعلن رأس ابنة النبى ﷺ ثلاثة قرون ، قلت : نقضنه وجعلنه ثلاثة قرون ؟ قالت : نعم)[٣] .

فإذا فرغ من غسل الميت : جفف بدنه بثوب نظيف ، لئلا تبتل اكفانه ووضع عليه الطيب . .

قال رسول الله ﷺ : (إذا أجمرتم الميت فأوتروا) . رواه البيهقى والحاكم وابن حبان وصححاه .

وقال أبو وائل : كان عند على رضى الله عنه مسك فأوصى أن يحنط به وقال : هو فضل حنوط رسول الله ﷺ .

ويكره تقليم أظفار الميت ، أو أخذ شيء من شعر شاربه أو إبطه ، أو عانته ، وإذا خرج من بطنه شيء من النجاسات ، وجب تطهيره من هذه النجاسات .

وحكمة وضع الكافور والروائح الطيبة عند الغسل : لأنه وقت تحضر فيه الملائكة .

والغسل للميت : إذا كان الماء موجودا فإذا عدم الماء : فإنه ييمم كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **فإن لم تجدوا ماء فتيمموا** ﴾ ولقول رسول الله ﷺ : (جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا)[٤] . وكذلك ييمم الميت : إذا كان الجسم ، بحيث لو غسل : لتهرى .

الكفن -

بعد ما فرغنا من الكلام عن غسل الميت فإن تكفينه بما يستره ـ ولو كان ثوبا واحدا ـ فرض كفاية .

ويستحب فى الكفن أن يكون حسنا ، نظيفا ، ساترا للبدن . .

لما رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه عن أبى قتادة أن النبى ﷺ قال : (إذا ولى أحدكم أخاه فليحسن كفنه)[٥] .

وأن يكون الكفن أبيض ، لما رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه عن ابن عباس أن النبى

---

(١) أخرجه البخارى فى الوضوء : ٣١. ومسلم فى الجنائز : ٤٢ ، ٤٣ : وأبو داود فى الجنائز : ٢٩. والترمذى فى الجنائز : ١٥. والنسائى فى الجنائز : ٣١. وابن ماجه فى الجنائز : ٨. والامام أحمد فى ٦ : ٤٠٨.

(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٧ . ومسلم فى الجنائز : ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ . وأبو داود فى الجنائز : ٢٩. والترمذى فى الجنائز : ١٥. والنسائى فى الجنائز : ٢٨ ، ٣٢ـ ٣٥ ، ٣٦. وابن ماجه فى الجنائز : ٨. والامام مالك فى الجنائز : ٢. والامام أحمد فى ٥ : ٨٤ ، ٨٥ ، وفى ٦ : ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : ١٣ ، ١٤ ، ١٦. ومسلم فى الجنائز : ٣٨. وأبو داود فى الجنائز : ٢٩. والترمذى فى الجنائز : ١٥ . والنسائى فى الجنائز : ٣٠ ، ٣٥ . والامام أحمد فى ٦ : ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٤) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٢٢٢.

(٥) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٤٩. والترمذى فى الجنائز : ١٩. والنسائى فى الجنائز : ٣٧. وابن ماجه فى الجنائز : ١٢. وأبو داود فى الجنائز : ٣٠. والامام أحمد فى ٣ : ٢٩٥ ، ٣٢٩ ، ٣٧٢.

-صلى الله عليه وسلم-قال : (البسوا من ثيابكم البيض ، فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم)[١] .

وأن يجمر ويبخر ويطيب . . لما رواه أحمد والحاكم وصححه عن جابر : أن النبى ﷺ قال : (إذا أجمرتم الميت فأجمروه ثلاثا)[٢] .

وأوصى أبو سعيد وابن عمر وابن عباس-رضى الله عنهم-أن تجمر أكفانهم بالعود .

وأن يكون الكفن ثلاث لفائف للرجل وخمس لفائف للمرأة . ! لما رواه الجماعة عن عائشة رضى الله عنها-قالت : (كفن رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب بيض سحولية جدد ، ليس فيها قميص ولا عمامة)[٣] . وقال الترمذى : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم :

وقال سفيان الثورى : يكفن الرجل فى ثلاثة أثواب : إن شئت فى قميص ولفافتين وإن شئت فى ثلاث لفائف . ويجزىء ثوب واحد إن لم يوجد ثوبان .

والثوبان يجزئان ، والثلاثة - لمن وجد - أحب إليهم ، وهو قول الشافعى وأحمد واسحق ، وقالوا : تكفين المرأة فى خمسة أثواب .

وعن أم عطية : (أن النبى ﷺ ناولها إزارا ودرعا وخمارا وثوبين)[٤] .

وقال ابن المنذر : أكثر من نحفظ عنه من أهل العلم : يرى أن تكفن المرأة فى خمسة أثواب .

تكفين المحرم : -

إذا مات المحرم : غسل كما يغسل غيره ممن ليس محرما وكفن فى ثياب إحرامه ولا تغطى رأسه ولا يطيب لبقاء حكم الاحرام . .

لما رواه الجماعة عن ابن عباس قال : (بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة اذ وقع عن راحلته فوقصته فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : (اغسلوه بماء وسدر وكفنوه فى ثوبيه ، ولا تحنطوه ولا تخمروا رأسه ، فإن الله تعالى يبعثه يوم القيامة ملبيا)[٥] .

المغالاة فى الكفن : -

تكره المغالاة فى الكفن لقول رسول الله ﷺ (لا تغالوا فى الكفن ، فإنه يسلب سلبا سريعا)[٦] رواه ابو داود وفى إسناده ابو مالك .

وعن حذيفة قال : لا تغالوا فى الكفن . اشتروا لى ثوبين نقيين ،وقال أبو بكر-رضى الله-عنه : اغسلوا ثوبى هذا وزيدوا عليه ثوبين فكفنونى فيها .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الطب : وفى اللباس : ١٣ . والترمذى فى الجنائز : ٨ ، وفى الأدب : ٤٦ . والنسائى فى الجنائز : ٣٨ ، وفى الزينة : ٩٧ . وابن ماجه فى الجنائز : ١٢ . والامام أحمد فى ١ : ٢٤٧ ، ٢٧٤ ، وفى ٥ : ١٠ ، ١٢ ، ٢١ .

(٢) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٣١ .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : ١٩ ، ٢٥ ، ٩٤ . ومسلم فى الجنائز : ٤٥ . والنسائى فى الجنائز : ٣٩ . وابن ماجه فى الجنائز : ١١ . والامام مالك فى الجنائز : ٥ ، ٦ ، ٧ . والامام أحمد فى ٦ : ٤٠ ، ٩٣ ، ١١٨ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٢٣١ .

(٤) أخرجه البخارى فى المناقب : ٢٥ ومسلم فى الاشربة : ٧٤٢

(٥) أخرجه البخارى فى الجنائز : ١٩ - ٢١ . ومسلم فى الحج : ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ . وأبو داود فى الجنائز : ٨٠ والترمذى فى الحج : ١٠٣ والنسائى فى الحج : ٤٧ ، ٩٧ - ٩٩ ، ١٠١ . وابن ماجه فى المناسك : ٨٩ . والدارمى فى المناسك : ٣٥ . والامام أحمد فى ١ : ٢١٥ ، ٢٢١ ، ٢٨٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٣ ، ٣٤٦ .

(٦) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٣١ .

قالت عائشة رضى الله عنها : إن هذا خلق ، قال : إن الحى أولى بالجديد من الميت إنما هو للمهلة .

ويحرم على الرجال أن يكفنوا فى الحرير . ويكره للنساء ذلك قال أحمد : لا يعجبنى أن تكفن المرأة فى شىء من الحرير .

وكره ذلك : الحسن وابن المبارك وإسحاق .

قال ابن المنذر : ولا أحفظ من غيرهم خلافه .

صلاة الجنازة

الواجب الثالث بعد الغسل والتكفين : هو الصلاة على الميت .

وقد اتفق أئمة الفقه على أن الصلاة على الميت فرض كفاية ، لأمر رسول الله ﷺ بها ولمحافظة المسلمين عليها .

فضلها : ـ

روى الجماعة عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (من تبع جنازة وصلى عليها فله قيراط ، ومن تبعها حتى يفرغ منها فله قيراطان أصغرهما مثل أحد أو أحدهما مثل أحد)[١] .

وروى مسلم عن خباب رضى الله عنه قال : ياعبد الله بن عمر ، ألا تسمع ما يقول أبو هريرة ؟ إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (من خرج مع جنازة من بيتها وصلى عليها ثم رجع : كان له مثل أحد)[٢] .

فأرسل ابن عمر رضى الله عنهما خبابا إلى عائشة يسألها عن قول أبى هريرة ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت ؟ فقال : قالت عائشة : صدق أبو هريرة . فقال ابن عمر رضى الله عنهما : لقد فرطنا فى قراريط كثيرة .

شروطها : ـ

يشترط فيها الشروط التى تفرض فى سائر الصلوات المكتوبة : من الطهارة الحقيقية ، والطهارة من الحدث الأكبر ، والأصغر ، واستقبال القبلة وستر العورة .

وروى مالك عن نافع أن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما كان يقول : لا يصلى الرجل على الجنازة إلا وهو طاهر .

وتختلف عن سائر الصلوات المفروضة فى أنه لا يشترط فيها الوقت بل تؤدى فى جميع الأوقات متى حضرت ولو فى أوقات النهى عند الأحناف والشافعية .

وكره أحمد وابن المبارك وإسحاق : الصلاة على الجنازة فى وقت الطلوع والاستواء والغروب إلا إن خيف عليها التغيير .

أركانها : ـ

ولصلاة الجنازة أركان لابد منها .. إذا فقد منها ركن وقعت غير صحيحة وهى كما يلى :

النية :

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٥٧ . ومسلم فى الجنائز : ٥٥ . والنسائى فى الجنائز : ٥٤ . والامام أحمد فى ٥ : ٢٧٦ ، ٢٨٣ .

(٢) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٧٩ . والبخارى فى الايمان : ٣٥ .

يقول الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾[١] .

وقول رسول الله ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى)[٢] .

القيام :

للقادر عليه وهو ركن عند جمهور العلماء . . فلا تصح الصلاة على الميت لمن صلى عليه راكبا أو قاعدا من غير عذر .

قال فى المغنى : ولا يجوز ان يصلى على الجنائز وهو راكب ، لانه يفوت القيام الواجب . . وهذا قول أبى حنيفة والشافعى وأبى ثور ولا أعلم فيه خلافا .

ويستحب ان يقبض بيمينه على شماله أثناء القيام كما يفعل فى الصلاة وقيل : لا . والأول أولى .

التكبيرات الأربع :

لما رواه البخارى ومسلم عن جابر أن النبى ﷺ (صلى على النجاشى فكبر أربعا)[٣] قال الترمذى : والعمل على هذا عند اكثر أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم يرون التكبير على الجنازة أربع تكبيرات وهو قول سفيان ومالك وابن المبارك والشافعى وأحمد واسحق .

أما رفع اليدين عند التكبير :

فالسنة عدم رفعهما فى صلاة الجنازة ، إلا فى أول تكبيرة فقط : لأنه لم يأت عن النبى ﷺ أنه رفع فى شىء من تكبيرة الجنازة إلا فى أول تكبيرة فقط .

قال الشوكانى : والحاصل انه لم يثبت فى غير التكبيرة الأولى شىء يصلح للاحتجاج به عن النبى ﷺ وأفعال الصحابة وأقوالهم : لا حجة فيها ، فينبغى أن يقتصر على الرفع عند تكبيرة الاحرام ، لانه لم يشرع فى غيرها إلا عند الانتقال من ركن إلى ركن كما فى سائر الصلوات ولا انتقال فى صلاة الجنازة .

قراءة الفاتحة سرا :-

بعد تكبيرة الاحرام ، الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ بعد التكبيرة الثانية .

لما رواه الشافعى فى مسنده عن ابى امامة بن سهل : أنه أخبره رجل من أصحاب النبى ﷺ : (أن السنة فى الصلاة على الجنازة أن يكبر الامام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا فى نفسه ثم يصلى على النبى ﷺ ويخلص الدعاء فى الجنازة فى التكبيرات ولا يقرأ فى شىء منهن ، ثم يسلم سرا فى نفسه) .

قال فى الفتح : وإسناده صحيح : وروى البخارى عن طلحة بن عبد الله قال : صليت مع ابن عباس على جنازة ، فقرأ بفاتحة الكتاب ، فقال : إنها من السنة ورواه الترمذى وقال : والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من الصحابة وغيرهم يختارون ان يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى وهو قول الشافعى وأحمد وإسحق .

---

(١) الآية ٥ من سورة البينة .

(٢) أخرجه البخارى فى بدء الوحى : ١ ، وفى النكاح : ٥. ومسلم فى الايمان : ٢٣. ومسلم فى الامارة : ١٥٥. وأبو داود فى الطلاق : ١١. والترمذى فى فضائل الجهاد : ١٦. والنسائى فى الطهارة : ٥٩. وابن ماجه فى الزهد : ٢٦. والامام احمد فى ١ : ٢٥ ، ٤٣.

(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٥٥ ، ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٤٠٠

وقال بعضهم : لا يقرأ فى الصلاة على الجنازة إنما هو الثناء على الله تعالى والصلاة على نبيه ﷺ والدعاء للميت ، وهو قول الثورى وغيره من أهل الكوفة .

ومن حجج القائلين بفرضية القراءة : أن الرسول ﷺ سماها صلاة .. بقوله (صلوا على صاحبكم)[١] وقال : (لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن)[٢] .

وتؤدى الصلاة والسلام على رسول الله بأية صيغة ، ولو قال : اللهم صلى على محمد لكفى . واتباع المأثور : أفضل ، مثل :

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد ويؤتى بها بعد التكبيرة الثانية كما هو الظاهر وإن لم يرد ما يدل على تعيين موضعها .

الدعاء - بعد التكبيرة الثالثة : -

وهو ركن ، باتفاق الفقهاء ، لقول رسول الله ﷺ : (إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء)[٣] . رواه أبو داود والبيهقى وابن حبان وصححه . وهو يتحقق بأى دعاء مهما قل .

والمستحب فيه أن يدعو بأية دعوة من الدعوات المأثورة الآتية :

قال أبو هريرة : دعا رسول الله ﷺ فى الصلاة على الجنازة فقال : (اللهم أنت ربها وأنت خلقتها وأنت رزقتها وأنت هديتها للاسلام وأنت قبضت روحها وأنت أعلم بسرها وعلانيتها جئنا شفعاء له فاغفر له ذنبه)[٤] .

وعن واثلة بن الأسقع قال : صلى بنا النبى ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول : (اللهم إن فلان أبن فلان فى ذمتك وحبل جوارك فقه من فتنة القبر وعذاب النار وأنت أهل الوفاء والحق . اللهم فاغفر له وارحمه فإنك أنت الغفور الرحيم)[٥] . رواهما أحمد وأبو داود .

وعن عوف بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ وقد صلى على جنازة - يقول : (اللهم اغفر له وارحمه واعف عنه وعافه وأكرم منزله ووسع مدخله واغسله بماء وثلج وبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله دارا خيرا من داره واهلا خيرا من أهله وزوجا خيرا من زوجه وقه فتنة القبر وعذاب النار)[٦] .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ على جنازة فقال : (اللهم اغفر لحينا وميتنا وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وأنثانا وشاهدنا وغائبنا . اللهم من أحييته منا فأحيه على الاسلام ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان . اللهم لا تحرمنا أجره ولا تضلنا بعده)[٧] . رواه أحمد وأصحاب السنن .

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٢٩٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٩ ، ٤٥٣ ، وفى ٣ : ٢٩٦ .
(٢) أخرجه الترمذى فى المواقيت : ١١٥ . والامام أحمد فى ٥ : ٣١٦ ، ٣٢٢ .
(٣) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٥٦ .
(٤) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٢٥٦ ، ٣٤٥ ، ٣٦٣ ، ٤٥٩ .
(٥) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٢٣ . وأبو داود فى الجنائز : ٥٦ . والامام أحمد فى ٣ : ٤٩١ .
(٦) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٨٥ ، ٨٦ . والنسائى فى الجنائز : ٧٧ . وابن ماجه فى الجنائز : ٢٣ . والامام أحمد فى ٦ : ٢٣ ، ٢٨ .
(٧) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٥٦ . والترمذى فى الجنائز : ٣٨ . وابن ماجه فى الجنائز : ٢٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٦٨ ، وفى ٤ : ١٧٠ ، وفى ٥ : ٢٩٩ ، ٣٠٨ .

فإذا كان المصلى عليه طفلا : استحب أن يقول المصلى : (اللهم اجعله لنا سلفا وفرطا وذخرا)[١] . رواه البخارى والبيهقى من كلام الحسن .

قال النووى : وإن كان صبيا أو صبية : اقتصر على ما فى حديثه : (اللهم اغفر لحينا وميتنا . . . الخ) وضم إليه : اللهم اجعله فرطا لأبويه وسلفا وذخرا وعظة واعتبارا وشفيعا وثقل به موازينهما وأفرغ الصبر على قلوبهما ولا تفتنهما بعده ولا تحرمهما أجره)

واستحب العلماء : الدعاء ايضا بعد التكبيرة الرابعة : لما رواه أحمد عن عبد الله بن أبى أوفى أنه ماتت له ابنة فكبر عليها أربعا ثم قام بعد الرابعة قدر ما بين التكبيرتين يدعو ثم قال : كان رسول الله ﷺ يصنع فى الجنازة هكذا .

وقال الشافعى : يقول بعدها : اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده .

وقال ابن أبى هريرة : كان المتقدمون يقولون بعد الرابعة : اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

السلام : -

والسلام : ركن من أركان صلاة الجنازة وذلك لأن تحليل الصلاة : التسليم وصلاة الجنازة ضمن الصلوات . وقال ابن مسعود : التسليم على الجنازة : مثل التسليم فى الصلاة . .

وأقله السلام عليكم أو سلام عليكم .

كيف نصلى على الجنازة

وعلى الجملة فهذا بيان بترتيب الخطوات التى تؤدى بمقتضاها صلاة الجنازة :

بعد استيفاء شروط صحة الصلاة من طهارة وستر للعورة واستقبال للقبلة : يقف المصلى ناويا الصلاة على من حضر من الموتى رافعا يديه مع تكبيرة الاحرام ثم يضع يده اليمنى على اليسرى ويشرع فى قراءة الفاتحة ثم يكبر ثم يصلى على النبى ﷺ ثم يكبر ثم يدعو للميت ثم يكبر ثم يدعو ، ثم يسلم .

موقف الامام : -

من السنة أن يقف الامام عند رأس الرجل ويقف عند وسط المرأة لحديث أنس : (أنه صلى على جنازة رجل ، فقام عند رأسه فلما رفعت أتى بجنازة امرأة فصلى عليها فقام وسطها فسئل عن ذلك ، وقيل له أهكذا كان رسول الله ﷺ يقوم من الرجل حيث قمت ومن المرأة حيث قمت ؟ قال : نعم)[٢] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه : قال الطحاوى : وهذا أحب إلينا فقد قوته الآثار التى رويناها عن النبى ﷺ .

* * *

ثم إذا اجتمع أكثر من ميت وكانوا ذكورا أو إناثا : صفوا واحدا بعد واحد بين الامام والقبلة ليكونوا جميعا بين يدى الامام ووضع الأفضل مما يلى الامام وصلى عليهم جميعا صلاة واحدة .

وإن كانوا رجالا ونساء : جاز أن يصلى على الرجال وحدهم والنساء وحدهم وجاز أن يصلى عليهم جميعا وصفت الرجال أمام الامام وجعلت النساء مما يلى القبلة .

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٦٦.
(٢) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٥٣.

وعن نافع عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أنه صلى على تسع جنائز (رجال ونساء) فجعل الرجال مما يلى الامام وجعل النساء مما يلى القبلة ، وصفهم صفا واحدا (ووضعت جنازة أم كلثوم بنت على (امرأة عمر) وابن لها يقال له زيد والامام يومئذ سعيد بن العاص وفى الناس يومئذ ابن عباس وابو هريرة وأبو سعيد وأبو قتادة فوضع الغلام مما يلى الامام فقال رجل : فأنكرت ذلك ، فنظرت إلى ابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد وأبى قتادة ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هى السنة)[١] . رواه النسائى والبيهقى . قال الحافظ : وإسناده صحيح .

وفى الحديث أن الصبى إذا صلى عليه مع امرأة كان الصبى مما يلى الامام والمرأة مما يلى القبلة . وإن كان فيه رجال ونساء وصبيان : كان الصبيان مما يلى الرجال .

صفوف الصلاة على الجنازة

يستحب أن يصف المصلون على الجنازة ثلاثة صفوف وأن تكون مستوية لما رواه مالك بن هبيرة: قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من مؤمن يموت فيصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون أن يكونوا ثلاثة صفوف إلا غفر له)[٢] .

فكان مالك بن هبيرة يتحرى إذا قل أهل الجنازة ان يجعلهم ثلاثة صفوف رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه والحاكم وصححه .

وقال أحمد : أحب إذا كان فيهم قلة : أن يجعلهم ثلاثة صفوف قالوا : فإن كان وراءه أربعة كيف يجعلهم ؟ قال : يجعلهم صفين فى كل صف رجلين وكره أن يكونوا ثلاثة ، فيكون فى صف : رجل واحد .

فضل صلاة الجمع الكثير

يستحب صلاة الجمع الكثير على الجنازة كلما أمكن ذلك ، ففى صلاتهم على الميت : شفاعة له . . . بهذا صرحت الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ : عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له : إلا شفعوا فيه) رواه مسلم والنسائى والترمذى ، وعنده : (مائة فما فوقها)[٣] .

وعن كريب : أن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ مات له ابن بقديد (او بفان) فقال : ياكريب : انظر ما اجتمع له من الناس ؟ قال : فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا فأخبرته ، فقال : تقول هم أربعون ؟ قال : قلت : نعم . قال : أخرجوه فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله فيه)[٤] . رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

---

(١) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٧٤.
(٢) أخرجه الامام أحمد فى ٤ : ٧٩.
(٣) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٦١. والترمذى فى الجنائز : ٠٤٠ والنسائى فى الجنائز : ٧٨. والامام أحمد فى ٤ : ٧٩ ، وفى ٦ : ٣٢ ، ٠٤٠.
(٤) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٤١.

وعن ابن عمر-رضى الله عنهما-عن النبى ﷺ قال : (ما من رجل يصلى عليه مائة إلا غفر الله له) . رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن الحكم بن فروخ قال : (صلى بنا ابو المليح على جنازة فظننا أنه قد كبر فأقبل علينا بوجهه ، فقال : أقيموا صفوفكم ولتحسن شفاعتكم) .

قال أبو المليح : حدثنى عبد الله عن إحدى أمهات المؤمنين - وهى ميمونة زوج النبى ﷺ - قالت : أخبرنى النبى ﷺ ، قال : (ما من ميت يصلى عليه أمة من الناس إلا شفعوا فيه ، فسألت أبا المليح عن الأمة ؟ قال : أربعون)[١] رواه النسائى .

وعن مالك بن هبيرة-رضى الله عنه-قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :(ما من مسلم يموت فيصلى عليه ثلاثة صفوف من المسلمين إلا أوجب)[٢]

وكان مالك إذا استقبل أهل الجنازة : جزأهم ثلاثة صفوف . . . لهذا الحديث . . رواه أبو داود واللفظ له وابن ماجه ، والترمذى وقال : حديث حسن .

* * *

لا قضاء على من فاته بعض التكبير مع الامام فى صلاة الجنازة وهذا هو الرأى المعتمد :

روى عن عائشة أنها قالت : يارسول الله إنى أصلى على الجنازة ، ويخفى على بعض التكبيرة . قال : (ما سمعت : فكبرى : فكبرى . وما فاتك : فلا قضاء عليك)[٣] .

وقال ابن عمر والحسن : لا يقضى ما فات من تكبيرة الجنازة ويسلم مع الامام . وقال أحمد : إذا لم يقض : لم يبال .

واتفقت كلمة العلماء على أن المسلم : يصلى عليه : ذكرا كان أو أنثى صغيرا كان أو كبيرا .

الصلاة على السقط

إذا ولد مولود ولم يمض على حمله أربعة أشهر فإنه لا يغسل ولا يصلى عليه ويلف فى خرقة ويدفن من غير خلاف بين جمهوز الفقهاء ، فإذا ولد لأربعة أشهر فصاعدا فإنه يغسل ويصلى عليه لقوله ﷺ : (والسقط يصلى عليه)[٤] . وذلك لأنه إذا بلغ أربعة أشهر فى الرحم : يصير نسمة نفخ فيها الروح) فيصلى عليه .

ولا يصلى على كافر

لا تجوز الصلاة على الكافر وذلك لما صرحت به آيات الكتاب الكريم قال-تعالى-: **﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾**[٥] ولقوله جل شأنه : **﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم**

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ١٩.

(٢) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٤٠ والامام أحمد فى ٤ : ٧٩.

(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ١٧٧.

(٤) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٤٥. والامام أحمد فى ٤ : ٢٤٩.

(٥) الآية ٨٤ من سورة التوبة .

أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه)[١] .

الصلاة على الميت بعد دفنه : ـ

تجوز الصلاة على الميت بعد الدفن في أي وقت ، ولو كان قد صلى عليه قبل دفنه ! لما رواه يزيد ابن ثابت قال : خرجنا مع النبى ﷺ ، فلما وردنا « البقيع » : إذا هو بقبر جديد ، فسأل عنه ، فقيل : فلانة ، فعرفها فقال : ألا آذنتمونى بها ؟ قالوا : يارسول الله كنت قائلا صائما فكرهنا أن نؤذيك ، فقال : (لا تفعلوا . . لا يموتن فيكم ميت ما كنت بين أظهركم إلا آذنتمونى به فإن صلاتى عليه رحمة ثم أتى القبر فصفنا خلفه ، وكبر عليه أربعا)[٢] . رواه أحمد والنسائى والبيهقى والحاكم وابن حبان وصححاه .

قال الترمذى : والعمل على هذا عند اكثر أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم ، وهو قول الشافعى وأحمد وإسحق رضى الله عنهم .

وفى الحديث : أن الرسول ﷺ صلى على صاحبة القبر بعد ما صلى عليها أصحابه قبل الدفن ، لانهم ما كانوا ليدفنوها قبل الصلاة عليها .

قال الفقهاء : ـ

وفى صلاة أصحاب الرسول ﷺ معه على القبر : ما يدل على أن ذلك ليس خاصا به صلوات الله وسلامه عليه .

قال ابن القيم : ردت هذه السنن المحكمة : بالمتشابهة ، من قوله : (لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها) وهذا حديث صحيح .

والذى قاله : هو الذى صلى على القبر فهذا قوله ، وهذا فعله .

ولا يناقض احدهما الآخر . . . فإن الصلاة المنهى عنها إلى القبر غير الصلاة التى على القبر . . . فهذه صلاة الجنازة على الميت ، التى لا تختص بمكان . . . بل إن فعلها فى غير المسجد أفضل من فعلها فيه فالصلاة عليه على قبره : من جنس الصلاة عليه على (نعشه) فإنه المقصود بالصلاة فى الموضعين ولا فرق بين كونه على (النعش) وعلى الأرض وبين كونه فى بطنها . . . بخلاف سائر الصلوات ، فإنها لم تشرع فى القبور ولا إليها لأنها ذريعة إلى اتخاذها مساجد .

الصلاة على الغائب : ـ

تجوز الصلاة على من غاب من أموات المسلمين كما هى جائزة على من حضر من أمواتهم .

وكيفيتها : أن يستقبل المصلى القبلة ، وينوى الصلاة عليه ، ويكبر ، ويفعل مثل ما يفعل فى صلاة الجنازة .

---

(١) الأيتان ١١٣ ، ١١٤ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة : ٧٢ ، وفى الجنائز : ٥ ، ٥٥ ، ٦٦ . ومسلم فى الجنائز : ٧١ . وأبو داود فى الجنائز : ٣٤ ، ٥٧ . والنسائى فى الجنائز : ٤٣ ، ٧٦ . وابن ماجه فى الجنائز : ٣١ ، ٣٢ . والامام مالك فى الجنائز : ١٥ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٥٣ ، ٣٨٨ ، وفى ٣ : ٤٤٤ ، وفى ٤ : ٣٨٨ ، وفى ٥ : ٤٠٦ .

وذلك لما رواه الجماعة عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ (أن النبى ﷺ نعى الناس « النجاشى » فى اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف أصحابه وكبر أربع تكبيرات)

قال ابن حزم : ويصلى على الميت الغائب بإمام وجماعة .

صلاة النساء على الجنازة

يجوز للمرأة أن تصلى على الجنازة ، مثل الرجل : سواء صلت منفردة ، أو صلت مع الجماعة . فقد انتظر عمر أم عبدالله حتى صلت على (عتبة) وأمرت عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن يؤتى بسعد بن أبى وقاص لتصلى عليه .

السير بالجنازة

هناك أمور يحسن بيانها تتعلق بحمل الجنازة والسير بها . نثبتها فيما يلى : ـ

وصى الشارع الحكيم بتشييع الجنازة وحملها ، ومن السنة أن يحملها من جميع جوانبها ، حتى ينال ثواب جهاتها المختلفة : ـ

روى ابن ماجه والبيهقى وأبو داود والطيالسى عن ابن مسعود قال : (من اتبع جنازة فليحمل بجوانب السرير كلها ، فإنه من السنة . ثم إن شاء فليتطوع وإن شاء فليدع)[1] .

والمراد بسرير الميت : نعشه .

وقد رغب النبى ﷺ فى إتيان هذا البر العظيم حيث قال : (عودوا المريض وامشوا مع الجنازة : تذكركم الآخرة)[2] . رواه أحمد ، ورجاله ثقات .

ويستحب الاسراع بها . . وذلك لما رواه الجماعة عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال :

قال رسول الله ﷺ : (أسرعوا بالجنازة ، فإن تك صالحة : فخير تقدمونها إليه ، وإن تك سوى ذلك : فشر تضعونه عن رقابكم)[3] .

وروى البخارى فى التاريخ (أن النبى ﷺ أسرع حتى تقطعت نعالنا يوم مات سعد بن معاذ) .

والمقصود بالاسراع بها : عدم البطء الذى قد يدعو إلى التبختر .

وبناء عليه : فينبغى أن يعرف ألا يؤدى الاسراع إلى فسادها أو المشقة على مشيعيها .

المشى مع الجنازة :

اختار جمهور العلماء : المشى أمامها ، وقالوا : إنه الأفضل . . لأن الرسول ﷺ وأبا بكر وعمر : كانوا يمشون أمامها ، رواه أحمد وأصحاب السنن .

ويرى بعض الفقهاء أن المشى خلفها أفضل . . لأن ذلك هو المفهوم من أمر رسول الله ﷺ باتباع الجنازة والمتبع : هو الذى يمشى خلفه . .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ١٥٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١٧١ ، وفى الأطعمة : ١ ، وفى النكاح : ٧١ ، وفى المرضى : ٤ . والامام أحمد فى ٣ : ٢٣ ، ٣١ ، ٤٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٥١ . ومسلم فى الجنائز : ٥٠ ، ٥١ ، وأبو داود فى الجنائز : ٤٦ . والنسائى فى الجنائز : ٤٤ . وابن ماجه فى الجنائز : ١٥ . والامام مالك فى الجنائز : ٥٨ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٤٠ ، ٢٨٠ ، ٤٨٨ .

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الكل جائز ﴿ ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات ﴾[(١)] .

أشياء تكره عند الجنازة :

هناك أشياء تكره رأينا أن ننبه إليها ، لكراهة فعلها عند الجنازة ولخفائها على كثير من الناس ولانتشار فعلها .

رفع الصوت : سواء كان ذلك بذكر أو قراءة أو كان بغيرهما . وذلك لما رواه ابن المنذر عن قيس ابن عباد أنه قال : (كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند ثلاث : عند الجنائز ، وعند الذكر وعند القتال) .

ومن البدع : أن يقول قائل خلف الجنازة : استغفروا للميت . بهذا قال سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير والحسن والنخعى ، وأحمد وإسحق والأوزاعى .

يقول الامام النووى ـ رضى الله عنه ـ واعلم أن الصواب ما كان عليه السلف من السكوت حال السير مع الجنازة فلا يرفع صوت بقراءة ولا ذكر ولا غيرهما لأنه أسكن لخاطره وأجمع لفكره فيما يتعلق بالجنازة . . وهو المطلوب فى هذا الحال . فهذا هو الحق ولا تغتر بكثرة من يخالفه .

***

مما سبق يتبين أن رفع الصوت عند الجنازة أمر كرهه الشارع وعلينا أن نلتزم بما أتانا به الشرع ، ومن أراد أن يذكر الله : فليذكره تعالى فى نفسه ، تضرعا وخيفة ، وحتى لا يفوته الهدى النبوى الشريف .

كذلك من الأشياء المكروهة عند الجنازة ونهى الشرع عنها ، تلك العادة الجاهلية . . فقد كانوا يتبعون الجنازة بالنار أى يحملون مشاعل النار معها .

قال الامام البيهقى ـ رضى الله عنه ـ : جاء فى وصية عائشة وعبادة بن الصامت وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى ، وأسماء بنت أبى بكر ـ رضى الله عنهم ـ (أن لا تتبعونى بنار) .

وروى ابن ماجه أن أبا موسى الأشعرى حين حضره الموت قال (لا تتبعونى بمجمر)[(٢)] [وهو ما يوضع فيه الجمر] . . قالوا : ياأبا موسى ، أوسمعت فيه شيئا ؟ قال نعم . . . من رسول الله ﷺ أما إذا كان دفن الميت ليلا : فلا بأس باصطحاب ما يضىء الطريق إلى المقبرة .

ولقد ورد هذا عن رسول الله ﷺ ، فيما رواه الامام الترمذى عن ابن عباس (أن النبى ﷺ دخل قبرا ليلا فأسرج له سراج)[(٣)] .

كذلك يكره لمن اتبع الجنازة أن يقعد قبل أن توضع الجنازة على الارض فإن فعل : أمر بالقيام حتى توضع الجنازة .

وكذلك يكره اتباع النساء للجنازة وهذا عمل قد عمت به البلوى فى البلاد : قرى كانت أو مدنا . . والشرع يكرهه والناس فى غفلة .

---

(١) الآية ١٤٨ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ١٨ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٦٢ .

قالت الصحابية الجليلة أم عطية رضى الله عنها : نهينا أن نتبع الجنائز ولم يعزم علينا ، أى : لم يوجب علينا .

دفن الميت

بعد الفراغ من الحديث عن تغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه وتشييعه : نبين هنا حكم دفن الميت وما يتعلق بذلك :

أجمعت كلمة الفقهاء على أن دفن الميت ومواراة جسده إلى التراب : فرض كفاية . . . إذا قام به البعض : سقط عن الباقين .

وذلك لما صرحت به آيات القرآن . . قال تعالى : ﴿ **ثم أماته فأقبره** ﴾[1] .

وقال جل شأنه : ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا * أحياء وأمواتا** ﴾[2] أى جامعة للأموات والأحياء ؟ فالأموات فى بطنها والأحياء على ظهرها .

وما قصة ابنى آدم عن بالنا ببعيدة . . قال تعالى : ﴿ **فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى ؟ فأصبح من النادمين** ﴾[3] .

توضيح

يظن الكثير من الناس أن دفن الميت ليلا قد يؤذيه ، فيظل طول حياته خائفا ! !

وهذا افتراء على شرع الله ولا يقول بهذه المسألة إلا كل من غفل عن قوله جل شأنه ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم** ﴾[4] .

ولو علم هؤلاء أن الميت قد انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء وعالم البرزخ ، وأن هذا العالم لا يخضع لقوانين هذه الدنيا . . لو علموا هذا :

ما اجترأوا على أن يشرعوا فى دين الله ما ليس منه .

ويرى جمهور علماء المسلمين أن الدفن بالليل . كالدفن بالنهار سواء بسواء فقد دفن رسول الله ﷺ الرجل الذى كان يرفع صوته بالذكر : ليلا .

ودفن على فاطمة رضى الله عنها : ليلا .

وكذلك دفن أبو بكر وعثمان وعائشة وابن مسعود . رضى الله عنهم أجمعين .

الحكمة من الدفن :-

والحكمة من دفن الميت : أن يوارى الميت فى حفرة تحجب رائحته ، وتمنع السباع والطيور عنه .

ومن هنا : ينبغى تعميق القبر . والدفن فيه : إكرام لابن آدم الذى أوصى الله تعالى به إذ يقول : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾[5] .

---

(١) الآية ٢١ من سورة عبس .
(٢) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة المرسلات .
(٣) الآية ٣١ من سورة المائدة .
(٤) الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة فصلت .
(٥) الآية ٧٠ من سورة الاسراء .

ما يستحب للميت : ـ

يستحب توجيه الميت فى قبره إلى القبلة والدعاء له وحل أربطة الكفن .

والسنة التى جرى عليها العلم : ان يجعل الميت فى قبره على جنبه الأيمن ووجهه تجاه القبلة .

ويقول واضعه : (بسم الله وعلى ملة رسول الله ﷺ) ثم يحل أربطة الكفن .

كذلك يستحب الدعاء للميت بعد الفراغ من دفنه ، وسؤال التثبيت له ، لأنه يسأل فى هذه الحالة :

فعن عثمان رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت : وقف عليه وقال : (استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل)[1] . رواه ابو داود .

ما نهى عنه الشرع

نهى الشارع الحكيم عن الذبح عند القبر لما فى ذلك من المباهاة والرياء والفخر :

فقد روى ابو داود عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (لا عقر فى الاسلام)[2] .

قال عبد الرزاق : كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة .

قال الخطابى : كان أهل الجاهلية يعقرون الابل على قبر الرجل الكريم ويقولون : نجازيه على فعله لانه كان يعقرها فى حياته فيطعمها الأضياف ، فنحن نعقرها عند قبره لتأكلها السباع والطير ، فيكون مطعما بعد مماته ، كما كان مطعما فى حياته .

كذلك نهى الشارع عن الجلوس على القبر ، والاستناد إليه ، والمشى عليه وذلك لما رواه عمرو بن حزم قال : رآنى رسول الله ﷺ متكئا على قبر فقال : (لا تؤذ صاحب هذا القبر) . رواه احمد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من ان يجلس على قبر)[3] . رواه احمد ومسلم .

دفن أكثر من واحد فى قبر

إذا تعذر إفراد كل ميت بقبر لكثرة الموتى وقلة الدافنين او ضعفهم ، فإنه فى هذه الحالة يجوز دفن اكثر من واحد فى قبر واحد : لما رواه أحمد والترمذى وصححه : أن الانصار جاءوا إلى النبى ﷺ يوم أحد . فقالوا : يارسول الله : أصابنا جرح وجهد فكيف تأمرنا ؟ فقال : (احفروا ؟ واوسعوا ؟ واعمقوا واجعلوا الرجلين والثلاثة فى القبر قالوا : فأيهم نقدم ؟ قال : أكثرهم قرآنا)[4] .

التأدب مع أموات المسلمين

لا يجوز سب أموات المسلمين ، أو ذكر مساوئهم ، وذلك لأنهم فى دار من الأليق والأفضل أن يذكروا فيها بالرحمة .

---

(١) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٦٩.

(٢) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٧٠ والامام أحمد فى ٣: ١٩٧.

(٣) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٩٦. وأبو داود فى الجنائز : ٧٣. والنسائى فى الجنائز : ٩٧ ، ١٠٥ وابن ماجه فى الجنائز ٤٥.

(٤) أخرجه الترمذى فى الجهاد : ٣٤. والنسائى فى الجنائز : ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١. وابن ماجه فى الجنائز : ٤١. والامام أحمد فى ٤ : ١٩ ، ٢٠ ، وفى ٢ : ٣٢٤ ، ٤٧٢ ، ٥٣٢ .

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله ﷺ قال : (لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا)[١] .

أما المسلمون المعلنون بفسق أو بدعة أو عمل فاسد ، فإنه يباح ذكر مساوئهم . إذا كان فيه مصلحة تدعو إليه ، كالتحذير من حالهم والتنفير من قولهم ، وترك الاقتداء بهم .

أما إذا لم يكن فيه مصلحة : فلا يجوز .

وقد روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه قال : مروا بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال النبى ﷺ : « وجبت » ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا فقال : « وجبت » فقال عمر رضى الله عنه ما وجبت ؟ قال : (هذا اثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا اثنيتم عليه شرا فوجبت له ، أنتم شهداء الله فى الأرض)[٢] .

نقل الميت

يحرم عند الشافعية : نقل الميت من بلد إلى بلد إلا أن يكون بقرب مكة أو المدينة . أو بيت المقدس ، فإنه يجوز النقل إلى إحدى هذه البلاد ، لشرفها وفضلها .

ولو أوصى بنقله إلى غير هذه الأماكن الفاضلة : لا تنفذ وصيته ، لما فى ذلك من تأخير دفنه ، وتعرضه للتغير .

ويحرم كذلك نقله من القبر إلا لغرض صحيح : كأن دفن من غير غسل أو إلى غير القبلة ، أو لحق القبر سيل أو نداوة .

قال فى المنهاج : ونبشه بعد دفنه للنقل وغيره : حرام إلا لضرورة كأن دفن بلا غسل أو فى أرض أو ثوب مغصوبين أو مع مال أو دفن لغير القبلة .

وعند المالكية : يجوز نقله من مكان إلى مكان آخر قبل الدفن وبعده لمصلحة : كأن يخاف عليه أن يغرقه البحر ، أو يأكله السبع ، أو لزيارة أهله له ، أو لدفنه بينهم ، أو رجاء بركته للمكان المنقول إليه . ونحو ذلك .

فالنقل حينئذ جائز ما لم تنتهك حرمة الميت بانفجاره أو تغيره أو كسر عظمه .

ويستحب دفن الشهيد حيث قتل .

وذلك لما روى عن النبى ﷺ قال : (ادفنوا القتلى فى مصارعهم)[٣] .

وروى ابن ماجه (ان رسول الله ﷺ أمر بقتلى أحد ان يردوا إلى مصارعهم)[٤]

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٩٧. ومسلم فى فضائل الصحابة : ٢٢١ . وأبو داود فى السنة : ٠١٠ والترمذى فى البر : ٥١. والنسائى فى الجنائز : ٥٢ . وابن ماجه فى المقدمة : ١١. والإمام أحمد فى ١ : ٣٠٠ ، وفى ٣ : ١١ ، ٥٤ ، وفى ٥ : ٢٥.

(٢) أخرجه البخارى فى الشهادات : ٦ ، وفى الجنائز : ٥٨. وأبو داود فى الجنائز : ٧٢. والترمذى فى الجنائز : ٦٣ والنسائى فى الجنائز : ٠٥٠ والامام أحمد فى ٢ : ٢٦١ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٩٨ ، ٢٥٨ ، وفى ٣ : ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢١١ ، ٢٤٥ ، ٢٨١ .

(٣) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٨٣.

(٤) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٨٣. وابن ماجه فى الجنائز : ٢٨. والامام أحمد فى ٣ : ٣٠٨ ، ٣٩٨ .

قضاء الدين

الاسلام : دين الوفاء والحياء ، وإن لكل دين خلقا ، وخلق الاسلام : الحياء .

ومن القضايا الخطيرة فى الاسلام : قضية المال ، فكل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه .

ومن ثم جاءت الأحاديث عن رسول الله ﷺ فى باب الدين تحث حثا أكيدا على أدائه ، وعدم المماطلة فى ذلك الأداء

بل إن رسول الله ﷺ كان يستعيذ بالله من الدين ويقول : (اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين ، وقهر الرجال)[١] .

بل تزيد دقة الاسلام فى التحذير من المماطلة فى الديون إلى درجة أن الرسول ﷺ كان يستعيذ بالله من الكفر والدين :

روى ابو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ انه كان يقول (أعوذ بالله من الكفر والدين فقال رجل : يارسول الله أتعدل الكفر بالدين ؟ قال : نعم)[٢]. رواه النسائى .

الدين : مذلة : -

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (الدين راية الله فى الأرض فإذا أراد الله ان يذل عبدا أوضعه فى عنقه) . رواه الحاكم .

وقد وصى رسول الله ﷺ أحد أصحابه هذه الوصية فقال له : (أقل من الذنوب . يهن عليك الموت ، وأقل من الدين : تعش حرا) . رواه البيهقى .

وصية حكيم لابنه ؛

وقال أحد الحكماء لابنه وهو يعظه : يابنى لقد ذقت الطيبات كلها فلم أجد أطيب من العافية ، وتجرعت المرارة كلها فلم أجد أمر من الحاجة إلى الناس ، وحملت الصخر والحديد فلم أجد اثقل من الدين .

وقد عد رسول الله ﷺ الدين نوعا من أنواع الخوف بعد الأمن .

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها قالوا وما ذاك يارسول الله قال : الدين)[٣] . رواه أحمد .

البراءة من ثلاثة : -

عن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من فارق روحه جسده وهوبرىء من ثلاثة

---

(١) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ـ٤٢ ، ٤ ، ٥٧. ومسلم فى الذكر : ٤٩ ـ ٥١ ، ٧٣. وابن ماجه فى الدعاء : ٠٣ وابو داود فى الوتر : ٣٢. والترمذى فى الدعوات : ١١٣. والنسائى فى الاستعاذة : ٤ ، ٥ ـ ٨ ، ١٢، ١٣ ، ٢٥ ٢٧ ، ٣٨ ـ ٤٠ . والامام أحمد فى ١ : ٢٢ ، ١٨٦ ، وفى ٣ : ١١٣ ، ١٢٢ ، ٢٢٠ ، ٢٦٤ ، وفى ٦ : ٣٧١ .

(٢) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٨.

(٣) اخرجه الامام احمد فى ٤ : ١٤٦ ، ١٥٤ .

دخل الجنة : الغلول والدين والكبر)[١] .

الغلول : أى السرقة من الغنم ـ والكبر : احتقار الناس ورفض الحق

الدين والنية :

لنية الأداء عند الله : إذن بتيسير ولنية الاتلاف : إذن بتعسير .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من أخذ أموال الناس يريد اداءها : أدى الله عنه ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها : أتلفه الله)[٢] . رواه البخارى .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تداين فقيل لها مالك وللدين ؟ ولك عنه مندوحة ؟ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من عبد كانت له نية فى أداء دينه إلا كان له من الله عون فأنا التمس ذلك العون)[٣] .

وعن صهيب الخير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أيما رجل تدين دينا وهو مجمع الا يوفيه اياه : لقى الله سارقا)[٤] . رواه ابن ماجه والبيهقى .

خطورة الدين :

عن محمد بن عبدالله بن جحش رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ قاعدا حيث توضع الجنائز فرفع رأسه قبل السماء ثم خفض بصره فوضع يده على جبهته فقال : (سبحان الله سبحان الله ما أنزل من التشديد قال : فعرفنا وسكتنا حتى إذا كان الغد سألنا رسول الله ﷺ فقلنا : ما التشديد الذى نزل ؟ قال: فى الدين ، والذى نفسى بيده لو قتل رجل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل ثم عاش ثم قتل وعليه دين مادخل الجنة حتى يقضى دينه)[٥] . رواه النسائى .

الصدق والأمانة : فى الوفاء

هذا حديث نسوقه بطوله لما فيه من عظات بالغات ، وعبر طيبات ، أحرى بكل عاقل ان يتصف بها ؛

عن أبى هريرة رضى الله عنه (أن رسول الله ﷺ ذكر رجلا من بنى اسرائيل سأل بعض بنى اسرائيل ان يسلفه ألف دينار ، فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم . فقال : كفى بالله شهيدا قال : فائتنى بالكفيل . قال : كفى بالله كفيلا . قال : صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يركبه ويقدم عليه للأجل الذى أجله فلم يجد مركبا ، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها الف دينار وصحيفة منه إلى صاحبها ، ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر ، فقال :

(١) أخرجه الترمذى فى السير : ٢١. وابن ماجه فى الصدقات : ١٢ والدارمى فى البيوع : ٥٢. والامام أحمد فى ٥ : ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ١٨ ، وفى الاستقراض : ٢. وابن ماجه فى الصدقات : ١١. والامام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ، ٤١٧ .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٦ : ٧٢ ، ٩٩ ، ١٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ٢١.

أخرجه النسائى فى البيوع : ٩٨.

اللهم إنك تعلم أنى تسلفت فلانا ألف دينار فسألنى كفيلا فقلت : كفى بالله كفيلا ، فرضى بك ، وسألنى شهيدا فقلت : كفى بالله شهيدا ، فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له فلم أقدر ، وإنى استودعكها ، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو فى ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاء بماله ، فإذا الخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطبا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه وأتى بالألف دينار ، فقال : والله مازلت جاهدا فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذى جئت فيه . قال : هل كنت بعثت إلى بشىء ؟ قال : أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى جئت فيه قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثته فى الخشبة فانصرف بالألف الدينار راشدا)[1] . رواه البخارى .

سمو الإسلام

نظرة الاسلام دائما رفيعة وعالية ، فهو فى باب الدين لا يجد غضاضة من أن يستدين المسلم فى هذه الأمور الثلاثة : عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن الدين يقضى من صاحبه يوم القيامة إذا مات إلا من يدين فى ثلاث خلال :

الرجل تضعف قوته فى سبيل الله فيستدين يتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد ما يكفنه ويواريه إلا بدين ، ورجل خاف على نفسه العزبة فينكح خشية على دينه ، فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة)[2] رواه ابن ماجه .

دين الميت

لعلك أيها القارىء الكريم قد أدركت بما لا يدع مجالا للشك ما يترتب على الدين من مسئولية ومؤاخذة وإليك الآن ما يتعلق بدين الميت ، فاستمع إلى صوت النبوة فى سكينة ووقار ، تعلم الخبر اليقين ، واسأل الله النجاة من خزى الدنيا ، وعذاب الآخرة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى ﷺ قال : (نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه)[3] أى ان امرها موقوف لا يحكم لها بنجاة ولا بهلاك أو محبوسة عن الجنة . وهذا فيمن مات وترك مالاً يقضى منه دينه .

أما من مات ولا مال له عازما على القضاء فقد ثبت ان الله تعالى يقضى عنه ، ومثله من مات وله مال وكان محبا للقضاء ولم يقض من ماله ورثته :

فعند البخارى من حديث ابى هريرة : ان النبى ﷺ قال : (فمن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله)[4] .

(١) أخرجه البخارى فى الكفالة : ١. والامام أحمد فى ٢ : ٣٤٩ .
(٢) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ٢١.
(٣) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٧٦. وابن ماجه فى الصدقات : ٩٢. والامام أحمد فى ٢ : ٤٤٠ ، ٤٧٥ .
(٤) أخرجه البخارى فى الزكاة : ١٨ ،وفى الاستقراض من : ٢. وابن ماجه فى الصدقات : ١١. والامام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ، ٤١٧ .

وروى أحمد وأبو نعيم والبزار والطبرانى عن النبى ﷺ قال : (يدعى بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يدى الله عز وجل فيقول : ياابن آدم : فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يارب إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع ولكن اتى علىَّ إما حرق و إما سرق واما ضيعة فيقول الله : صدق عبدى وأنا احق من قضى عنك فيدعو الله بشىء فيضعه فى كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل رحمته)(١)

وقد كان النبى ﷺ يمتنع عن الصلاة على المديون فلما فتح الله عليه البلاد وكثرت الأموال (صلى على من مات مديونا وقضى عنه)

وقال فى حديث البخارى : (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن مات وعليه دين ولم يترك وفاء فعلينا قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته)(٢) .

وفى هذا ما يدل على ان من مات مدينا : استحق أن يقضى عنه من بيت مال المسلمين ويؤخذ من سهم الغارمين أحد مصارف الزكاة ، وأن حقه لا يسقط بالموت .

بل كان رسول الله ﷺ عندما تأتيه الجنازة يسأل ويقول (أعلى صاحبكم دين) ؟

عن جابر رضى الله عنه قال : (توفى رجل فغسلناه وكفناه وحنطناه ، ثم أتينا به رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقلنا : تصلى عليه ، فخطا خطوة ثم قال : أعليه دين ؟ قلنا : ديناران فانصرف ، فتحملهما أبو قتادة فأتيناه فقال أبو قتادة : الديناران علىَّ . فقال رسول الله ﷺ : قد أوفى الله حق الغريم ، وبرىء منهما الميت ؟ قال : نعم فصلى عليه ، ثم قال بعد ذلك بيومين : ما فعل الديناران ؟ قلت : إنما مات أمس قال : فعاد إليه من الغد فقال : قد قضيتها فقال رسول الله ﷺ الآن بردت جلدته)(٣) . رواه أحمد

وروى عن على رضى الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا أتى بالجنازة لم يسأل عن شىء من عمل الرجل ويسأل عن دينه : فإن قيل عليه دين : كف عن الصلاة عليه وان قيل ليس عليه دين : صلى عليه ، فأتى بجنازة فلما قام ليكبر سأل رسول الله ﷺ : (هل على صاحبكم دين ؟ قالوا : ديناران فعدل عنه رسول الله ﷺ وقال : صلوا على صاحبكم فقال على رضى الله عنه : هما علَىّ يارسول الله برىء منهما ، فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه ثم قال لعلى بن ابى طالب : جزاك الله خيرا فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك انه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه ومن فك رهان ميت : فك الله رهانه يوم القيامة فقال بعضهم : هذا لعلى خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : بل للمسلمين عامة) رواه الدارقطنى .

وروى عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ أتى بجنازة ليصلى عليها قال : (هل عليه دين ؟ قالوا : نعم فقال النبى ﷺ : إن جبريل نهانى أن أصلى على من عليه دين فقال : إن صاحب الدين مرتهن فى قبره حتى يقضى عنه دينه) . رواه ابو يعلى والطبرانى .

(١) أخرجه الامام أحمد فى ١ : ١٩٧ ، ١٩٨.

(٢) أخرجه البخارى فى الكفالة : ١٥. ومسلم فى الجمعة : ٤٣ ، وفى الفرائض : ١٥ ، ١٦. وأبو داود فى الامارة : ١٥. والترمذى فى الجنائز : ٦٩. والنسائى فى الجنائز : ٦٧. وابن ماجه فى المقدمة : ٧. والدارمى فى البيوع : ٥٤. والامام أحمد فى ٣ : ٢١٥ ، ٢٩٦ ، ٣١١ ، وفى ٤ : ١٣٣ .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٣٠.

الرسول يسأل :

عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فقام رجل فقال : أنا يارسول الله . فقال : من منعك أن تجيبنى فى المرتين الأوليين ؟ قال : إنى لم أنوه بكم إلا خيرا إن صاحبكم مأسور بدينه ، فلقد رأيته أدى عنه حتى ما أحد يطلبه بشىء)[1] رواه ابو داود

بعض ما ورد عن الدين :

وقد وردت أحاديث أخرى فى دين الميت نورد بعضها فيما يلى :

عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى أمره ، ومن مات وعليه دين فليس ثم دينار ولا درهم ولكنها الحسنات والسيئات ، ومن خاصم فى باطل وهو يعلم : لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ، ومن قال فى مؤمن ما ليس فيه : حبس فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج مما قال) . رواه الحاكم .

وعن البراء بنّ عازب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : انه قال : (صاحب الدين مأسور بدينه يشكو إلى الله الوحدة) . رواه الطبرانى فى الاوسط .

وعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه بها عبد بعد الكبائر التى نهى الله عنها أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاء)[2] رواه ابو داود والبيهقى .

التحذير من مطل الغنى :

رأينا ـ من باب تتمة الفائدة ـ أن نبين ما يتعلق بالمماطلة فى دفع الدين ، خصوصا إذا كان المدين غنيا .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (مطل الغنى ظلم)[3] .

ويبين الرسول ﷺ أن مطل الغنى (أى مماطلته فى أداء الديون) ظلم وأن الله تعالى لا يحب ثلاثة .

فعن على رضى الله عنه قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لايحب الله الغنى الظلوم ولا الشيخ الجهول ولا الفقير المختال »

بل وإن الرسول ﷺ يشدد النكير فى مماطلة الدفع فيقول : (ما قدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها الحق من قويها غير متعتع) ثم قال : من انصرف غريمه وهو عنه راض ، صلت عليه دواب الأرض .

---

(١) أخرجه ابو داود فى البيوع : ٩. والنسائى فى البيوع : ٩٨. وابن ماجه فى الصدقات : ٢٠ والامام أحمد فى ٤ : ١٣٦ ، وفى ٥ : ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ٢٠.

(٢) أخرجه أبو داود فى الوصايا : ١٧.

(٣) أخرجه البخارى فى الاستقراض : ١٢. ومسلم فى المساقاة : ٣٤. وأبو داود فى البيوع : ١٠ والترمذى فى البيوع : ١٠. وابن ماجه فى الصدقات : ٨. والدارمى فى البيوع : ٤٨. والامام أحمد فى ٢ : ٧١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٣٧٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

و« نون » الماء ، ومن انصرف غريمه وهو ساخط : كتب عليه فى كل يوم وليلةوجمعة وشهر : ظلم) .
رواه الطبرانى فى الكبير .

فائدة : ـ

كلمات يقولهن المديون والمهموم والمكروب والمأسور : ما من أحد فى هذه الدنيا إلا وتعتريه الهموم وتتناوشه الكروب فتلك طبيعة الأيام !

جبلت على كدر ، وأنت تريدها صفـوا من الأحـزان والأكـدار
ومكلف الأيـام ضـد طبـاعهـا متطلب فى الماء جذوة نار ! !

إذا كان ذلك كذلك ، فما هو الملجأ ؟

الملجأ أن نردد هذه الأذكار التى جاءتنا من الصادق المعصوم ، فإن فى ترديدها عبادة ، وفى ذكرها التجاء إلى الله يقول فى محكم كتابه : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾(١) .

جاء عبد مكاتب إلى الامام على رضى الله عنه ، فلما جاء ذلك العبد إلى الامام على قال له : إنى عجزت عن مكاتبتى فأعنِّ فقال ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ ، لو كان عليك مثل جبل جبير دينا . أداه الله عنك ؟ قل «اللهم اكفنى بحلالك من حرامك ، وأغننى بفضلك عمن سواك)(٢) . رواه الترمذى .

الرسول ﷺ وأبو أمامة : ـ

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار ، يقال له : (أبو أمامة) جالسا فيه ، فقال : ياأبا أمامة :(مالى أزاك جالسا فى المسجد فى غير وقت صلاة ؟ قال : هموم لزمتنى وديون يارسول الله ، قال : (أفلا أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك ؟ فقال : بلى يارسول الله ، قال : قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من البخل والجبن وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ، قال : فقلت ذلك فأذهب الله عز وجل همى وقضى عنى دينى)(٣) . رواه أبو داود .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ : (ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد دينا لأداه الله عنك ؟ قل يامعاذ : اللهم مالك الملك : تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء : ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك) . رواه الطبرانى فى الصغير بإسناد جيد .

ما يستفاد من أحاديث الدَّيْن : ـ

نبين هنا ما يريده رسول الله ﷺ من المدين والدائن ونتائج اتباع نصائحه ﷺ :

---

(١) الآية ٩٢ من سورة النمل .
(٢) أخرجه الترمذى فى الدعاء : ١١٠ .
(٣) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٣٥ ، ٤٠ . وأبو داود فى الوتر : ٣٢ . والترمذى فى الدعوات : ٧٠ . والنسائى فى الاستعاذة : ٧ ، ٨ . والامام أحمد فى ٣ : ١٢٢ ، ١٥٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ .

أولا : عدم المماطلة وترك التسويف إذا كان قادرا على الدفع .

ثانيا : قبول الحوالة إذا رأى الدائن حفظ حقه وأداء دينه .

ثالثا : حسن معاملة الدائن بتجنب المدين سب عرضه وشتمه وغيبته .

رابعا : كل من قدر على أداء ما افترض ولم يف : حشر مع الظالمين ، وعوقب معاقبة المجرمين المسيئين . وحل عليه غضب الله وكراهته .

خامسا : المدين المماطل يجلب لأمته الدمار والوباء والخسران ويوقعها فى الذنوب المهلكة ويبعدها من تطهير الله ورحمته ورأفته بها .

سادسا : أداء الدين بسهولة يجلب رضا الله وإحسانه ويسبب الدعوات الصالحة من العالم أجمع .

سابعا : المقصر فى الأداء الذى هجر دائنه وأغضبه : سجلت عليه الآثام بمرور الأزمان .

دعاء مبارك : ـ

عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك . أو استأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ـ إلا أذهب الله عز وجل همه وأبدله مكان حزنه فرحا ، قالوا : يارسول الله : ينبغى لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات : قال : أجل ، ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن)[1] . رواه أحمد والبزار وأبو يعلى فى صحيحه .

وعن أبى بكرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (كلمات المكروب : اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله) رواه الطبرانى وابن حبان فى صحيحه وزاد فى آخره : (لا إله إلا أنت) .

* * *

الاستغفار : ـ

من الاذكار التى تفرج الكروب وتزيل الهم والغم،الاستغفار : أى قولك : أستغفر الله .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من لزم الاستغفار ، جعل الله له من كل ضيق مخرجا . ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب)[2] رواه ابو داود واللفظ له والنسائى وابن ماجه ، والحاكم ، والبيهقى .

لا حول ولا قوة إلا بالله : من الأذكار التى يفرج الله بها الهم والكرب والغم : قول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : (من قال : لا حول ولا قوة إلا بالله :

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى ١ : ٣٩١ ، ٤٥٢.

(٢) أخرجه ابو داود فى الوتر : ٢٦. والامام أحمد فى ١ : ٢٤٨.

كان دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها : الهم) . رواه الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم ، وكلاهما من رواية بشربن رافع . أبى الأسباط ، وقال الحاكم : صحيح الاسناد .

وصيته ﷺ لأسماء بنت عميس : -

عن أسماء بنت عميس رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ : (ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب - أو فى الكرب - : الله ، الله ربى لا أشرك به شيئا)[١] . رواه ابو داود والنسائى وابن ماجه . وكان دعاؤه ﷺ عند الكرب : (لا إله إلا الله الحليم العظيم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم)[٢] . رواه البخارى . ومسلم والترمذى .

فضل دعوة « ذى النون »

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له)[٣] . رواه الترمذى واللفظ له ، والنسائى والحاكم وقال صحيح الاسناد .

وزاد الحاكم فى رواية له : فقال رجل يارسول الله : (هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : ألا تسمع إلى قول الله عز وجل : ﴿ **ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾[٤] .

دعاء موسى الكليم : -

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أعلمك الكلمات التى تكلم بها موسى عليه السلام حتى جاوز البحر ببنى اسرائيل ؟ قلنا : بلى يارسول الله قال قولوا : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) قال عبدالله فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ) . رواه الطبرانى فى الصغير

فتح أبواب السماء لقبول الدعاء : -

عن أبى أمامة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : (إذا نادى المنادى فتحت له أبواب السماء واستجيب الدعاء . فمن نزل به كرب أو شدة فليتحين المنادى ، فإذا كبرَّ كبرَّ وإذا تشهد تشهد ، وإذا قال : حىّ على الصلاة قال : حىّ على الصلاة ، وإذا قال : حى على الفلاح قال : حى على الفلاح ، ثم يقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة الصادقة المستجابة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة التقوى أحينا عليها وأمتنا عليها وابعثنا عليها واجعلنا من خيار أهلها ، أحياء وأمواتا ، ثم يسأل الله حاجته) . رواه الحاكم من رواية عفير بن معدان .

---

(١) أخرجه ابو داود فى الوتر : ٢٦ .

(٢) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٢٧ . ومسلم فى الدعوات : ٨٣ . والترمذى فى الدعاء : ٣٩ . وابن ماجه فى الدعاء : ١٧ . والامام أحمد فى ١ : ٢٢٨ ، ٢٥٤ ، ٣٢٩ ، ٣٥٦ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١٨ .

(٤) الأية ٨٨ من سورة الأنبياء .

فائدة نبوية كريمة : ـ

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما كربنى أمر إلا تمثل جبريل فقال : يامحمد ، قل : توكلت على الحىّ الذى لا يموت ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىّ من الذل وكبره تكبيرا) . رواه الطبرانى والحاكم وقال صحيح الاسناد .

دعاء الأسير : ـ

وروى الأصبهانى عن إبراهيم يعنى ابن الأشعث ـ قال : سمعت الفضيل يقول : إن رجلا على عهد رسول الله ﷺ أسره العدو فأراد أبوه ان يفدِ يه ، فأبوا عليه إلا بشىء كثير لم يطقه ، فشكا ذلك إلى النبى ﷺ : فقال : اكتب إليه فليكثر من قول : (توكلت على الحى الذى لا يموت ، والحمد لله الذى **لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىٌّ من الذل وكبره تكبيرا . قال : فكتب بها الرجل إلى ابنه ، فجعل يقولها ، فغفل العدو عنه ، فاستاق أربعين بعيرا فقدم بها إلى أبيه) .**

* * *

فضل رعاية حقوق العباد : ـ

بعد هذا الطواف المبارك حول أقوال الرسول ﷺ التى دلت على الوفاء وأداء الدين . . فسوف نسوق هذه الآيات الكريمة ، من كتاب الله تعالى . . والتى تخبرنا عن حب الله للمتقين وإحسانه إلى المؤمنين الذين لا تضيع بينهم الحقوق .

قال الله تبارك وتعالى فى سورة النحل : ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون ايمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون** ﴾(١) .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة النحل أيضا ﴿ **ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم ، إن كنتم تعلمون** ﴾(٢) .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة الاسراء ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا** ﴾(٣) .

وقال تعالى فى سورة الروم : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون** ﴾(٤) .

وقال تعالى فى سورة الشمس : ﴿ **قد أفلح من زكاها . . وقد خاب من دساها**)(٥) .

وقال تعالى فى سورة الانعام : ﴿ **ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون . ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون . وربك الغنى ذو الرحمة** ﴾(٦) .

وقال تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما**

(١) الآيتان ٩١ ، ٩٢من سورة النحل .
(٢) الآية ٩٥ من سورة النحل .
(٣) الآية ٣٤ من سورة الاسراء .
(٤) الآية ١٢ من سورة الروم .
(٥) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .
(٦) الآيات ١٣١ ـ ١٣٣ من سورة الأنعام .

بأنفسهم ، وأن الله سميع عليم)[١] .

وقال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ **وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون** ﴾[٢] .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة الحج : ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور** ﴾[٣] .

عود إلى بدء

استحباب الدعاء والاسترجاع عند الموت : -

بعد الفراغ من الكلام عن أحكام الديون عامة ، وعن ديون الميت خاصة ، نواصل مسيرتنا عما يتعلق بما بعد الموت ، وما يستحب أن يقوله المصاب بعد وقوع الموت .

يروى أحمد ومسلم عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم آجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها ، إلا آجره الله تعالى فى مصيبته وأخلف له خيرا منها)[٤] قالت : (فلما توفى أبو سلمة قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ ، فأخلف الله لى خيرا منه رسول الله ﷺ) .

وفى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : (إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته : قبضتم ولد عبدى فيقولون : نعم . فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون : نعم . فيقول : فماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع . فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد)[٥] .

● وفى البخارى عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : (يقول الله تعالى : ما لعبدى المؤمن عندى جزاء - إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه - إلا الجنة)[٦] .

وعن ابن عباس رضى الله عنه ، فى قول الله تعالى : ﴿ **الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾[٧] . قال : أخبر الله عز وجل : (أن المؤمن إذا سلم الأمر لله ورجع واسترجع عند المصيبة كتب له ثلاث خصال من الخير : الصلاة من الله والرحمة وتحقيق سبيل الهدى) .

استحباب الإعلام بموته : -

استحب الفقهاء اعلام أهل البيت وقرابته واصدقائه واهل الصلاح بموته ليكون لهم أجر المشاركة فى تجهيزه .

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الانفال .
(٢) الآية ٣ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٣٨ من سورة الحج .
(٤) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٤. وابن ماجه فى الجنائز : ٥٥. والامام أحمد فى ٦ : ٣٠٩ ، ٣٢١ .
(٥) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٣٦. والامام أحمد فى ٤ : ٤١٥ .
(٦) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٦. والامام مالك فى الجنائز : ٣٩. والامام أحمد فى ٢ : ٤١٧ ، وفى ٣ : ٤٤٣ ، وفى ٤ : ٢٣٧ ، وفى ٥ : ٢٥٣.
(٧) الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة البقرة .

وذلك لما رواه الجماعة عن أبي هريرة رضي الله عنه ان النبي ﷺ (نعى للناس النجاشي في اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف أصحابه وكبر عليه أربعا)[١].

● وروى احمد والبخارى عن أنس رضى الله عنه : (أن النبي ﷺ نعى زيدا وجعفرا وابن رواحة قبل أن يأتيه خبرهم)[٢].

وقال البيهقى : وبلغني عن مالك بن أنس أنه قال : لا أحب الصياح لموت الرجل على أبواب المساجد ولو وقف على حلق المساجد فأعلم الناس بموته لم يكن به بأس .

تحريم النياحة على الميت :-

النياحة على الميت : هى رفع الصوت بالبكاء عليه . . فقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة مصرحة بتحريمها :

● عن رسول الله ﷺ أنه قال : (النائحة إذا لم تتب قبل موتها : تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب)[٣].

وعن ام عطية قالت : (أخذ علينا رسول الله ﷺ الا ننوح)[٤] . رواه البخارى ومسلم .

● وعن أبي موسى رضى الله عنه قال : (أنا برىء ممن منعه رسول الله ﷺ . . ان رسول الله ﷺ برىء من الصالقة والحالقة والشاقة)[٥].

[الصالقة : هى التى ترفع صوتها بالندب والنياحة ، والحالقة ، هى التى تحلق رأسها عند المصيبة ، والشاقة هى التى تشق ثوبها]

● وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : (أغمى على عبدالله بن رواحة فجعلت أخته تبكى : واجبلاه واكذا ، واكذا (تعدد عليه) فقال حين أفاق : ما قلت شيئا إلا قيل لى : أنت كذلك ؟)[٦]. رواه البخارى وزاد فى رواية . (فلما مات : لم تبك عليه) .

ومن هنا كان واجبا على المسلم قبل موته أن يوصى ويبرأ من كل ما يخالف سنة رسول الله ﷺ ، حتى لا يقع تحت طائلة المسئولية . فإن كان يرضيه النياحة ولا ينهى من ينوح قبل موته راضيا بذلك : وقع فى المسئولية بعد الموت .

عن أبي موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الميت ليعذب ببكاء الحى : إذا قلت : واعضداه ، وا تعساه ، واناصراه ، واكاسياه . جند الميت فقيل له : أناصرها أنت ؟ أكاسيها أنت ؟) . رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد .

---

(١) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٢٧ ، ٧٢ . والبخارى فى الجنائز : ٤ ، ٥ . ومسلم فى الجنائز : ٦٣. وأبو داود فى الجنائز : ٥٨.

(٢) أخرجه البخارى فى المناقب : ٢٥ ، وفى فضائل أصحاب النبى : ٢٥ ، وفى المغازى : ٤٤.

(٣) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٢٩. وابن ماجه فى الجنائز : ٥١. والامام احمد فى ٥ : ٣٤٢- ٣٤٤ .

(٤) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٤٦. ومسلم فى الجنائز : ٣١. والنسائى فى الجنائز : ١٥. والامام أحمد فى ٣ : ١٩٧ ، وفى ٥ : ٨٤ ، ٨٥.

(٥) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٣٨. ومسلم فى الايمان : ١٦٨ .

(٦) أخرجه البخارى فى المغازى : ٤٤.

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (اثنتان فى الناس هما بهم كفر : الطعن فى النسب والنياحة على الميت)[١] . رواه مسلم .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة من الكفر بالله : شق الجيب ، والنياحة ، والطعن فى النسب) . رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تصلى الملائكة على نائحة ولا حرنة)[٢] . رواه أحمد وإسناده حسن .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن هذه النوائح يجمعن يوم القيامة صفين فى جهنم : صف عن يمينهم وصف عن يسارهم فينبحن على أهل النار كما تنبح الكلاب) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

● وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : (لعن رسول الله ﷺ النائحة والمستمعة)[٣] رواه ابو داود وليس فى اسناده من ترك .

● وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : (لما مات أبو سلمة قلت : غريب وفى أرض غربة لأبكينه بكاء يتحدث عنه . . فكنت وقد تهيأت للبكاء عليه ، إذ أقبلت امرأة تريد أن تساعدنى فاستقبلها رسول الله ﷺ فقال : أتريدين أن تدخلى الشيطان بيتا اخرجه الله منه ؟ فكففت عن البكاء ، فلم أبك)[٤] . رواه مسلم .

● وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية)[٥] . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه .

● وعن أسيد بن أبى أسيد التابعى عن امرأة من المبايعات قالت : (كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ فى المعروف الذى أخذ علينا : الا نخمش وجها ولا ندعو ويلا ولا نشق جيبا ولا ننشد شعرا)[٦] . رواه ابو داود .

وعن أبى امامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : (لعن الخامشة وجهها والشاقة جيبها والداعية بالويل والثبور)[٧] . رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

الإحداد على الميت

وهذا الاحداد متعلق بالنساء . . ومعناه : ترك ما تتزين به المرأة من الحلى والكحل والحرير والطيب والخضاب .

(١) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار : ٢٧ . ومسلم فى الايمان : ١٢١ ، وفى الجنائز : ٢٩ . والترمذى فى الجنائز : ٢٣ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٩١ ، ٣٣٧ ، ٥٣١ ، وفى ٥ : ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٢) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٣٦٢ .

(٣) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٢٥ . والامام أحمد فى ٣ : ٦٥ .

(٤) أخرجه مسلم فى الجنائز : ١٠ .

(٥) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ . ومسلم فى الايمان : ١٦٥ . والترمذى فى الجنائز : ٢٣ ، ٢٥ . والنسائى فى الجنائز : ١٧ ، ١٩ ، ٢١ . وابن ماجه فى الجنائز : ٥٢ . والامام أحمد فى : ٣٨٦ ، ٤٣٢ ، ٤٤٢ ، ٤٥٦ ، ٤٦٥ .

(٦) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٢٥ .

(٧) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٥٢ ، وفى المناسك : ٥٦ ، والامام أحمد فى ٤ : ١٥ .

وأقصى مدة للاحداد على غير الزوج : ثلاثة أيام ، بشرط أن يأذن لها زوجها بذلك فإن لم يأذن لها : كان ذلك غير جائز .

● روى الجماعة (إلا الترمذى) عن أم عطية أن النبى ﷺ قال : « لا تحد امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج : فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشرا ، ولا تلبس ثوبا مصبوغا إلا ثوب عصب (برود يمانية) . ولا تكتحل ولا تمس طيبا ولا تختضب ولا تمتشط إلا إذا طهرت تمس نبزقا من قسط أو ظفار)[1] (نوعان من العود الذى يتطيب به) .

والنبزق : القطعة .

أى أنه يجوز وضع الطيب عند الغسل من الحيض .

وهكذا يتبين أن مدة الاحداد على وفاة الزوج أربعة أشهر وعشرة أيام أى مدة عدة الوفاة ، وإنما كان الأمر كذلك بالنسبة للزوج فقط غرفانا له ومراعاة لحقه .

صنع الطعام لأهل الميت : ـ

استحب الشارع : صنع الطعام لأهل الميت لأنه من باب البر والتقرب إلى الأهل والجيران .

لما مات جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : (اصنعوا لآل جعفر طعاما فإنه قد أتاهم أمر يشغلهم)[2] رواه ابو داود وابن ماجه والترمذى وقال : حسن صحيح .

قال الشافعى : واحب لقرابة الميت أن يعملوا لأهل الميت فى يومهم وليلتهم طعاما يشبعهم فإنه سنة وفعل أهل الخير .

واستحب العلماء الالحاح عليهم ليأكلوا ، لئلا يضعفوا بتركه : استحياء أو لفرط جزع .

واتفق الأئمة على كراهة صنع اهل الميت طعاما للناس يجتمعون عليه لما فى ذلك من زيادة المصيبة عليهم وشغلا لهم لشغلهم وتشبها بصنيع أهل الجاهلية : لحديث جرير ، قال : (كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنيعة الطعام بعد دفنه : من النياحة)[3] . وذهب بعض العلماء إلى التحريم .

قال ابن قدامة . . فإن دعت الحاجة إلى ذلك : جاز ، فإنه ربما جاءهم من يحضر بيتهم من القرى والأماكن البعيدة ويبيت عندهم ، ولا يمكنهم إلا أن يضيفوه .

سكرة الموت : ـ

﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾[4] .

قال رسول الله ﷺ وهو يعالج سكرات الموت :

(سبحان الله ! إن للموت لسكرات)[5] .

هذه كلمة نسوقها لترقيق القلوب إذا قست ، وتذكرة للعيون إذا جمدت . .(فإن الذكرى تنفع المؤمنين) .

---

(١) أخرجه النسائى فى الطلاق : ٦٤ ، ٦٥. وابو داود فى الطلاق : ٤٦. والامام احمد فى ٦ : ٣٠٢.

(٢) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٢١. وابن ماجه فى الجنائز : ٥٩.

(٣) أخرجه الامام احمد فى ٢ : ٢٠٤.

(٤) الآية ١٩ من سورة ق .

(٥) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٦٤. والترمذى فى الجنائز : ٧. والامام أحمد فى ٦ : ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ١٥١.

● وروى البراء بن عازب رضى الله عنه قال : (خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ، ولم يلحد بعد ، فجلس رسول الله ﷺ ، وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وبيده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه وقال : استعيذوا بالله من فتنة القبر ومن عذابه (مرتين أو ثلاثا) ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا : نزلت إليه ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت فيجلس عند رأسه ويقول : أيتها النفس المطمئنة الزاكية أخرجى إلى مغفرة الله ورضوانه ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من الشفاة فيأخذونها ولا يدعونها فى يده طرفة عين فيجعلونها فى ذلك الكفن والحنوط فيخرج منها أطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان بن فلان (بأحسن أسمائه) حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون لها ، فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة فيقول الله تعالى : اكتبوا كتابه فى يمينى وأعيدوه إلى الأرض : منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى . . فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، فيقولان له : ما دينك فيقول :دينى الاسلام فيقولان له : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ أهو رسول الله ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ فيقولان له : وما علمك به ؟ فيقول : قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقته . . قال فينادى مناد من السماء : صدق عبدى ، فافرشوا له من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة ، فيأتيه من ريحها وطيبها وروحها ورائحتها ويفسح له فى قبره مد البصر ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الرائحة فيقول له : أبشر ، للذى يسرك . . هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح فيقول : رب اقم الساعة ـ شوقا إلى ما يرى من النعيم)[1] .

وفى هذا المعنى يقول أحد الحكماء :

نحن فى عيشة الوصال الهنية نختلى الراح فى الكئوس الهنية
قد هجرنا دار الفناء وسرنا لدار . . . حياتها أبدية
آنستنا هياكل النور لما فارقتنا الهياكل البشرية
وسمعنا الخطاب : طيبوا فلا حزن عليكم ولا تخافوا منية
قد حظيتم برؤيتى وخطابى وسكنتم دار الجنان العلية

بقية الحديث :

قال : (وأما العبد الكافر إذا كان فى إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة نزلت إليه ملائكة سود الوجوه ومعهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت فيجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة : اخرجى إلى سخط الله وغضبه فتتفرق الأعضاء كلها فينزعها كما تنزع الفسود من الصوف المبلول : فتنقطع الأعضاء كلها فيأخذونها فيجعلونها فى تلك المسوح ويخرج منها رائحة منتنة كأنتن رائحة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما

(١) أخرجه ابو داود فى السنة : ٢٤. والترمذى فى الدعوات : ١٣٢ . والامام احمد فى ٤ : ٢٨٧ ، وفى ٦ : ٨١ ، ٣٦٢.

هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : هو فلان ابن فلان (بأقبح اسمائه) حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون ، فلا يفتح له . . ثم قرأ رسول الله ﷺ :«لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط»ويقول الله تعالى : (اكتبوا كتابه فى سجين ثم تطرح روحه طرحا . . ثم قرأ رسول الله ﷺ : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .

فتعاد روحه فى جسده ثم يأتيه ملكان فيجلسانه ، ويقولان له من ربك فيقول : هاه ! هاه لا أدرى : فيقولان له : ما دينك : فيقول هاه ! هاه ! لا أدرى فيقولان له : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ، فيقول هاه ! هاه ! لا أدرى فينادى مناد من السماء : كذب عبدى فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحو له بابا الى النار . . . فيدخل عليه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف عليه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح فيقول له : أبشر بالذى يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد . . فيقول : من أنت . فيقول : أنا عملك الخبيث السيء فى دار الدنيا .

فيقول : رب لا تقم الساعة) .

مناجاة

أيا من كلما نودى أجابا ومن بجلاله ينشى السحابا

وكلم فى الدجى موسى بلطف كلاما ثم ألهمه الخطابا

ويامن رد يوسف بعد بُعدٍ وكان أبوه ينتحب انتحابا

ويامن خص أحمد واصطفاه وأعطاه الرسالة والكتابا

وقربه وسماه حبيبا وأعتق من شفاعته الرقابا

لك الفضل المبين على عطاء مننت به وضاعفت الثوابا

روضة روحانية

كثيرا ما تنغمس النفس فى ماديات الحياة فتشعر بظلمة قاتمة دكناء وتحتاج عندئذ إلى ما يبدد عنها غياهب ظلماتها . . وليس هناك ما يبدد غياهب هذه الظلمات إلا ذكر الله . . قال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾[1] .

قال أحد الحكماء فى مناجاة الندم والتوبة : -

واحسرتى : واشقوتى من يوم نشر كتابيه !

واطول حزنى : إن أكن أوتيته بشماليه !

وإذا سئلت عن الخطايا ماذا يكون جوابيه !

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد .

واحرّ قلبى : أن يكون مع القلوب القاسيه !
كلا . ولاقدمت لى عملا ليوم حسابيه !
بل إننى : لشقاوتى وقساوتى وعذابيه !
بارزت بالزلات فى أيام دهر خاليه !
من ليس يخفى عنه من قبح المعاصى خافيه !
أستغفر الله العظيم وتبت من أفعاليه !
فعسى الاله يجود لى بالعفو ثم العافيه .

عظة وعبرة : -

فعليك يأأخى بالاخلاص لله وإياك والرياء فإنه يضيع الثواب ويحبط العمل :

روى عدى بن حاتم رضى الله عنه عن النبى ﷺ انه قال : (يؤتى يوم القيامة بناس إلى الجنة ، حتى إذا دنوا منها ، واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها : نودوا : أن اصرفوهم عنها ، فلا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها فيقولون : ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا : كان أهون علينا .

قال : ذلك أردت بكم . . كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالمعاصى ، وإذا لقيتم الناس : لقيتموهم مخبتين ، تراءون الناس ، بخلاف ما تعطونى من قلوبكم . . هبتم الناس ولم تهابونى وأجللتم الناس ولم تجلونى . . . فاليوم أذيقكم أليم عذابى مع ما حرمتكم من ثواب الآخرة) .

فاللهم ارزقنا الاخلاص فى القول والعمل وأدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين وقنا خزى الدنيا وعذاب الاخرة .

رباه ! !

أيامن جل عن كيف ، وأين وعن ند وعن ولد ووالد
ملكت الكائنات بحسن صنع ولانت من مخافتك الجلامد
أذنت لها تكون فاستكانت وأنت على جميع الخلق شاهد
وكنت بحيث لاكون وعون وحاشا أن تحيط بك المعاهد
وأنت بحيث أنت وليس أين ولا كيف تمثله الشواهد
أحطت بجملة الأشياء علما وأنت لكل ما فيها مراصد
ويامن ماله فى الملك ثان ولا مثل وليس له معاضد
فقد عودتنا الاحسان لطفا وصعب عندنا قطع العوايد

اعلم - يأأخا الاسلام - أن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل .

فيأأخى :

(جدد السفينة : فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد : فإن السفر طويل ، وأخلص العمل : فإن الناقد بصير وخفف الحمل : فإن العقبة كئود)

إن النفس لأمارة بالسوء

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
فالنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه : ينفطم
فراعها وهى فى الأعمال سائمة ... فإن هى استحلت المرعى فلا تهم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة
من حيث لم يدر أن السم فى الدسم

يرحم الله أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد طلب معاوية بن أبى سفيان من ضرار الصدائى أن يصفه له ، فقال : ياضرار صف لى عليا ، قال : أعفنى ياأمير المؤمنين ، قال معاوية : لتصفنه . قال ضرار : أما إذا لابد من وصفه ، فكان والله : بعيد المدى ، شديد القوى . . . يقول فصلا ، ويحكم عدلا . . يتفجر العلم من جوانبه . وتنطق الحكمة من نواحيه . . يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته . . كان ـ والله ـ غزير العبرة طويل الفكرة . . يقلب كفه ، ويخاطب نفسه . . يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن . . كان فينا : كأحدنا . . يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ونحن ـ مع تقربته ايانا وقربه منا ـ لا نكاد نكلمه لهيبته ولا نبتدئه : لعظمته . . . يعظم اهل الدين ، ويحب المساكين . . لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . . وأشهد : لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه متمثلا فى محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء اليتيم ، يقول : يادنيا : غرى غيرى . . أبى تعرضت ؟ أم إلى تشوقت ؟ هيهات هيهات ! لقد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها فعمرك قصير وخطرك حقير . . . آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق !

فبكى معاوية رحمه الله وقال : يرحم الله أبا الحسن : لقد كان ذلك . . فكيف حزنك عليه ياضرار؟ قال : حزن من ذبح واحدها فى حجرها ؟ !

يارب ! : ـ

حاسبت نفسى لم أجد لى صالحا ... إلا رجائى رحمة الرحمن
ووزنت أعمالى علىّ فلم أجد ... فى الأمر إلا خفة الميزان
وظلمت نفسى فى فعال كلها ... ويحى ـ إذن ـ من وقفة الديان
ياأيها الاخوان ! إنى راحل ... مهما يطل عمرى فإنى فان
يارب : إن لم ترض إلا ذا تقى ... من للمسىء المذنب الحيران ؟؟

أخا الاسلام :

الدنيا إلى شتات وكل حىٍّ إلى ممات !

وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجال فزالوا . . والجبال جبال

سبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

وقال الجنيد ـ رحمه الله ـ دخلت على السرى السقطى عند الموت ، وكان أحرق قلبه الخوف فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال : كيف أشكو إلى طبيبى ما بى ؟ والذى أصابنى من طبيبى ؟ . فأخذت المروح لأروح عليه « فقال : كيف يجد ريح المروحة من قلبه يحترق ؟ ثم أنشد قائلا :

القلب محترق ، والدمع مستبق والقلب مجتمع والعبد مفترق
كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الأسى و الشوق والقلق !

يرحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الذى كان يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإن مما يهون عليكم الحساب غدًا : ان تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعرض الأكبر : ﴿ يومئذ تعرضون ، لا تخفى منكم خافية ﴾[1] .

خطرات

قال منصور بن عمار رحمه الله : خرجت ذات ليلة مظلمة ، فسمعت من يناجى الله تعالى ويقول :

إلهى ! وعزتك وجلالك : ما أردت بمعصيتى مخالفتك ! ولقد عصيتك ـ إذ عصيتك ـ وما أنا بمكانك جاهل ، ولكن خطيئتى عرضت علىّ ، وسولت لى نفسى أعانى عليها شقائى ، فغرنى سترك المرخى علىَّ ، فعصيتك بجهلى وخالفتك لشقوتى ، فمن يستنقذنى من عذابك وبحبل من أعتصم ، إن قطع حبلك عنى ؟

وأحسرتاه ! إذا قيل للمخفين : جوزوا وللمثقلين : حطوا . . أترانى : مع المخفين أجوز ؟ ام مع المثقلين أحط ؟ ويلى ! كلما كبر سنى : كثرت ذنوبى . . ويلى : كم أتوب ؟ وكم أدعو ؟ أما آن لى أن أستحى من علام الغيوب ؟ ! ما اعتذارى ، وأمر ربى عصيت ؟

ما اعتذارى ، وأمر ربى عصيت حين تبدى صحائفى ما أتيت
ما اعتذارى إذا وقفت ذليلا قد نهان وما أرانى انتهيت
ياغنيا عن العباد جميعا وعليما بكل ما قد سعيت
ليس لى حجة ولا لى عذر فاعف عن زلتى وما قد جنيت

ثم قال :

يارب أنت أمرتنى ونهيتنى وأريتنى طرق الضلالة والهدى
وعلمت انى لا أفر من الذى قدرت لى . . إن كان خيرا أو ردى
وسلكت بى ما شئت للشيء الذى فى الخلق ما أخفيته عنهم سدى
فاقبل بفضلك توبتى لك مخلصا وارحم فإنى قد بسطت لك اليدا
واصفح عن العبد الذى ياسيدى قد جاء معترفا وعاش موحدا

(١) الآية ١٨ من سورة الحاقة .

إذا علمت هذا يأخى : فصمُ عن الدنيا وافطر على الموت واعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة ؟ حقيقة لا مفر منها . وهكذا يتطرق بنا الحديث هل يجوز اعداد الكفن والقبر قبل الموت .

والجواب على ذلك : نعم

فقد جاء في الحديث (أن امرأة أهدت بُردة إلى النبى ﷺ وطلبها أحد أصحابه فأعطاه إياها فقال له الصحابة : ما أحسنت . . لقد لبسها النبى ﷺ . . وهو فى حاجة إليها فقال الصحابى والله ما سألته لألبسها إنما سألته لتكون كفنى قال سهل رضى الله عنه ـ : فكانت كفنه) .

ويستفاد من هذا الحديث : جواز تحصيل ما لابد منه للميت ـ من كفن ونحوه ـ وفى حال حياته ويلتحق به : حفر القبر .

وقد حفر جماعة من الصالحين قبورهم قبل الموت .

قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : لا بأس أن يشترى الرجل موضع قبره ويوصى أن يدفن فيه .

وروى عن عثمان وعائشة وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم : أنهم فعلوا ذلك .

فائدة

يستحب للمؤمن أن يسأل الله أن يقبض روحه فى أحد الحرمين الشريفين : لما رواه البخارى عن حفصة رضى الله عنها ، أن عمر رضى الله عنه قال : (اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك واجعل موتى فى بلد رسولك .

فقلت : أنَّى هذا ؟ فقال : يأتينى به الله إن شاء الله)[١] . وروى الطبرانى عن جابر أن النبى ﷺ قال : (من مات فى أحد الحرمين : بعث آمنا يوم القيامة) .

أجر من مات له ولد

اعلم أن الصبر على فقد الأولاد ـ ذكورا كانوا أم إناثا ـ له عند الله من الأجر ما يقول فيه ربنا تبارك وتعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[٢] ،

روى البخارى عن أنس عن النبى ﷺ قال : (ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة ، بفضل رحمته إياهم)[٣] .

وروى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النساء قلن للنبى ﷺ : اجعل لنا يوما . فوعظهن . وقال : (أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد : كانوا لها حجابا من النار ، قالت

---

(١) اخرجه الامام مالك فى الجهاد : ٣٤.

(٢) الآية ١٠ من سورة الزمر .

(٣) أخرجه البخارى فى العلم : ٣٦ ، وفى الجنائز : ٦ ، ٩١. ومسلم فى البر : ١٥٣. والترمذى فى الجنائز : ٦٤. وابن ماجه فى الجنائز : ٥٧. والنسائى فى الجنائز : ٢٥. والامام أحمد فى ١ : ٣٧٥ ، ٤٢٩ ، ٤٥١ ، وفى ٤ : ١٨٣ ، ١٨٤ ، وفى ٥: ١٥١ ، ١٥٣.

امرأة : واثنان ؟ قال : واثنان ؟)[١] .

أعمارنا قصيرة : -

يــامــن بـدنـيـاه اشـتـغـل وغـرّه طـول الأمـل
المـوت يـأتى بـغـتـة والـقـبـر صـنـدوق الـعـمـل

ما أقصر الاعمار !

كما أخبر بذلك الصادق المعصوم ﷺ : فقد روى الترمذى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم : من يجوز ذلك)[٢] .

فياأخى : اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وغناك قبل فقرك وحياتك قبل موتك .

الدنيا سجن المؤمن

ما أجمل لقاء الله على الايمان والتقوى ! ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾[٣] . ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون)[٤] .

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم ﴾[٥] .

وروى البخارى ومسلم عن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مرّ عليه بجنازة ، قال : (مستريح أو مستراح منه ! فقالوا : يارسول الله : ما المستريح وما المستراح منه ؟ فقال : العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)[٦] .

خاتمة

من المناسب أن نختم بحثنا هذا بأحاديث عن رسول الله ﷺ تملأ النفس طمأنينة وسكينة ومعرفة بالله عندما يحل القضاء ، وينزل البلاء بالعبد :

---

(١) أخرجه البخارى فى العلم : ٣٦ ، وفى الاعتصام : ٩ . ومسلم فى البر : ١٥٢ . والترمذى فى البر : ١٣ . والامام أحمد فى ٣ ٣٤ ، ٧٢ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١ . وابن ماجه فى الزهد : ٢٧ .

(٣) الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة يونس .

(٤) الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة الأنبياء .

(٥) الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة فصلت .

(٦) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٤٢ . ومسلم فى الجنائز : ٦١ . والنسائى فى الجنائز : ٤٨ ، ٤٩ . والامام مالك فى الجنائز : ٥٥ . والامام أحمد فى ٥ : ٢٩٦ ، ٣٠٢ - ٣٠٤ .

عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ـ ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والقرآن حجة لك أو عليك .. كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها)[1] . رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد خيرا وأوسع من الصبر)[2] . رواه البخارى ومسلم فى حديث تقدم .

● وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (أربع لا يصبن إلا بعجب : الصبر وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وقلة الشىء) . رواه الطبرانى والحاكم .

وعن علقمة قال : قال عبدالله : (الصبر : نصف الايمان ، واليقين : الايمان كله) رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (عجبا لأمر المؤمن : إن أمره له كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن .. إن اصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[3] . رواه مسلم .

● وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : (إن الله عز وجل قال ياعيسى : إنى باعث من بعدك أمة : إن أصابهم ما يحبون حمدوا الله وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم فقال : يارب كيف يكون هذا ؟ قال : أعطيهم من حلمى وعلمى) . رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى .

وروى عن سخبرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أعطى فشكر وابتلى فصبر وظلم فاستغفر وظلم فغفر ثم سكت ، فقالوا يارسول الله : ماله ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) . رواه الطبرانى .

صلوات الله وسلامه عليك ياسيدى يارسول الله وعلى آلك وأصحابك أجمعين !

وهكذا عشنا فى رحاب قوله تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ .

من دلائل القدرة

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ

(١) أخرجه الدارمى فى الوضوء : ٢ ، والامام أحمد فى ٥ : ٣٤٢ ـ ٣٤٤ . ومسلم فى الطهارة : ١ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٥٠ ، وفى الرقاق : ٢٠ . ومسلم فى الزكاة : ١٢٤ . وأبو داود فى الزكاة : ٢٨ . والترمذى فى البر : ٧٧ . والدارمى فى الزكاة : ١٨ . والامام مالك فى الصدقة : ٧ . والامام أحمد فى ٣ : ١٢ ، ٩٣ .

(٣) أخرجه مسلم فى الزهد : ٦٤ . والامام أحمد فى ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، وفى ٦ : ١٥ ، ١٦ .

جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

تفسير المفردات

الطرائق : السموات واحدها طريقة، أى: مطروق بعضها فوق بعض ، من قولهم: طارق بين ثوبين : إذا لبس ثوبا فوق ثوب ، قال الخليل والزجاج : وهذا كقوله: ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ﴾[1] وقوله : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ﴾[2] .

الخلق : أى المخلوقات التى منها السموات السبع ، غافلين : أى مهملين ﴿ **يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير** ﴾ .

السماء : هنا السحاب

بقدر : أى بتقدير خاص وهو مقدار كفايتهم ، فأسكناه فى الأرض أى: جعلناه ثابتا قارا فيها .

الذهاب : الازالة إما بإخراجه من المائية أو بتغويره فى الأرض بحيث لا يمكن استخراجه .

والشجرة : هى الزيتون وطور سيناء : هو جبل الطور الذى ناجى فيه موسى ربه ويسمى طور سينين أيضا .

والصبغ : ما يصبغ فيه الخبز أى يغمس فيه للائتدام قال فى المغرب : يقال صبغ الثوب بصبغ حسن ، وصباغ حسن ، ومنه الصبغ والصباغ من الإدام لأن الخبز يغمس فيه ويلون به كالخل والزيت .

التفسير

بعد ذكر الله تعالى مبدأ الانسان ومعاده فى قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من

(١) الآية ١٥ من سورة نوح .
(٢) الآية ١٢ من سورة الطلاق .

طين . إلى قوله . . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ أقام الأدلة الباهرة والحجج القاطعة والبراهين الساطعة على قدرته التى ظهرت أثارها ظهور الشمس فى ضحاها فمن تلك الأدلة قوله جل جلاله ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ والمراد بها السموات العلا وسميت طرائق لانها متطارقة اى متطابقة يطابق بعضها بعضا أو سميت كذلك لانها طرق الملائكة تغدو فيها وتروح قال تعالى عن تلك السموات :

﴿ تبارك آلذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين)[١] .

وقال جل شأنه : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾[٢]

وقال تبارك اسمه ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾[٣]

وقال سبحانه : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٤] .

وقال جل شأنه : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾[٥] .

إن الذى خلق السموات العلا وهذه حقيقة لا مراء فيها قادر بالأولى أن يعيد الأجسام بعد الموت ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا ﴾[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ أى ما كنا مهملين شأنا من شئون المخلوقات فإن الله سبحانه أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[٧] .

سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير . يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾[٨] .

إن العناية الالهية قد احاطت بدقائق الاشياء وحقائقها . ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[٩] .

الشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطاياه

(١) الايات ١ ـ ٥ من سورة الملك .
(٢) الآية ٤٧ من سورة الذاريات
(٣) الآية ٣٨ من سورة ق .
(٤) الآية ٥٧ من سورة غافر .
(٥) الآيتان : ١٥ ، ١٦ من سورة نوح .
(٦) الآية ٤٤ من سورة فاطر .
(٧) الآية ٥٩ من سوة الانعام .
(٨) الآيتان ١ ، ٢ من سورة سبأ .
(٩) الاية ٦ من سورة هود .

الطير سبحه والوحش مجده والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف حمدا فى خلاياه
والناس يعصونه جهرا فيسترهم والعبد ينسى وربى ليس ينساه

ثم يسوق القرآن الكريم دليلا آخر على القدرة الفائقة والعظمة المطلقة وذلك فى إنزال الماء من السماء ، أى السحاب وإسكانه الأرض فيقول سبحانه : ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون** ﴾

فالماء نعمة كبرى من نعم الله تعالى ﴿ **أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون** ﴾[١]

ثم هل تأملت معنى قوله تعالى ﴿ **بقدر** ﴾ إنها كلمة تعطيك معنى النظام الدقيق الذى قام عليه الكون كما تعطيك معنى العناية والصيانة وحسن التدبير واتقان الصنع قال تعالى : ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾[٢] .

فهذا الماء الذى ينزل من السماء قد أعد بعناية فائقة فلا هو بالقليل المخل والذى لا يفى بالغرض ولا هو بالكثير المتلف والطوفان المغرق فسبحان من قال وخلق كل شيء فقدره تقديرا وجل شأنه إذ يقول ﴿ **إنَّا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾[٣]

ثم تتجلى نعمة الله على عباده فى قوله ﴿ **وإنا على ذهاب به لقادرون** ﴾ فالله تعالى لا يقهره أحد على فعل شيء ولولا رحمته بنا وتجاوزه عن سيئاتنا لذهب بهذا الماء الذى أسكنه جوف الأرض وذلك بإمساك السماء عن المطر أو بذهابه غائرا فى الأرض فلا تجد له أثرا فى بئر أو عين ﴿ **قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين** ﴾[٤] .

فلو أن هذى الريح ثارت وأعصرت أفى كونكم من يمسك الريح ناهيا
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم سوى الله يجريه كما شاءراويا

يقول العلم فى حقائقه الثابتة عن الظواهر الجوية : ـ

إن الظواهر الجوية لقيت تنويها كثيرا فى القرآن الكريم ولم يكن بد من أن يكون ما ورد فيها من الآيات مجملا ، إذ التفصيل غير ممكن ولو أمكن لمافقه العقل حين نزل القرآن منه شيئا بل لقام حائلا دون قبول العقل إذ ذاك رسالة القرآن . والعقل لا يزال فى حيرة من حقيقة كثير من تلك الظواهر ، فقد وجد الانسان أن الجو من أعوص المشاكل وان دراسته من أصعب الأمور وصعوبتها ليست راجعة فقط إلى تعقد مسائله ولكن إلى ضرورة توحيد جهود الأمم فى القيام بتلك الدراسة لانها تتعلق بظواهر عامة تشمل الأرض بأسرها لا إقليما خاصا منها كالرياح ونشوئها وتصريفها والسحاب ونشوئه وتسخيره .

---

(١) الآيات ٦٨ ـ ٧٠ من سورة الواقعة .
(٢) الآية ٢١ من سورة الحجر .
(٣) الآية ٤٩ من سورة القمر .
(٤) الآية ٣٠ من سورة الملك .

فإن الرياح التى تهب على بلد أو السحب التى تصب ماءها فيه ليست مناشئها فى ذلك البلد ولكن فى خارجه من الأقطار القريبة أو البعيدة وإذا كان الانسان قد عرف بصورة عامة العوامل التى تتسبب عنها الرياح فإن تحليل أى ريح معينة إلى عواملها الخاصة من الناحية الكيفية بل من الناحية الكمية ، من أصعب الأمور ، وهذا التحليل حين يمكن لا يتحقق إلا بواسطة معلومات شتى يحصل عليها الانسان بأرصاد شتى فى أقطار شتى والارصاد الجوية إذا أمكنت بانتظام قريبا من سطح الأرض فالقيام بها بانتظام بعيدا عن سطح الأرض فى المناطق العليا من الجو لا يصبح فى مقدور الانسان وإن كان الانسان الآن فى طريقه إلى التمكن منها .

والتفسير الذى وصل إليه الانسان ليس تفسيرا مفصلا للآيات الكونية الواردة فى الرياح والسحاب وغيرهما فهو تفسير مجمل تفسير يحوى إشارات إلى أمهات الحقائق الجوية التى كشف عنها العلم الحديث .

ولنمهد لذلك بشرح مختصر لكيفية تكون السحاب والمطر والبرد والرعد والصواعق :

السحاب

هو بخار ماء تكاثف فى طبقات الجو العلوية كما يتكاثف الضباب القريب من الأرض ولابد لتكون السحاب من شرطين أساسيين يجب توافرهما فى الهواء العلوى : الأول أن يكون الهواء فوق المشبع بالبخار ، والثانى أن يكون الهواء محتويا عددا كبيرا من النويات يتكاثف عليها البخار . وكلما كانت الرطوبة فى الهواء أكثر كان مدى التبريد المطلوب لزيادة التشبع أصغر ، فهناك إذن عاملان يسهلان توافر شرط زيادة التشبع الاساسى فى تكوين السحاب : تبريد الهواء وارتفاع نسبة الرطوبة فيه .

فتبريد الهواء فى المناطق العلوية من الجو يكفله أولا برودة الجو فى تلك المناطق وثانيا قلة الضغط فى المناطق الجوية العليا فإن الضغط الجوى يتناقص بالتدريج كلما زاد الارتفاع ولتناقص الضغط كلما زاد الارتفاع أثر بعيد فى تبريد الهواء الصاعد لأنه يتمدد أثناء صعوده ويزداد تمدده كلما صغر الضغط بالعلو فى المناطق التى يصير إليها فالهواء إذا صعد يبرد مرتين ، مرة باختلاطه بالهواء العلوى البارد ومرة بتمدده فى المناطق العلوية المخلخلة .

وقد تسخن كتل عظيمة من الهواء مرة واحدة فتصعد معاً حتى إذا بلغت الطبقات العلوية بردت بالتمدد وكونت سحباً عظيمة قاعدتها أفقية حيث ابتداء زيادة التشبع وحدودها الأخرى كالقباب المتلامسة المتدرجة فى العلو وهى الحدود التى وصلت إليها تلك الكتل فى تمددها ، هذا هو السحاب الركام ويكثر فى العواصف الرعدية ويكون عندئذ عظيم العمق عظيم الارتفاع .

وثالث عامل يكفل التبريد هو الاختلاط بالرياح الباردة الآتية من المناطق القطبية فإن الريح الدافئة المحملة بالبخار إذا التقت بريح باردة انخفضت درجة حرارة الاولى وارتفعت درجة حرارة الثانية ، لكن مقادير البخار فى الأولى كثيرا ما تكون فوق مقدرة الريحين ان تحملاها فى درجة الحرارة الناتجة أى كثيرا ما ينتج من اختلاط ريحين دافئة وباردة ، ريح واحدة فوق المشبعة ، وقد كان الريحان من قبل غير مشبعتين .

ورابع عامل يكفل التبريد هو الجبال وهذه تفعل فعلها بطريقين : طريق تبريد الرياح الأفقية التى تصطدم بأعاليها ، لأن أعالى الجبال الشامخة شديدة البرودة فتبرد الرياح إلى ما فوق التشبع وعندئذ يتكاثف السحاب المتكون ماء يسيل على جوانب الجبال . هذا طريق والطريق الثانى طريق تحويل مجرى

الريح إلى أعلى إذا اصطدمت الرياح الأفقية بالجبال دون أعاليها . فالرياح الساخنة أو المعتدلة الحرارة إذا اعترضتها الجبال غيرت مجراها ، وأرغمتها على الصعود إلى المناطق العلوية حيث يتكاثف بخارها سحابا ويتكاثف سحابها مطرا على أعالى تلك الجبال .

المطر

لكن تكون السحاب لا ينفع الناس شيئا إذا لم يكن فى الامكان أن ينزل ماؤه عليهم مطرا . وماء السحاب لا يمكن أن ينزل على الناس مطرا إلا إذا نمت قطيراته وأصبحت أثقل من أن يحملها أو يعوق نزولها الهواء . إن القطيرات السحابية خاضعة طبقا للجاذبية فهى تبدأ تسقط إلى الأرض بمجرد تكونها ، لكن الهواء ولو كان ساكنا يقاوم مرورها فيه . والناس لو تركوا إلى الجاذبية وحدها ما سقوا من السحاب قطرة ماء . إن الجاذبية إنما تنفع نفعها إذا تحولت القطيرات السحابية إلى قطرات مطرية .

وهذا التحول قد يسر الله أسبابه فى الرياح والجبال والكهربائية الجوية وإن كان العلم لم يحط بتفاصيل ذلك إلى الآن .

سبحانك اللهم أنت الواحد خلقت فقدرت وقسمت الأرزاق بين العباد فعدلت وأقسمت وقولك الحق فقلت: ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[1] .

وقلت : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حباً وعنباً . وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم ﴾[2] .

وقلت : ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً لنحيى به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسىّ كثيرا ﴾[3] . فتبارك الله أحسن الخالقين .

---

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الذاريات .
(٢) الآيات ٢٤ - ٣٢ من سورة عبس .
(٣) الآية ٤٨ ، ٤٩ من سورة الفرقان .

قوله تعالى ﴿ **فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون** ﴾

وهكذا تتجلى قدرة الخالق العظيم فى عالم النبات فمن الماء وغيره من العناصر أنشأ الله تعالى لنا ﴿ **جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ .[1]

سبحانك من خالق عظيم قلت وقولك الحق ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾[2] .

وسبحانك من خالق عظيم واحد فى ذاتك لا قسيم لك واحد فى صفاتك لا شبيه لك واحد فى أفعالك لا شريك لك كل الوجود على الوجود شاهد . . قلت وقولك الحق ﴿ **أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنابه حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون** ﴾[3] .

أنزلت من السماء ماء بقدر فأنشأت لنا به ﴿ **جنات ألفافا** ﴾ وحدائق غلبا وفاكهة وأبا وزينت الأرض بالنخيل والأعناب لنأكل منها ونتخذ منها رزقا حسنا ونتبادل المنافع فى بيعها وشرائها لتسير مواكب الحياة والكل يعيش فى رزقك ، وينعم بخيرك ، فأنت صاحب الانعام كله ، يا مبدع الكائنات ، ورافع السموات ، ومدبر الشأن وخالق الانسان ومعلمه البيان ، سبحانك أنت الواحد الديان .

استمع معى أيها العاقل الى كلمة العلم فى عالم النبات

تقول الحقائق العلمية : إن النبات يتغذى بمواد بسيطة من الهواء ومن الأرض ، فمن الهواء يأخذ الأكسجين وثانى أكسيد الكربون ، وأحيانا الأزوت ، ومن الأرض يأخذ الماء وبعض الأملاح خصوصا الأزوتات ، ولخلايا النبات كلها دخل طبعا فى كل هذا ، لكن محور هذا التغذى وهو تمثيل ثانى أكسيد الكربون ، لا يحدث إلا فى الأجزاء الخضراء من النبات سواء كانت الخضرة فى الساق أو الفروع أو الأوراق . لكن ما يحدث فى غير الأوراق ضئيل بالنسبة لما يحدث فى الأوراق لكثرتها ورقتها واتساع سطحها ، وإذن فمن الممكن أن يقال إن حياة النبات وحياة الحيوان المرتبطة بحياة النبات ، متوقفة كلها على تمثيل ثانى أكسيد الكربون فى الأوراق الخضراء .

إن النبات يبدأ حياته فى الغالب بذرة أو نواة توضع فى الأرض ، وتسقى بالماء فتنبت ، أى تنفلق ويخرج منها جذير يمتد إلى أسفل وسويق يمتد إلى أعلى تنشق عنه الأرض حاملا ورقتين صغيرتين خضراوين . هذا هو الدور الأول من حياة النبات ويصح أن يسمى بدور الانبات . لا تأخذ فيه الحبة أو النواة من الخارج إلا الماء والأكسجين أما ما عدا ذلك من الغذاء اللازم لتكوين الجذير والسويق

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤١
(٢) سورة الأنعام الآية ٩٩
(٣) سورة النمل الآية ٦٠

والورقتين فيستمد مما أودع الله الحب والنوى من مواد عضوية كالنشا قدرها الله بحيث تكفى لتكوين تلك الأعضاء . . وعلى الجذير والوريقتين تغذى النبات بعد ذلك ، فالجذير يمتص الماء وما فيه من أملاح ذائبة من الأرض والوريقات الخضراء تعمل عملين :

١ ـ تمتص الأكسجين من الهواء لاحراق الغذاء داخل خلايا النبات حرقا بطيئا وتطرد أكثر فضلات التغذى من ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء . هذه العملية عملية تنفسية ، وتجرى ليلا ونهارا وهى وإن كانت غير مقصورة على الورق إلا أنها فى الورق أفعل وأكثر .

٢ ـ تمتص ثانى أكسيد الكربون من الهواء فيتغير داخلها تغيرا كيماويا باتحاده مع الماء بواسطة الخضر اتحادا ينشأ عنه من ناحية مواد غذائية للنبات مثل السكريات والنشا ، تدور بصورة ما فى العصارة النباتية على الخلايا لتمثيلها مع ما يكون فى العصارة من أملاح وينشأ عنها من ناحية أخرى أكسجين بقدر ما كان فى ثانى أكسيد الكربون ، وهذا هو المقصود من قولهم إن النبات فى التمثيل الخضرى يحلل ثانى أكسيد الكربون فيأخذ الكربون ويطرد الأكسجين ، والواقع أنه لا يحلله ابتداء ولكن يركبه مع الماء تركيبا تنتج عنه مواد عضوية وأكسجين بقدر ما كان فى ثانى أكسيد الكربون . وهذا هو التمثيل الخضرى .

فمن هذا ترى أن جميع النباتات من شجر وزرع بعد دور الانبات إنما يخلقها الله من بين الوريقات الخضراء والجذير فالجذير يمتص الماء والأملاح . والوريقات تمتص الاكسجين وثانى أكسيد الكربون وتهضم ذلك كله ، أى تحوله إلى مواد معقدة نسبيا إلا أنها صالحة لتمثيل خلايا النبات إياها وتحويلها إلى الأجزاء النباتية التى يقتضيها نمو الجذير إلى جذر والسويق إلى ساق والوريقات إلى أوراق كثيرة ثم إذا جاء دور الاثمار إلى أزهار وحب وثمار .

ولكن هذا التركيب والنمو والبناء عمل عظيم لابد لاتمامه من طاقة فمن أين يأتى النبات بالطاقة اللازمة ؟ هو لا يأخذها من الغذاء كما يفعل الحيوان ولكن الله سبحانه وتعالى يرسلها له مسخرة فى ضوء الشمس يقع الضوء على المادة الخضراء فتمتص بعضه لتستعين بطاقته على تمثيل ثانى أكسيد الكربون والماء .

أى أنها تحول ما تمتصه إلى طاقة كيماوية كامنة فى نواتج التمثيل الخضرى التى يتغذى بها النبات بعد ، كما يتغذى الحيوان بنواتج هضم طعامه . لذلك كان التمثيل الخضرى لا يجرى الا نهارا فى حين أن التنفس يجرى نهارا وليلا ، وكان التمثيل الخضرى أقوى كثيرا فى الشمس منه فى الظل ، لأنه متوقف أيضا على مقدار ثانى أكسيد الكربون فى الهواء وهذا بالطبع ينقص بالتمثيل .

فالتمثيل الخضرى يتوقف بعد المادة الخضراء على ثلاثة أشياء : الضوء من ناحية وثانى أكسيد الكربون والماء من ناحية أخرى . أما الضوء فأنت من غير شك تنتظر أن يكون أفعل أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى هو البنفسجى وما فوقه ، لكن الأشعة البنفسجية وما فوقها ، التى هى أفعل أجزاء الضوء فى التصوير الشمسى وفى قتل الجراثيم ومسح الأصباغ ، ليس لها فى التمثيل الخضرى إلا نصيب ضئيل ، أما أفعل أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى فهو الضوء الأصفر .

وأما ثانى أكسيد الكربون فإن نسبته فى الهواء ضئيلة متغيرة حسب الأمكنة والفصول ، فقريبا من وجه الأرض مثلا تبلغ نسبته بالحجم من ١٢ : ١٣ فى ١٠,٠٠٠ ، وفى يوليو مثلا تبلغ نسبته من ٢,٧

إلى ٢,٩ ، وفى الشتاء من ٣ الى ٣,٦ فى كل ١٠,٠٠٠ وتزداد النسبة طبعا حيث يكثر الاحتراق أو التعفن أو التخمر ، لكن الرياح وانتشار الغازات كفيلان بمزج الهواء وتوزيع أجزائه على السواء . ومتوسط نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الهواء هى بالحجم نحو من ٣,٣ إلى ٣,٥ فى كل ١٠,٠٠٠ حجم من الهواء . هذه نسبة ضئيلة لكنها تقابل فى مجموع الهواء الجوى مقدارا هائلا من ثانى أكسيد الكربون قدروه بنحو ٢١٠٠ بليون كيلو جرام تحتوى على نحو ٥٦٠ بليون كيلو جرام من الكربون كلها مسخرة للنبات بالعوامل الدائبة على نشر الغاز فى الهواء . على أن هذا المقدار الهائل لا يكفى حياة النباتات الأرضية إلا نحو ثلاثين عاما . إن سرعة التمثيل الخضرى تختلف طبعا باختلاف النباتات واختلاف الظروف . لكنهم قدروا أن المتر المربع من الورق الأخضر فى الظروف المعدة ينتج بالتمثيل الخضرى من نصف جرام إلى جرام من المواد العضوية الجافة فى الساعة . فتصور المساحات الهائلة للورق الأخضر فى أشجار الأرض وزروعها وساعات عملها فى فصول نشاطها فى العام ، تدرك هول مقدار المواد العضوية التى يخلفها بالتمثيل الخضرى فى درجة الحرارة العادية كل عام .

صحيح أن هذه المواد تدخل فى عناصرها الأكسجين **والأيدروجين** وما إليهما بجانب الكربون . لكن مقدار الكربون اللازم لهذا المحصول قد قدروه بنحو ١٤ إلى ٢٢ بليون كيلو جرام آتية من نحو ٥٠ : ٨٠ بليون كيلو جرام من ثانى أكسيد الكربون . فلو لم يتجدد ثانى أكسيد الكربون فى الهواء بعمليات التنفس والتعفن والاحتراق لوقفت حياة النبات فى نحو ثلث قرن ووقفت بوقوفها كل حياة .

فانظر إلى عجيب صنع الله كيف جعل الموت ضروريا للحياة . وكيف خلق الحياة من نواتج التعفن والتحلل بعد الموت .

إن الله يخلق الأحياء من عناصر قليلة . لكن هذه العناصر محدودة المقدار فى الأرض ، يكفى أن بستنفد عنصر واحد منها فى جيل أو أجيال قليلة لتقف الحياة قاطبة على وجه الأرض فلم يكن بد لوجود مطلق الحياة على سطح الأرض من تعاقب الحياة والموت جيلا بعد جيل فى النبات والحيوان لتتجدد بموت جيل المادة التى يخلق الله منها الجيل الذى بعده . فالأكسجين يستمده الأحياء من الهواء ، فإذا ماتوا وتحولوا بالتعفن إلى ثانى أكسيد الكربون رده الله إلى الهواء مرة أخرى بفعل التمثيل الخضرى والكربون يستمده النبات من ثانى أكسيده من الجو . ويتغذى الحيوان بالنبات ثم يموت النبات فيحرق أو يتعفن ويتحول إلى ثانى أكسيد الكربون فيما يتحول إليه ويموت الحيوان فيدفن ويتعفن ويتحول إلى ثانى أكسيد الكربون فيما يتحول إليه ويصعد ثانى أكسيد الكربون فى الحالين إلى الجو فيتغذى به النبات مرة أخرى ، بالتمثيل الخضرى وهكذا دواليك .

والأزوت يأخذه النبات من أزوتات الأرض وأحيانا من أزوت الجو فيحوله إلى جزء منه ويتغذى الحيوان بالنبات وتتحلل فضلاتهما وأجسامهما فى الأرض بعد الموت وتتحول إلى رماد أو تراب أو أزوت يصعد فى الجو ، وفى الحالين يتغذى النبات بأزوت التراب أو الجو مرة أخرى وهكذا دواليك . طبعا هذه الدورات دائبة متدرجة لا يحس الجيل الحى فيها بفتور أو انقطاع لدوام تجدد كل عنصر من تلك العناصر كلما استنفذ معه جزء من حلقة من حلقات الدورة يتجدد بدله جزء فى حلقة أخرى . وقد وازن الله سبحانه بين قوى الاستهلاك وقوى التجديد حتى ليبدو كل عنصر أنه ثابت المقدار وهذا هو سر

خفاء تلك الدورات عن ملاحظة الانسان فلم ينتبه إليها ولم يفقه ما فقهه منها إلا بعد أن أوتى حظا من العلم فى هذا العصر الحديث .

أما بعد : فاسألوا العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقولوا له من خليقك؟إنه سيجيبكم بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

انظر لتلك الشجرة	ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة	وكيف صارت شجرة
فانظر وقل من ذا	الذى يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذى	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة

قوله تعالى ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ﴾

أى وأنشأنا لكم شجرة الزيتون التى تنبت فى هذا الجبل بتلك البقعة المباركة وتثمر زيتونا تصنع منه الزيوت التى يدهن بها وتتخذ إداما للآكلين .

قوله تعالى ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾

﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ﴾ أى إن فى خلق الأنعام لعبرة فضلا عن كونها نعمة ، ووجه العبرة فيها أن الدم المتوالد من الأغذية يتحول فى الغدد التى فى الضرع إلى شراب طيب لذيذ الطعم صالح للتغذية وهذا من أظهر الدلائل على قدرة الخالق لها .

ثم فصل منافعها وذكر منها أربعا فقال :

- ﴿نسقيكم مما فى بطونها ﴾ فتنتفعون بألبانها على ضروب شتى فتتخذون منها القشدة والسمن والجبن ونحوها .
- ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ﴾ فتأخذون أصوافها وأشعارها وأوبارها وتتخذونها ملابس وفرشا للدفء وبيوتا فى الصحارى ونحوها مما يجرى هذا المجرى .
- ﴿ ومنها تأكلون ﴾ أى وتأكلون منها بعد ذبحها فكما انتفعتم بها وهى حية تنتفعون بها بعد الذبح بالأكل .

﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ أى وتركبون ظهورها وتحملونها الأحمال الثقيلة إلى البلاد النائية كما قال فى آية أخرى ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾[١] وقال (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ـ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾[٢] .

---
(١)سورة النحل الآية (٧)
(٢) سورة يس الآيات (٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣)

الأنبياء والأمم

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

معانى المفردات

الملأ : أشراف القوم ، يتفضل : أى يدعى الفضل والسيادة ، جنة : أى جنون

فتربصوا : أى انتظروا

بأعيننا : أى بحفظنا ورعايتنا

وفار : نبع

التنور : وجه الأرض

استويت : أى علوت

لآيات : أى عبر

لمبتلين : أى لمختبرين ممتحنين لهم : أى لمعاملتهم معاملة من يختبر .

القرن : الأمة ، المراد بهم عاد قوم هود لقوله تعالى فى سورة الأعراف :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾[1] أترفناهم : أى وسعنا عليهم وجعلناهم فى ترف ونعيم .

لخاسرون : أى لمغبونون فى أرائكم ، إذ أنكم أذللتم أنفسكم لعبادة من هو دونكم .

هيهات : أى بعد

ما توعدون : هو البعث والحساب .

بمؤمنين : أى بمصدقين .

عما قليل : أى بعد زمان قليل

ليصبحن : أى ليصيرن

الصيحة : العذاب الشديد كما قال :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذقان

والغثاء : ما يحمله السيل من الورق والعيدان البالية التى لا ينتفع بها

بعدا : هلاكا .

(١) سورة الأعراف الآية ٦٩

تترى : من المواترة : هى التتابع بين الأشياء مع فترة ومهلة بينها قاله الأصمعى. أحاديث : واحدها أحدوثة وهى ما تتحدث به تعجبا منه وتلهيا به وقد جمعت العرب الفاظا على أفاعيل كأباطيل وأقاطيع وقال الزمخشرى : الأحاديث اسم جمع للحديث ومنه أحاديث رسول ﷺ ولكن الجمهور على انه جمع .

الآيات : هى الآيات التسع التى سبقت فى سورة الأعراف .

السلطان : الحجة

عالين : أى متكبرين

عابدون : أى خدم منقادون قال أبو عبيدة : العرب تسمى كل من دان للملك عابدا

وقال المبرد : العابد : المطيع الخاضع ، الكتاب : التوراة : الآية الحجة والبرهان .

وآويناهما : أى جعلنا مأواهما ومنزلهما .

الربوة : وهى ما ارتفع من الأرض دون الجبل .

ذات قرار : أى ذات استقرار للناس لما فيها من الزرع والثمار

معين : أى ماء جار

الطيبات : ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه .

أمتكم : أى ملتكم وشريعتكم .

المناسبة واجمالى المعنى

بعد أن عدد سبحانه ما أنعم به على عباده فى نشأتهم الأولى وفى خلق الماء لهم لينتفعوا به وفى خلق الحيوان كذلك ـ ذكر هنا أن كثيرا من الأمم قد أهملوا التدبر والاعتبار فى هذا فكفروا بهذه النعم ، وجهلوا قدر المنعم بها وعبدوا غيره وكذبوا رسله الذين أرسلوا إليهم ، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وأهلكهم بعذاب من عنده ، فأصبحوا كأمس الدابر والمثل السائر وفى هذا تخويف لقريش ، وإنذار لهم على ما يفعلون ، وأنه سيحل بهم ماداموا على تكذيب رسولهم والكفر به مثل ما حل بمن قبلهم .

وبعد أن قص سبحانه علينا قصص بعض الأنبياء السالفين ـ عقب هذا ببيان أنه أوصاهم جميعا بأن يأكلوا من الحلال ويعملوا صالح الأعمال كفاء ما أنعم به عليهم من النعم العظيمة والمزايا الجليلة التى لا يقدر قدرها ثم حذرهم وانذرهم بأنه عليم بكل أعمالهم ، ظاهرها وباطنها لا تخفى عليه من أمورهم خافية ثم أرشدهم إلى أن الدين الحق واحد لا تعدد فيه ولكن الأمم قد فرقت دينها شيعا وكل أمة فرحة مسرورة بما تدين به كما هى حال قريش ، ثم خاطب رسوله بأن يتركهم وما يعتقدون إلى حين ثم ذكر أنهم فى عماية حين ظنوا أن ما أوتوه من النعم هو حظوة من ربهم ـ كلا ، فهم لا يشعرون بحقيقة أمرهم وعاقبة حالهم ، ولو عقلوا لعلموا أنهم فى سكرتهم يعمهون ●

التفسير

قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ **أى ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه منذرا لهم عذاب الله وشديد بأسه وانتقامه على إشراكهم به وتكذيب رسوله ،**

فقال لهم متعطفا عليهم مستميلا لهم لقبول الحق : يا قوم اعبدوا الله وحده وأطيعوه ولا تشركوا معه ربا سواه فإنه لا رب لكم غيره ، ولا معبود سواه .

﴿ **أفلا تتقون ؟** ﴾ أى أفلا تخشون عقابه فتحذروا أن تعبدوا معه سواه ،

﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم**) أى فقال أشراف قومه ورؤساؤهم من العريقين فى الكفر ومن ذوى الكلمة المسموعة والرأى المطاع . . ما نوح إلا رجل منكم ليس له ميزة عليكم فى فضل ولا خلق فيكون أهلا للنبوة وتلقى الوحى من ربه ، وما هو إلا رجل يريد أن يسودكم ويكون له الصولة والسلطان عليكم وقد ادعى الرسالة ليصل إلى ما تصبو إليه نفسه وليس له من حقيقتها شىء .

وبعد أن بينوا أن لا مقتضى لاختصاصه بالنبوة ذكروا الموانع التى تحول بينه وبينها فذكروا أمورا ثلاثة :

١ - ﴿ **ولو شاء الله لأنزل ملائكة** ﴾ أى ولو شاء الله ألا نعبد سواه لأرسل بالدعاء إلى ما يدعوكم إليه نوح ملائكة تؤدى إليكم رسالته .

٢ - ﴿ **ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين** ﴾ أى ما سمعنا فى القرون الغابرة عهود الآباء والأجداد بمثل هذا الذى يدعو إليه نوح من أنه لا إله إلا إله واحد لا رب غيره ولا معبود سواه .

وفى هذا إيماء إلى أنهم قوم لا رأى لهم وإنما يعولون على التقليد وقول الآباء والأجداد فلما لم يجدوا عن آبائهم شيئا مثل هذا أنكروا نبوته وفيه اشارة أيضا إلى أنهم قد بلغوا الغاية فى العناد والتكذيب والانهماك فى الغى والضلال .

٣ - ﴿ **إن هو إلا رجل به جنة** ﴾ أى وما نوح إلا رجل به خبل فى عقله ، فمزاعمه لا تصدر إلا من رجل لا يزن قوله ، ولا يدعم رأيه بحجة ناصعة ، فلا يلتفت إذن إلى ما يدعى ولا ينبغى أن نضيع الوقت فى محاجته ودحض مزاعمه من صدق دعوته .

وبعد أن ذكروا موانع نبوته ذكروا الطريقة المثلى فى إبطال دعوته فقالوا : ﴿ **فتربصوا به حتى حين** ﴾ أى فتلبثوا وانتظروا ، لعله يضيق مما هو فيه فيعود سيرته الأولى ويرجع من تلقاء نفسه إلى دينكم ودين آبائكم وأجدادكم .

وهذا من مكابراتهم لفرط عنادهم اذ هم يعلمون انه أرجح الناس عقلا ، واوزنهم قولا .

ولم يرد سبحانه على هذه الشبهة لسخافتها ووضوح فسادها ، إذ كل عاقل يعلم أن الرسول يتميز من غيره بالمعجزات التى تأتى على يديه سواء أكان ملكا أم بشرا .

وارادته التفضل عليهم إن كانت لأجل أن يستبين فضله حتى ينقادوا له لا ضير فى ذلك بل هو واجب وإن أرادوا أنه يبغى التجبر عليهم فالأنبياء منزهون عن ذلك ، وقولهم :

﴿ **ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين** ﴾ اعتناق للتقليد وهو لا يصلح حجة تدفع بها حجج المعارضين الواضحة وضوح الشمس فى رائعة النهار ، وقولهم :

﴿ **به جنة** ﴾ كذب صراح لأنهم يعلمون ذكاءه وعظيم فطنته وماأوتيه من أصالة الرأى وثاقب الفكر .

ولما استبان لنوح إصرارهم على ضلالهم وتماديهم فى غيهم ويأسه من إيمانهم ﴿ **وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن** ﴾ طلب إلى ربه أن ينصره عليهم :

﴿ **قال رب انصرنى بما كذبون** ﴾ أى قال انصرنى بإنجاز ما أوعدتهم به من عذاب لقولى: ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ .

ونحو الآية قوله ﴿ **فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر** ﴾[1] وقوله : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا** ﴾[2] .

وقد أجاب الله دعاءه فقال :

﴿ **فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا** ﴾ أى فقلنا حين استنصرنا على كفرة قومه : اصنع السفينة بحفظنا ورعايتنا لك ، من التعدى عليك ، ، وتعليمنا إياك كيفية صنعها .

﴿ **فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم** ﴾

أى فإذا جاء قضاؤنا من قومك بعذابهم وهلاكهم ، ونبع الماء من وجه الأرض فأدخل فيها من كل طائفة من الحيوان فردين مزدوجين كناقة وجمل وحصان ورمكة وأدخل **ولدك** ، ونساءهم إلا من سبق عليه القول منا بأنه هالك فيمن يهلك فلا تحمله معك وهو كنعان وأمه .

﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ أى ولا تسألنى أن أنجى الذين كفروا بالله من الغرق . فإن كلمتى قد حقت عليهم أجمعين .

ثم أمره بحمده والثناء عليه إذا هو استوى على الفلك فقال :

﴿ **فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين** ﴾ أى فإذا اطمأننت فى السفينة أنت ومن معك ممن حملته من أهلك فقل الحمد لله الذى نجانا من هؤلاء المشركين الظلمة.

وفى هذا إيماء إلى أنه لا ينبغى المسرة بمصيبة أحد ولو عدوا إلا إذا اشتملت على دفع ضرره أو تطهير الأرض من دنس شركه واضلاله .

قال ابن عباس : كان فى السفينة ثمانون إنسانا: نوح وامرأته غير التى غرقت وثلاثة بنين سام وحام ويافث ، وثلاث نسوة لهم واثنان وسبعون إنسانا وكل الخلائق من نسل من كان فى السفينة .

ثم أمر نوح أن يدعو ربه حين خروجه من السفينة .

﴿ **وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين** ﴾ أى وقل إذا سلمت وخرجت من السفينة : رب أنزلنى من الأرض منزلا مباركا وأنت خير من أنزل عباده المنازل .

قال قتادة : علمكم الله أن تقولوا حين ركوب السفينة ﴿ **باسم الله مجريها ومرساها** ﴾ **وحين** ركوب الدابة : ﴿ **سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين** ﴾[4]

---

(١) سورة القمر الآية (١٠)

(٢) سورة نوح الآية (٢٦)

(٣) قال الحافظ ابن كثير : عن ابن عباس : كانوا ثمانين نفسا منهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار ، كانوا اثنين وسبعين نفسا ، وقيل : إنما كانوا عشرة ، وقيل : إنما كانوا نوحا وبنيه الثلاثة سام وحام ويافث وكنائنه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام ، وقيل : بل امرأة نوح كانت معهم فى السفينة ، وهذا فيه نظر ، بل الظاهر أنها هلكت ، لأنها كانت على دين قومها ، فأصابها ما أصابهم ، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها . والله أعلم وأحكم (تفسير ابن كثير ٤/ ٢٥٥ ط الشعب)

والكنائن : جمع كنة ـ بفتح الكاف وتشديد النون ـ وهى امرأة الابن أو الأخ .

(٤) الزخرف : ١٣

وحين النزول ﴿ وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ﴾

﴿ إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين ﴾ أى: إن فيما فعلنا بقوم نوح من إهلاكهم إذ كذبوا رسولنا وجحدوا وحدانيتنا وعبدوا الآلهة والأصنام - لعبرا لقومك من مشركى قريش ، وحججا لنا عليهم يستدلون بها على سنننا فى أمثالهم فينزجرون عن كفرهم .

ويرتدون عن تكذيبهم حذر أن يصيبهم مثل الذى أصاب من قبلهم من العذاب وقد كنا مختبريهم بالتذكير بهذه الآيات لننظر ماذا يفعلون قبل أن ننزل بهم عقوبتنا .

ونحو الآية قوله ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾[١] .

عبرة وعظة

إن قصة نوح عليه السلام فيها من العبر ما لا يحصى ومن العظات ما لا يستقصى فهو الصبور الذى لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وقال لربه : ﴿ إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾[٢]

وهو الذى ما ترك سبيلا إلى الدعوة إلا سلكها اقرأ معى قوله تعالى ﴿ ثم إنى دعوتهم جهارا. ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ﴾[٣] لقد سلك بهم طريق الترغيب فقال ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾[٤] كما سلك بهم طريق الترهيب فقال : ﴿ مالكم لا ترجون لله وقارا. وقد خلقكم أطوارا ﴾[٥] ثم سلك بهم طريق الاقناع والحجة ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا. وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾[٦] كل هذا بذله نوح ولما لم يجد فيهم أرضا تنبت التوحيد قال نوح ﴿ رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾[٧] فانظر إلى هؤلاء الذين أنكروا البراهين الساطعة وجحدوا الحجج القاطعة وعبدوا من دون الله أصناما لا يخلقون وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا .

فماذا تتوقع بعد هذا الجهاد المتصل والكفاح المستمر إلا أن يدعو نوح بعد هذا الصبر على هؤلاء المعاندين المكابرين ويعلل دعوته بعلة مقبولة ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾[٨].

(١) سورة القمر الاية (١٥)
(٢) سورة نوح الآيات (٥ ، ٦ ، ٧)
(٣) سورة نوح الآية (٩)
(٤) سورة نوح الآيات (١٠ ، ١١ ، ١٢)
(٥) سورة نوح الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٦) سورة نوح الآيات : ١٥ - ٢٠
(٧) سورة نوح الآيات : ٢١ - ٢٤
(٨) سورة نوح الآية (٢٧)

لقد كان نوح من الأنبياء الذين لقبوا بأولى العزم وهم خمسة :
نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء محمد عليهم جميعا صلوات الله وتسليماته .
﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾[١] .
وهذا هو الدرس المشترك فى قصص الأنبياء الصبر مع الله ، والصبر بالله ، والصبر فى الله والصبر لله ، ولن يكون هناك صبر عن الله لأن الصبر عن الله جفاء .
قال الأمام الغزالى فى فضيلة الصبر كما جاء فى كتابه (إحياء علوم الدين) :
قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعا وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل : ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا** ﴾[٣] وقال - تعالى - ﴿ **ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا** ﴾[٥] وقال تعالى ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾[٦] - فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله - تعالى - : فى الحديث القدسى « **الصوم لى وأنا أجزى به** » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى : ﴿ **واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾[٧] وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى - ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين** ﴾[٨] وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾[٩] فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات فى مقام الصبر يطول .
وأما الأخبار فقد قال ﷺ (الصبر نصف الايمان)[١٠] .
وقال ﷺ (من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منها لم يبال بما فاته من قيام الليل

---

(١) سورة الاحقاف الآية (٣٥)
(٢) سورة السجدة الآية (٢٤)
(٣) سورة الاعراف الآية (١٣٧)
(٤) سورة النحل الآية (٩٦)
(٥) سورة القصص الآية (٥٤)
(٦) سورة الزمر الآية (١٠)
(٧) سورة الانفال الآية (٤٦)
(٨) سورة آل عمران الآية (١٢٥)
(٩) سورة البقرة الآية (١٥٧)
(١٠) الحديث فى شعب الايمان للبيهقى الحديث رواه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الايمان والخطيب عن ابن مسعود رضى الله عنه بلفظ : الصبر نصف الايمان واليقين الايمان كله .
- وقال البيهقى : تفرد به يعقوب بن حميد عن محمد بن خالد المخزومى ، والمحفوظ عن ابن مسعود من قوله غير مرفوع ا هـ قال المناوى : ويعقوب ، قال الذهبى : ضعفه أبو حاتم وغير واحد ا هـ قلت : الحديث رواه أبو نعيم من طريق آخر عن النبى ﷺ وقال : تفرد به المخزومى عن سفيان بهذا الاسناد ، ورواه الثورى عن أبى اسحاق عن جرير النهدى عن رجل من بنى سليم عن النبى ﷺ مثله ا هـ
(راجع حليه الأولياء ٥/ ٣٤ ، فيض القرير ٤/ ٢٣٣ رقم ٥١٣٠ ، الاحياء بتخريج العراقى ٤/ ٦٠

وصيام النهار ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافيني كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه)[١] .

ثم قرأ قوله تعالى ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [٢] .

● وروى جابر أنه سئل ﷺ عن الايمان فقال (الصبر والسماحة)[٣].

وقال أيضا (الصبر كنز من كنوز الجنة)[٤] وسئل مرة (ما الايمان فقال الصبر)[٥] وهذا يشبه قوله ﷺ (الحج عرفة)[٦] معناه معظم الحج عرفة

وقال أيضا ﷺ (أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس)[٧] وقيل مما أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام (تخلق بأخلاقى وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور) وفى حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله ﷺ على الانصار فقال :

(أمؤمنون أنتم ، فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله قال وما علامة إيمانكم قالوا نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء ، فقال ﷺ مؤمنون ورب الكعبة)[٨] .

● وقال ﷺ (فى الصبر على ما تكره خير كثير)[٩] .

● وقال المسيح عليه السلام : (إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون)

● وقال رسول الله ﷺ : (لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين)[١٠]. والأخبار فى هذا لا تحصى .

وأما الآثار : فقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى:عليك

---

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريج الاحياء ٤ / ٦٠ : لم أجده هكذا مطولا ، وقال فى ١ /٧٢ الاحياء (كتاب العلم) : وروى ابن عبد البر من حديث معاذ : ما أنزل الله شيئا أقل من اليقين ولا قسم شيئا بين الناس أقل من الحكم .

(٢) سورة النحل الآية (٩٦) .

(٣) الحديث رواه الطبرانى فى مكارم الأخلاق وابن حبان فى الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ، قاله العراقى (الاحياء بتخريج العراقى ٤ / ٦٠)

(٤) الحديث قال عنه العراقى فى تخريج الاحياء : غريب لم أجده ا هـ ونقله عنه العجلونى فى كشف الخفاء (الاحياء بتخريج العراقى ٤/٦٠ ، كشف الخفاء ٢/ ٢٧ رقم ١٥٨٩)

(٥) قال الحافظ العراقى : رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن انس مرفوعا : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ـ ويزيد ضعيف الاحياء بتخريج العراقى ٤ / ٦٠

(٦) الحديث رواه الترمذى فى تفسير سورة البقرة ، وأبو داود فى المناسك / ٦٨ ، وابن ماجه فى المناسك ٥٧ ، والدارمى فى المناسك / ٥٤ .

(٧) قال الحافظ العراقى : هذا الحديث لا أصل له مرفوعا ، وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا ، رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب محاسبة النفس (الاحياء بتخريج العراقى ٦١/٤)

(٨) قال العراقى : الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء (الاحياء بتخريج العراقى ٤ / ٦١)

(٩) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ١ /٣٠٧ـ ٣٠٨ فى حديث طويل عن ابن عباس رضى الله عنهما : واعلم ان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا . .

(١٠) الحديث رواه الطبرانى من حديث عائشة ، وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلى

بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر .

الصبر فى المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى .

وأعلم أن الصبر ملاك الايمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال على كرم الله وجهه : (بنى الايمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل) .

وقال أيضا الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له . وكان عمر رضى الله عنه يقول : (نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين) يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة الهدى وما يحمل فوق العدلين على البعيد واشار به إلى قوله تعالى : ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾(١) ـ وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه الآية ﴿ **إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾(٢) بكى وقال واعجباه أعطى وأثنى أى هو المعطى للصبر وهو المثنى .

● وقال أبو الدرداء:ذروة الايمان الصبر للحكم والرضا بالقدر هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه اذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصيل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق .

بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين ، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور :

معارف ، وأحوال ، وأعمال . فالمعارف : هى الأصول وهى تورث الأحوال ، والأحوال تثمر الأعمال ، فالمعارف : كالأشجار ، والأحوال : كالأغصان والأعمال كالثمار وهذا مطرد فى جميع منازل السالكين إلى الله تعالى ، واسم الايمان تارة يختص بالمعارف ، وتارة يطلق على الكل كما ذكرناه فى اختلاف اسم الايمان والاسلام فى كتاب قواعد العقائد ، وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة ، فالصبر على التحقيق عبارة عنها ، والعمل كالثمرة يصدر عنها ، ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب ، بين الملائكة والانس والبهائم ، فإن الصبر خاصية الانس ولا يتصور ذلك فى البهائم والملائكة ، أما فى البهائم فلنقصانها . وأما فى الملائكة فلكمالها ، وبيانه : أن البهائم سلطت عليها الشهوات ، وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة ، وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة فى مقابلة مقتضى الشهوة صبرا . وأما الملائكة عليهم السلام : فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يعرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف .

وأما الانسان : فإنه خلق فى ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة ، لم يخلف فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح على الترتيب ، وليس له قوة

---

(١) سورة البقرة رقم (١٥٧)

(٢) سورة ص رقم (٤٤)

الصبر البتة ، اذ الصبر عبارة عن ثبات جند فى مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما ، وليس فى الصبا الاجند الهوى كما فى البهائم ، ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده اكرم بنى آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين : أحدهما يهديه والآخر يقويه فتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختص بصفتين : احداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذى إليه الهداية والتعريف .

أما البهيمة فلا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها فى الحال فقط فلذلك لا تطلب الا اللذيذ

وأما الدواء النافع مع كونه مضرا فى الحال ، فلا تطلبه ولا تعرفه فصار الانسان بنور الهداية ، يعرف ان اتباع الشهوات له مغبات مكروهة فى العاقبة ، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر ، فكم من مضر يعرفه الانسان كالمرض النازل به مثلا ، ولكن لا قدرة له على دفعه ، فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها فى نحر الشهوات ، فيجاهدها بتلك القوة ، حتى يقطع عداوتها عن نفسه ، فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها ، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة ، فتارة يضعف هذا الجند ، وتارة يقوى ذلك بحسب امداد الله تعالى عبده بالتأييد ، كما أن نور الهداية أيضا يختلف فى الخلق اختلافا لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التى بها فارق الانسان البهائم فى قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى ، وليفهم ان القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما سجال ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من ملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لاعداء الله تعالى ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة ، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق باتباع الشياطين ، فإذن : ترك الافعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة ، وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لاسباب السعادات فى الدنيا والآخرة ، فإذا قوى يقينه اعنى المعرفة التى تسمى ايمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوى ثبات باعث الدين ، واذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة الا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والايمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى ، وتسخيره اياهما ، وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الادميين ، وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك المقوى ، لم يخف عليك أن جانب اليمين هو الذى أشرف الجانبين من جنبتى الدست ، ينبغى أن يكون مسلما له ، فهو إذن صاحب اليمين ، والآخر صاحب الشمال ، وللعبد طوران فى الغفلة والفكر وفى الاسترسال والمجاهدة ، فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسىء إليه فيكتب اعراضه سيئة ، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية ، فهو به محسن فيكتب اقباله له حسنة ، وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسىء إليه ، فيثبت عليه سيئة ، وبالمجاهدة مستمد من جنوده ، فثبت له به حسنة ، وانما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتها ، فلذلك سميا كراما كاتبين ،

أما الكرام : فلانتفاع العبد بكرمهما ، ولأن الملائكة كلهم كرام بررة ، وأما الكاتبون فلاثباتهم الحسنات والسيئات ، وانما يكتبان فى صحائف مطوية فى سر القلب ، ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه فى هذا العالم ، فإنهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب ، والملكوت ، لا من عالم الشهادة ، وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار فى هذا العالم ، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين ، مرة فى القيامة الصغرى ، ومرة فى القيامة الكبرى ، واعنى بالقيامة الصغرى حالة الموت اذ قال ﷺ : (من مات فقد قامت قيامته) وفى هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾[1] وفيها يقال ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾[2] أما فى القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده ، بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق ، وفيها يساق المتقون إلى الجنة زمرا ، والمجرمون إلى النار زمرا ، لا آحادا ، والهول الأول هو هول القيامة الصغرى ، ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير فى القيامة الصغرى ، مثل زلزلة الأرض مثلا فإن أرضك الخاصة بك تزلزل فى الموت ، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق ان يقال قد زلزلت أرضهم ، وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها ، بل لو زلزل مسكن الانسان وحده فقد حصلت الزلزلة فى حقه ، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فحصته من الزلزلة قد توافرت من غير نقصان .

واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب ، وحظك الخاص من التراب بدنك فقط ، فأما بدن غيرك فليس بحظك ، والأرض التى أنت جالس عليها بالاضافة إلى بدنك ظرف ومكان ،

وإنما تخاف من تزلزله ان يتزلزل بدنك بسببه ، وإلا : فالهواء أبدا متزلزل ، وأنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك ، فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط ، فهى أرضك وترابك الخاص بك ، وعظامك جبال أرضك ، ورأسك سماء أرضك ، وقلبك شمس أرضك ، وسمعك وبصرك وسائر خواصك نجوم سمائك ، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك ، وشعورك نبات أرضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، وهكذا إلى جميع أجزائك ، فإذا انهدم بالموت أركان بدنك ، فقد زلزلت الأرض زلزالها ، فإذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا ، فإذا أظلم قلبك عند الموت ، فقد كورت الشمس تكويرا ، فاذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك ، فقد انكدرت النجوم انكدارا،فإذا انشق دماغك ، فقد انشقت السماء انشقاقا ، فإذا انفجر من هول الموت عرق جبينك ، فقد فجرت البحار تفجيرا ، فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلا ، فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فمدت حتى ألقت ما فيها وتخلت ، ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ، ولكن أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك ، بل ما يخص غيرك ، فإن بقاء الكواكب فى حق غيرك ماذا ينفعك ، وقد انتثرت حواسك التى بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب ، والأعمى يستوى عنده الليل والنهار ، وكسوف الشمس وانجلاؤها ، لأنها قد كسفت فى حقه دفعة واحدة وهو حصته منها ، فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره ، ومن انشق رأسه فقد انشقت

(١) سورة الانعام الآية (٩٤)
(٢) سورة الاسراء الآية (١٤)

سماؤه إذا السماء عبارة عما يلى جهة الرأس ، فمن لا رأس له لا سماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره ، فهذه هى القيامة الصغرى ، والخوف بعد أسفل ، والهول بعد مؤخر ، وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى ، وارتفع الخصوص ، وبطلت السموات والأرض ، ونسفت الجبال ، وتمت الأهوال ، واعلم ان هذه الصغرى وإن حاولنا فى وصفها فانا لم نذكر عشر عشير أوصافها ، وهى بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة الى الولادة الكبرى فإن للانسان ولادتين : إحداهما الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام ، فهو فى الرحم فى قرار مكين إلى قدر معلوم . وله فى سلوكه إلى الكمال منازل واطوار ، من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها ، إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم ، فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذى يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا ، كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم بل وأوسع ، وأعظم ، ففى الآخرة بالأولى ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى ، بل إعداد النشآت ليست محصورة فى اثنتين ، وإليه الاشارة بقوله تعالى ﴿ **وننشئكم فيما لا تعلمون** ﴾[١] فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة ، ومؤمن بالملك والملكوت ، والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين ، وذلك هو الجهل والضلال ، والاقتداء بالأعور الدجال فما أعظم غفلتك يا مسكين ، وكلنا ذلك المسكين ، وبين يديك هذه الأهوال ، فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى ، أو ما سمعت قول سيد الأنبياء (وكفى بالموت واعظا)

أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال ﷺ (اللهم هون على محمد سكرات الموت) أو ما تستحى من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴿ **فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾[٢] ويأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ، ويأتيهم الشيب رسولا منه فلا يعتبرون ﴿ **يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون** ﴾[٣] فيظنون أنهم فى الدنيا خالدون ﴿ **أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون** ﴾[٤] أم يحسبون ان الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون ، كلا ﴿ **إن كل لما جميع لدينا محضرون** ﴾[٥] ولكن ﴿ **ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين** ﴾[٦] وذلك لقوله ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**)[٧]

ولنرجع إلى الغرض ، فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هى أعلى من علوم المعاملة ، فنقول : قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى ، وهذه المقاومة من خاصة الأدميين ، لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ، ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين ، إذ قد ذكرنا أن الحسنة فى الاقبال على الاستفادة منها ، والسيئة فى الاعراض عنها ، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى

---

(١) سورة الواقعة الآية (٦١)
(٢) سورة يس الآية (٥٠)
(٣) سورة يس الآية (٣٠)
(٤) سورة يس الآية (٣١)
(٥) سورة يس الآية (٣٢)
(٦) سورة الانعام الآية (٤)
(٧) سورة يس الآيتان : ٩ ، ١٠

الاستفادة ، فلا يتصور منها إقبال وإعراض ، وهما لا يكتبان إلا الاقبال والاعراض من القادرين على الاقبال والاعراض . ولعمرى : انه قد تظهر مبادىء اشراق نور الهداية عند سن التمييز ، وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة ، بل إلى مضار الدنيا ، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ، ولا يعاقب على تركها فى الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر فى الآخرة بل على القيم العدل والولى البر الشفيق ان كان من الأبرار ، وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار ، ان يكتب على الصبى سيئته وحسنته على صحيفة قلبه ، فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب ، فكل ولى هذا سمته فى حق الصبى فقد ورث أخلاق الملائكة ، واستعملها فى حق الصبى فينال بها درجة القرب من رب العالمين ، كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين ، وإليه الاشارة بقوله ﷺ: (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة)[1] وأشار إلى أصبعيه الكريمتين ﷺ .

بيان كون الصبر نصف الايمان

اعلم أن الايمان تارة يختص فى إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين ، وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها ، وتارة يطلق عليهما جميعا ، وللمعارف أبواب ، وللأعمال أبواب ، ولاشتمال لفظ الايمان على جميعها كان الايمان نيفا وسبعين بابا ولكن الصبر نصف الايمان باعتبارين ، وعلى مقتضى اطلاقين : أحدهما ان يطلق على التصديقات والأعمال

جميعا فيكون للايمان ركنان : أحدهما : اليقين ، والآخر الصبر ، والمراد باليقين : المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله نعالى عبده إلى أصول الدين ، والمراد بالصبر : العمل بمقتضى اليقين ، إذ اليقين يعرفه ان المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى ، والكسل . فيكون الصبر نصف الايمان بهذا الاعتبار ، ولهذا جمع رسول الله ﷺ بينهما فقال: (من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر) الحديث إلى آخره .

الاعتبار الثانى : أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف ، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه فى الدنيا والآخرة ، أو يضره فيهما ، وله بالاضافة إلى ما يضره حال الصبر ، وبالاضافة إلى ما ينفعه حال الشكر ، فيكون الشكر أحد شطرى الايمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول .

---

(١) الحديث فى مسند الامام أحمد والبخارى وأبى داود والترمذى

الحديث رواه البخارى عن سهل بن سعد بلفظ : أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وقال بأصبعيه : السبابة والوسطى . فتح البارى ١٣/ ٤٣

ورواه أبو داود عنه بلفظ : كهاتين فى الجنة وقرن بين اصبعيه (أصابعه) الوسطى ، والتى تلى الابهام . (عون المعبود ١٤ / ٦٠)

ورواه الترمذى عنه بلفظ : وأشار بأصبعيه يعنى السبابة والوسطى . (تحفة الأحوذى ٦/ ٤٥/ ٤٦)

(راجع فتح البارى ١٣/ ٤٣ ، عون المعبود ١٤/ ٦٠ ، تحفة الأحوذى ٦/٤٥-٤٦)

ورواه الطبرانى عن أم سعيد بنت عمرو بن مرة الجمحية بلفظ : من كفل يتيما له أو لغيره من الناس كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين - قال الهيثمى : ورجاله ثقات - (مجمع الزوائد ٨/ ١٦٣)

وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه (الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر)[١] وقد يرفع أيضا إلى رسول الله ﷺ ، ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين ، وكان باعث الهوى قسمين : باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ، فالشهوة تطلب اللذيذ و الغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط ، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ، قال ﷺ بهذا الاعتبار (الصوم نصف الصبر)[٢] لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعى الشهوة ودواعى الغضب جميعا ، فيكون الصوم عن دواعى الشهوة ودواعى الغضب جميعا ، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الايمان ، فهكذا ينبغى ان تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسقها إلى الايمان ، والاصل فيه ان تعرف كثرة أبواب الايمان ، فإن اسم الايمان يطلق على وجوه مختلفة .

بيان الاسامى التى تتجدد للصبر بالاضافة إلى ما عنه الصبر :

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدنى كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو : إما بالفعل كتعاطى الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها ، وإما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة ، وذلك : قد يكون محمودا إذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى عفة ، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر ، فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع ، وهو اطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت ، وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها ، وإن كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمى البطر ، وإن كان فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ، ويضاده الجبن ، وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ، ويضاده التذمر ، وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر ، وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر ، وسمى صاحبه كتوما ، وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ، ويضاده الحرص ، وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ، ويضاده الشره ، فأكثر أخلاق الايمان داخل فى الصبر ، ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الايمان قال (هو الصبر) لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قال (الحج عرفة) وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى : ﴿ **والصابرين فى البأساء** ﴾[٣] أى المصيبة ﴿ **والضراء** ﴾ أى الفقر

---

(١) الحديث رواه البيهقى فى شعب الايمان ، والديلمى فى مسند الفردس عن أنس مرفوعا بلفظ : الايمان نصف فى الصبر ونصف فى الشكر .
(جمع الجوامع ١ /٣٩٧)

(٢) الحديث رواه ابن ماجة فى أبواب الصيام رقم ٤٤ عن أبى هريرة بلفظ : الصيام نصف الصبر
قال المنادى : رمز السيوطى لحسنه وكأنه لم ير قول ابن العربى فى السراج : حديث ضعيف جدا ا هـ
ورواه البيهقى فى شعب الايمان عنه بزيادة : وعلى كل شىء زكاة ، وزكاة الجسد الصيام ـ قال المناوى : وفيه محمد بن يعقوب ، قال الذهبى فى الضعفاء : له مناكير ، وموسى بن عبيد ضعفوه ، وقال أحمد : لا تحل الرواية عنه)
(فيض القدير ٤ / ٢٥١ رقم ٥٢٠٠ ، ٥٢٠١)

(٣) سورة البقرة الآية (١٧٧)

﴿ وحين البأس ﴾ أى المحاربة ـ ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[1] فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ المعانى من الأسامى يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها من حيث أن الأسامى مختلفة ، والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله يلحظ المعانى أو لا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامى فإنها وضعت دالة على المعانى فالمعانى هى الأصول والألفاظ هى التوابع ومن يطلب الأصول من التوابع ، لابد وأن يزل ، وإلى الفريقين الاشارة بقوله تعالى ﴿ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ﴾[2] فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه .

عاد قوم هود

قوله تعالى ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين.فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟ ﴾

يخبر سبحانه وتعالى أنه أوجد من بعد مهلك قوم نوح أهل قرن آخرين أى أمة:أخرى ، والقرن : هو المدة من الزمان التى قد تصل إلى مائة عام ويراد بها هنا أهله الذين وجدوا فيه ، والمقصود بذلك الأمة ، والمراد هنا بأهل القرن الآخرين هم عاد قوم هود عليه السلام والذين كانوا يسكنون الاحقاف بين عمان وحضر موت ، قال الله تعالى فى سورة الأعراف فى شأنهم ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماءسميتموهاأنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ .[3]

وقال تعالى فى سورة هود : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شىء حفيظ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾[4] .

---

(١) سورة البقرة الآية (١٧٧)
(٢) سورة الملك الآية (٢٢)
(٣) سورة الأعراف الآيات : ٦٦ - ٧٢
(٤) سورة هود الآيات : ٥٠ - ٦٠

وقال تعالى فى سورة الشعراء :

﴿ كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين . فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم . ﴾[١] .

وقال تعالى فى سورة فصلت :

﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الأخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾[٢]

وقال تعالى فى سورة الاحقاف :-

﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون . فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين . ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾[٣] .

لقد أرسل الله إلى هؤلاء الجبابرة رسولا منهم : هو نبى الله هود فقال لهم ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ أى ؛ أطغيتم فلا تتقون ولا تخافون ﴿ اتقوا الله الذى خلقكم والجبلة الأولين ﴾ فماذا كان رد الملأ وهم أشرافهم وكبراؤهم اسمع معى إلى قوله جل شأنه :-

﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾

هذا منطق أهل الباطل فى كل زمان ومكان يريدون دائما أن يحقروا أهل الحق ويستهزئوا بهم فأى مطعن لغامز وأى مغمز لطاعن ، فى أن يكون النبى بشرا !! لقد قالوا لنوح من قبل ﴿ ما هذا إلا بشر

---

(١) سورة الشعراء الآيات (١٢٣ إلى ١٤٠)
(٢) سورة فصلت الآيتان (١٥ ، ١٦)
(٣) سورة الأحقاف الآيات (٢١ إلى ٢٦)

مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ وهنا يقولون عن هود :
﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾

وقالوا عن رسول الله ﷺ : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾[1] وما أرادوا بذلك إلا أسلوب التحقير والتوبيخ ولقد قالوا للأنبياء مثل ذلك اقرأ معى ما قاله القرآن الكريم عن فرعون :
﴿ ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾[2] .

واقرأ معى ما جاء فى سورة إبراهيم :
﴿ قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[3]

لقد شاءت حكمة الله تعالى أن يبعث الأنبياء من البشر حتى يكون بينهم وبين طباع البشر ملاءمة ومواءمة وبذلك يستطيعون أن يعيشوا مشاكلهم وقضاياهم ولو كانوا ملائكة لاختلفت الطباع كل الاختلاف إذ الملائكة أجسام نورانية تتشكل بالأشكال الحسنة لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون ولا يتناسلون ولا ينامون ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾[4]

التسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ، فكيف يتكيفون مع البشر وكيف يعيشون مشاكلهم .

أما الأنبياء فقد أكلوا وشربوا وناموا وتزوجوا ، وكان لهم ذرية قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾[5]

إن الملأ المستكبرين الذين كفروا بالله ربا ، وأنكروا اليوم الآخر ، والبعث بعد ما أترفوا ، وتمتعوا بلذائذ الحياة ، طعنوا فى الأنبياء بأنهم بشر يأكلون ويشربون ، ثم بنوا على هذه المقدمة الباطلة نتيجة باطلة بنيت على الزور والبهتان فقالوا : ﴿ ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ﴾ .

(١) سورة الفرقان الآيتان (٧ ، ٨)
(٢) سورة الزخرف الآيات (٥١ إلى ٥٣)
(٣) سورة ابراهيم الآيات (١٠ ، ١٢)
(٤) سورة الأنبياء (٢٠)
(٥) سورة الرعد الآية (٣٨)

المقدمة باطلة : فما بنى عليها باطل ، إذ كون النبى بشرا ، لا يعد طعنا فى رسالته ، ولو سمعت معى ما جاء فى سورة الاسراء بهذا الصدد ، وما تحدوا به إمام الأنبياء والمرسلين لأخذتكم الدهشة واستولى عليكم العجب قال تعالى فى سورة الاسراء :ـ

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى !! هل كنت

إلا بشرا رسولا . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا . قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾(١) .

إن الملأ من قوم هود أرادوا أن يؤكدوا تكذيبهم بلقاء الآخرة فقالوا ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون)

والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع ، وكأنهم قالوا إن وعد الأنبياء بالبعث بعد الموت وتحلل الأجسام وتحويلها إلى تراب وعد كاذب .

تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

ثم أكدوا هذا التكذيب بقولهم (هيهات . . هيهات لما توعدون)

هيهات : أسم فعل ماض بمعنى بعد ، ولقد أكدوه توكيدا لفظيا بتكراره حتى يزدادوا إنكارا وجحودا بالبعث ، أى بعد هذا الوعد وأصبح فى مجال المستحيل ولقد قال أهل مكة ومن لف لفهم هذا الكلام .

قال تعالى ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٢) .

وقال عز من قائل :

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾(٣)

وقال تبارك اسمه ﴿ ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا . أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من

(١) سورة الاسراء الايات (من ٨٨ إلى ٩٦)
(٢) سورة النحل الآية (٣٨)
(٣) سورة يس الايات (من ٧٧ إلى ٧٩)

قبل ولم يك شيئا ﴾(١) وقال عظمت قدرته :

﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾(٢)

لقد أكد الملأ لأقوامهم مرة بعد مرة إنكار البعث فماذا قالوا : ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ .

أى ما حياة إلا هذه الحياة الدنيا ، تموت الأحياء منا فلا تحيا ، ويحدث آخرون منا ويولدون ، وما نحن بمبعوثين بعد الموت إنما مثلنا مثل الزرع يحصد هذا وينبت ذاك .

والخلاصة ـ أنه يموت منا من هو موجود وينشأ آخرون بعدهم . وبعد أن كان أمرهم معه مقصورا على الاستبعاد فحسب ، جاهدوا بتكذيبه فيما يدعى فقالوا :

﴿ إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين)

أى ما هود إلا رجل يختلق الكذب على الله فتارة يقول : ما لكم من إله غير الله خالق السموات والأرض وأخرى يقول :ـ إنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون ، وما نحن بمصدقيه فيما يدعى ويزعم من التوحيد والبعث .

ولما يئس هود من إيمانهم بعد ذكر هذه المقالة (وما نحن له بمؤمنين) فزع إلى ربه .

﴿ قال رب انصرنى بما كذبون ﴾

أى قال بعد أن يئس من إيمانهم وقد سلك فى دعوتهم كل مسلك متضرعا إلى ربه : رب انصرنى عليهم وانتقم لى منهم بتكذيبهم إياى فيما دعوتهم إليه من الحق وإصرارهم على الباطل .

فأجابه ربه إلى ما سأل .

﴿ قال عما قليل ليصبحن نادمين ﴾ أى قال تعالى مجيبا دعاءه : ليصيرن مكذبوك بعد زمن قليل نادمين على ما فعلوا ، وستحل بهم نقمتنا ، ولا ينفعهم الندم حينئذ . ثم أخبر أنه أنجز وعيده منهم فقال :

﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء ﴾ أى فسلطنا عليهم نقمتنا فأخذهم العذاب الذى لا قبل لهم به ، وقد كانوا لمثله مستحقين ، بسبب كفرهم وتكذيبهم برسوله فجعلناهم كغثاء السيل ، لا غناء فيهم ، ولا فائدة ترجى منهم .

﴿ فبعدا للقوم الظالمين ﴾ أى فأبعد الله القوم الكافرين بهلاكهم ، إذ كفروا بربهم وعصوا رسوله وظلموا أنفسهم .

وفى هذا من الذلة والمهانة لهم والاستخفاف بأمرهم ما لا يخفى ، وأن الذى ينزل بهم فى الآخرة من البعد من النعيم والثواب أعظم مما حل بهم من العقاب فى الدنيا وفيه عظيم العبرة لمن بعدهم ممن هم عرضة لمثله .

ولقد قال الله فى شأن قوم نوح ﴿ وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ وقال فى قوم هود:﴿ ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ وهنا يقول تعالى:﴿ فبعدا للقوم الظالمين ﴾ :

(١) سورة مريم (٦٦ ، ٦٧)

(٢) سورة التغابن (٧)

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق
شخوص وأشكال تمر وتنقضى فتفنى جميعا والمهيمن باق

فاسألوا التاريخ عن الجبابرة والأكاسرة والقياصرة والأباطرة ، اسألوا التاريخ عمن عمر ومجد وبنى وشيد ؟! تلك بيوتهم خاوية ، سكنتها الذئاب العاوية .

نبكى على الدنيا وما من معشر جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الجبابرة الأكاسرة الألى جمعوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من ذا الذى ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى فحواه لحد ضيق
خرس إذا نودوا كأن لم يعلموا أن الكلام لهم حلال مطلق

يأيها الناس إذا حكمتم فاحكموا بالعدل ، وإذا غرتك قوتك أيها الجبار فانظر إلى قوة العزيز الجبار من فوقك واحذروا الظلم فإنه لا يدوم وإذا دام دمر .

● جاء فى الحديث :

● (من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شىء فليتحلل منه اليوم قبل الا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه ثم طرح فى النار)[1] .

● وروى عبد الله بن أبى الدنيا بسنده إلى أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته والله ما يتكلم لسانها ولكن يداها ورجلاها يشهدان عليها بما كانت تعنت لزوجها فى الدنيا ، ويشهد على الرجل يداه ورجلاه بما كان يولى زوجته من خير أو شر ، ثم يدعى بالرجل وخدمه مثل ذلك فما يؤخذ منهم دوانيق ولا قراريط ولكن حسنات الظالم ترفع إلى

---

(١) الحديث رواه الطبرانى فى المعجم الكبير ، وابن مردويه

ورواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه لكنه بلفظ : من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم ، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه (فتح البارى ١٨٧/١٤ كتاب الرقاق ، باب القصاص يوم القيامة)

ورواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : رحم الله عبدا كانت لأخيه عنده مظلمة فى عرض أو مال ، فجاءه فاستحله قبل أن يؤخذ ، وليس ثم دينار ولا درهم ، فان كانت له حسنات أخذ من حسناته ، وان لم تكن له حسنات حملوا عليه من سيئاتهم وقال الترمذى حسن صحيح (تحفة الأحوذى ٧/ ١٠٣) أبواب صفة القيامة ، باب ما جاء فى شأن الحساب والقصاص)

ورواه الامام أحمد عن أبى هريرة أيضا بلفظ : من كانت عنده مظلمة من أخيه من عرضه أو ماله فليحلله اليوم قبل ان يؤخذ حين لا يكون دينار ولا درهم ، وان كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له أخذ من سيئات صاحبه فجعلت عليه (المسند ٢ /٥٠٦)

من هنا تعلم أن الرواية المذكورة فى التفسير مخالفة للروايات الواردة فى ذلك فالواجب استبدالها **برواية البخارى** المذكورة عاليه ، أو ذكر الروايات الثلاث .

المظلوم ، وسيئات المظلوم تحمل على الظالم ، ثم يؤتى بالجبارين **بمقامع** من حديد فيقال سوقوهم إلى النار ﴾[١] .

● وكان **شريح** القاضى يقول : سيعلم الظالمون حق من انتقصوا ، إن الظالم لينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر النصر والثواب .

● وروى إذا أراد الله بعبد خيرا سلط عليه من ظلمه ،

دخل طاووس اليمانى على هشام بن عبد الملك فقال له : اتق يوم الأذان ، قال هشام : وما يوم الأذان ؟ قال : قوله تعالى ﴿ **فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين** ﴾ فصعق هشام : فقال طاووس : هذا ذل الصفة فكيف المعاينة ؟

● وقال سعيد بن المسيب : لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم لئلا تحبط أعمالكم الصالحة .

● وقال مكحول الدمشقى : ينادى مناد يوم القيامة : أين الظلمة وأعوانهم ؟ فما يبقى أحد حبر لهم دواة أو برى لهم قلما فما فوق ذلك إلا حضر معهم فيجمعون فى تالوب من نار فيلقون فى جهنم .

وجاء خياط إلى سفيان الثورى رحمه الله تعالى فقال : إنى أخيط ثياب السلطان أفترانى من أعوان الظلمة ؟ فقال له سفيان : بل أنت من الظلمة أنفسهم ولكن أعوان الظلمة من يبيع منك الابرة والخيوط .

● وروى عن النبى ﷺ أنه قال : (أول من يدخل النار يوم القيامة السواطون الذين يكون معهم الأسواط يضربون بها الناس بين يدى الظلمة)

● وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : الجلاودة ، أى أعوان الظلمة ، والشرط أى بضم **المعجمة** وفتح الراء : ولاة الشرطة وهم أعوان الولاة والظلمة الواحد منهم شرطى : بضم ففتح ـ كلاب النار يوم القيامة .

● وروى : إن الله تعالى أوحى إلى موسى ﷺ على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة والسلام : ﴿ **أن مر ظلمة بنى إسرائيل أن يقلوا من ذكرى فإنى أذكر من ذكرنى وإن ذكرى إياهم أن ألعنهم** ﴾[٢] .

وفى رواية : (فإنى أذكر من ذكرنى منهم باللعنة)

---

(١) الحديث أورده الحافظ **المناوى** فى الجامع الازهر ١ / ١٨ عن أبى أيوب بلفظ : أول من تختصم يوم القيامة الرجل وامرأته ، والله مايتكلم لسانها ، ولكن يداها ورجلاها فيشهد ان عليها بما كانت تعيب لزوجها ويشهد يداه ورجلاه بما كان يوليها ثم يدعى الرجل وخدمه بمثل ذلك ، ثم يدعى أهل الأسواق وما يوجد ثم لا دوانيق ولا قراريط ، ولكن حسنات هذا تدفع[١] إلى هذا الذى ظلم وسيئات هذا الذى ظلمه تدفع عليه ثم يؤتى بالجبارين فى مقامع من حديد فيقال : ما وردهم إلى النار فو الله ما أدرى يدخلونها أو كما قال الله وان منكم إلا واردها الآية .
ـ وقال : رواه الطبرانى فى الكبير وفيه عبد الله بن عبد العزيز الليثى ضعيف وثق وسعيد بن منصور ، وكان مالك يرضاه وبقية رجاله رجال الصحيح ا هـ وقال السيوطى فى الجامع الكبير ١/٣٤٠ : رواه الطبرانى فى الكبير وابن **مردويه** إلا أنه قال : فيقال اوردهم إلى النار

(٢) **الحديث أورده الحافظ المناوى فى (الاتحافات السنية ص ٣١٩ رقم ٢٣٠) بلفظ : أوحى الله إلى داود أن قل للظلمة لا يذكرونى ، فإنى أذكر من يذكرنى ، وإن ذكرى إياهم أن ألعنهم .**
وقال : رواه الحاكم فى تاريخه والديلمى وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما . ا هـ

وجاء عن النبى ﷺ أنه قال : (لا يقضى أحدكم فى موقف يضرب فيه رجل ظلما فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه)[١] .

وجاء عن النبى ﷺ قال : (أمر بعبد من عباد الله يضرب فى قبره مائة جلدة ، فلم يزل يسأله ويدعو حتى صارت جلدة واحدة فامتلأ قبره عليه نارا فلما ارتفع عنه وأفاق قال : علام جلدتمونى ؟ قيل : إنك صليت بغير طهور ومررت على مظلوم فلم تنصره فهذا حال من لم ينصر المظلوم مع قدرته على نصره فكيف حال الظالم ؟) .

قال بعضهم : رأيت فى المنام رجلا ممن كان يخدم الظلمة والمكاسين بعد موته ، وهو فى حالة قبيحة ، فقلت له : ما حالك ؟ فقال شر حال ، فقلت له : إلى أين صرت ؟ فقال إلى عذاب الله ، قلت : فما الظلمة عن ربهم ؟ قال شر حال أما سمعت قول الله عز وجل ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾[٢]

وقال بعضهم :

رأيت رجلا مقطوع اليد من الكتف ، وهو ينادى من رآنى فلا يظلمن أحدا ، فتقدمت إليه وقلت له : يا أخى ما قصتك ؟ فقال يا أخى قصتى عجيبة ، وذلك أنى كنت من أعوان الظلمة ، فرأيت يوما صيادا قد اصطاد سمكة كبيرة فأعجبتنى ، فجئت إليه فقلت : أعطنى هذه السمكة ، فقال لا أعطيكها ، أنا آخذ ثمنها قوتا لعيالى ، فضربته وأخذتها منه قهرا ، ومضيت بها قال فبينما أنا ماش بها حاملها ، إذ عضت على إبهامى عضة قوية ، فلما جئت بها إلى بيتى وألقيتها من يدى ، ضربت على إبهامى وآلمتنى ألما شديدا حتى لم أنم من شدة الوجع وورمت يدى ، فلما أصبحت أتيت الطبيب وشكوت إليه الألم ، فقال : هذه بدو أكلة ، اقطعها وإلا تلفت يدك كلها ، فقطعت إبهامى ، ثم ضربت يدى فلم أطق النوم ولا القرار من شدة الألم ، فقيل لى اقطع كفك فقطعتها ، وانتشر الألم إلى الساعد وآلمنى شديدا ، ولم أطق النوم ولا القرار ، وجعلت استغيث من شدة الألم .

فقيل لى : اقطعها من المرفق فقطعتها ، فانتشر الألم إلى العضد وضربت على عضدى أشد من الألم فقيل لى اقطع يدك من كتفك ، وإلا سرى إلى جسدك كله فقطعتها ، فقال لى بعض الناس : ما سبب ألمك فذكرت له قصة السمكة ، فقال لى : كنت رجعت من أول ما أصابك الألم إلى صاحب السمكة ، فاستحللت منه واسترضيته ولا قطعت يدك ، فاذهب الآن إليه واطلب رضاه قبل أن يصل الألم إلى بدنك ، قال : فلم أزل أطلبه فى البلد حتى وجدته ، فوقعت على رجليه أقبلها وأبكى وقلت : يا سيدى سألتك بالله إلا ما عفوت عنى ، فقال لى : ومن أنت ؟ فقلت أنا الذى أخذت منك السمكة غصبا ، وذكرت له ما جرى وأريته يدى فبكى حين رآها ثم قال : ياأخى قد حاللتك منها لما قد رأيت بك من هذا البلاء ،فقلت له : بالله يا سيدىهل كنت دعوت على لما أخذتها منك ؟ قال نعم . قلت :

---

(١) الحديث اورده المنذرى فى الترغيب والترهيب ٣ / ٣٠٤ عن ابن عباس رضى الله عنهما بلفظ : لا يقفن أحدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما فإن اللعنة تنزل على كل من حضر حين لم يدفعوا عنه ولا يقفن أحدكم موقفا يضرب فيه رجل ظلما فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه .

وقال : رواه الطبرانى والبيهقى باسناد حسن ا هـ

(٢) سورة الشعراء (٢٢٧)

اللهم هذا تقوى على بقوته على ضعفى وأخذ منى ما رزقتنى ظلما فأرنى فيه قدرتك ، فقلت له : يا سيدى قد أراك الله قدرته فى وأنا تائب إلى الله عز وجل عما كنت عليه من خدمة الظلمة ولا عدت أقف لهم على باب ولا أكون من أعوانهم ما دمت حيا إن شاء الله تعالى .

قصص صالح ولوط وشعيب وغيرهم

﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون . ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون** ﴾ .

وفى هذه الآيات الكريمة يخبر تعالى عن سنته الكونية فى الأمم ، فيقول ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين** ﴾ . أى من بعد عاد قوم هود . أنشأنا وأوجدنا أهل قرون آخرين كثيرين ، فلما كذبوا أهلكناهم ، وتلك عاقبة الظالمين ، وإذا جاء أجلهم وحان عقابهم لا يسبقون هذا الأجل الذى حدده الله لهم ولا يستأخرون عنه ﴿ **إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون** ﴾(١)

قال تعالى : ﴿ **ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون** ﴾ وقال سبحانه ﴿ **ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون** ﴾ وقال سبحانه : ﴿ **وكل شىء عنده بمقدار ● عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** ﴾(٢) ثم أخبر تبارك اسمه انه أرسل رسله تترى أى متتابعين فبلغت الرسل رسالات ربها وصدقت بكلماته وكتبه ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾(٣)

لقد أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين ، فكذبوا وأوذوا كلما جاء أمة رسولها كذبوه ، فكان الجزاء العادل ، فأتبعنا بعضهم بعضا أى أخذناهم بالعذاب أمة بعد الأخرى ، وجعلناهم أحاديث للناس وأعاجيب يتحدثون بها ويتلهون من شأنها ﴿ **فبعدا لقوم لا يؤمنون** ﴾ وهلاكا لهم وعلى الأمم التى تقرأ هذا الكتاب المجيد أن تأخذ من أحداث التاريخ عبرة فإن القصص فى القرآن مدرسة عظمى لم ينزله الله لنتسلى به أو نتغنى بقراءته إنما أنزله ليكون لنا تذكره ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾(٤) ﴿ **تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾(٥) . فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد.وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب** ﴾

﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد . إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود** ﴾(٦) .

(١) سورة نوح (٤)
(٢) سورة الرعد (٨-٩)
(٣) سورة النحل (٣٦)
(٤) يوسف (١١١)
(٥) الأعراف (١٠١/ ١٠٢)
(٦) سورة هود (١٠٠ ـ ١٠٤)

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾[1] .

قصة موسى وهارون عليهما السلام

﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين . فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون . فكذبوهما فكانوا من المهلكين . ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾

قوله تعالى **﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين ﴾** . أى ثم أرسلنا بعد الرسل الذين تقدم ذكرهم من قبل ـ موسى وأخاه هارون إلى فرعون وأشراف قومه من القبط بالآيات والحجج الدامغة والبراهين القاطعة فاستكبروا عن اتباعهما والانقياد لما أمروا به ودعوا إليه ، من الايمان وترك تعذيب بنى إسرائيل كما جاء فى سورة النازعات : **﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾**[2] وقد كان من دأبهم العتو والبغى على الناس وظلمهم كبرا وعلوا فى الأرض .

ثم ذكر ما استتبعه هذا العتو والجبروت .

﴿ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟ ﴾ أى فقال فرعون وملؤه كيف ندين لموسى وأخيه ، وبنو إسرائيل قومهما خدمنا وعبيدنا يخضعون لنا ويتلقون أوامرنا ؟

وما قصدوا بهذا إلا الزراية بهما والحط من قدرهما وبيان أن مثلهما غير جدير بمنصب الرسالة وقد قاسوا الشرف الدينى والامامة فى تبليغ الوحى عن الله بالرياسة الدنيوية المبنية على نيل الجاه والمال .

وهم فى هذا أشبه بقريش إذ قالوا : **﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾** وقد فاتهم أن مدار النبوة والاصطفاء للرسالة إنما هو السبق فى الفضائل النفسية والصفات السنية التى يتفضل الله بها على من يشاء من عباده ، فالأنبياء لصفاء نفوسهم ، يتصلون بالعالم العلوى وعالم المادة . فيتلقون الوحى من الملأ الأعلى ويبلغونه إلى البشر ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل والانقطاع إلى حضرة الحق .

وإن تعجب من شىء فاعجب لهؤلاء وأمثالهم ممن لم يرض النبوة للبشر كيف سوغت لهم أنفسهم ادعاء الألوهية للحجر **﴿ فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾** .

ثم ذكر عاقبة أعمالهم وما آل إليه أمرهم فقال :

﴿ فكذبوهما فكانوا من المهلكين) أى فأصر فرعون وملؤه على تكذيب موسى وهارون فأهلكهم الله بالغرق فى بحر القلزم (البحر الأحمر) كما أهلك من قبلهم من الأمم بتكذيبهم لرسلهم .

ثم ذكر ما أولاه موسى بعد هلاكهم من التشريف والتكريم فقال :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾ أى ولقد أنزلنا على موسى التوارة وفيها الأحكام من الأوامر والنواهى بعد أن أهلكنا فرعون وملأه وأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، رجاء أن يهتدى بها قومه إلى الحق ويعملوا بما فيها من الشرائع .

---

(١) سورة الأعراف (٩٦)
(٢) سورة النازعات (١٧ ، ١٨ ، ١٩)

المسيح وأمه

﴿ **وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين** ﴾

ابن مريم هو المسيح ، وإنما كان آية ، لأنه خلق بلا أب ، وإنما كانت أمه آية لأنها حملت به دون أن يمسها بشر ، وإنما عبر عنهما بأنهما آية ، ولم يقل وجعلنا ابن مريم وأمه آيتين لاشتراكهما فى تلك الآية فكلاهما آية واحدة دالة على قدرة الله تعالى وعظمته ، كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ **والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين** ﴾[1] ولقد أجرى الله على يدى عيسى من المعجزات الكثير والكثير قال جل شأنه :ـ

﴿ **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى** ﴾[2] إلى غير ذلك من الخوارق .

قوله تعالى ﴿ **وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين** ﴾ .

أى وجعلناهما ينزلان بمرتفع من الأرض ذى ثمار وماء جار كثير .

قال قتادة : الربوة : بيت المقدس وقال مقاتل والضحاك : هى غوطة دمشق إذ هى ذات الثمار والماء .

● قوله تعالى ﴿ **يأأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾

قال الحسن البصرى فى قوله ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات** ﴾ قال أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم ولكن قال انتهوا إلى الحلال منه .

وقال سعيد بن جبير والضحاك : كلوا من الطيبات : يعنى الحلال وقال عمرو بن شرحبيل كان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه

وفى الصحيح (**وما من نبى إلا رعى الغنم**) قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال (نعم وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)[3] .

وفى الصحيح (إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده)[4] .

وفى الصحيحين (إن أحب الصيام إلى الله صيام داود وأحب القيام إلى الله قيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى ﴾[5] .

---

(١) سورة الأنبياء (٩١)

(٢) سورة المائدة (١١١)

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب الاجارة رقم/٢ ، وفى كتاب الأطعمة رقم /٥ ، وفى كتاب الأنبياء رقم/٢٩ ، ومسلم فى كتاب الايمان رقم ٣٠٢ ، وفى كتاب الأشربة رقم ١٦٥ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب الاستئذان رقم /١٨ ، وأحمد فى مسنده ٣ / ٣٢٦

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب البيوع رقم ١٥٠

(٥) الحديث أخرجه الامام أحمد فى مسنده ٢ / ٣١٤ ، ١٦٠ ، ٦٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢١٦ ، البخارى فى كتاب التهجير رقم ٧ ، وفى كتاب الأنبياء رقم ٣٧ ، ٣٨ ، ومسلم فى كتاب الصيام ١٨٩ ، ١٩٠ ، وأبو داود فى كتاب الصوم رقم ٦٦ والنسائى فى كتاب الصيام رقم ١٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ وابن ماجه فى ابواب الصوم رقم ٣١ ، والدارمى فى سننه فى كتاب الصوم رقم ٤٢

وعن أم عبد الله بنت شداد بن أوس قالت بعثت إلى النبى ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم ، وذلك فى أول النهار وشدة الحر ، فرد إليها رسولها أنى كانت لك الشاة ؟ فقالت اشتريتها من مالى فشرب منه ، فلما كان الغد أتته أم عبد الله بنت شداد بن أوس ، فقالت يا رسول الله بعثت إليك بلبنى مرثية لك من طول النهار وشدة الحر فرددت إلى الرسول فيه فقال لها.« بذلك أمرت الرسل الا تأكل إلا طيبا ولا تعمل إلا صالحا »(١)

وجاء فى صحيح مسلم وجامع الترمذى ومسند الأمام أحمد عن عدى بن ثابت عن أبى حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال :﴿ **يأأيها الرسل كلوامن الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم** ﴾ .

وقال ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر اشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام يمد يديه إلى السماء يارب يارب فأنى يستجاب لذلك﴾ (٢) .

فهذه الآية الكريمة اشتملت على أمرين كريمين أولهما كلوا من الطيبات وثانيها واعملوا صالحا ويرحم الله زمانا كانت الزوجة تقول لزوجها صباحا حين يخرج مستقبلا يومه يا فلان اتق الله فينا ولا تأكل حراما فإننا نصبر على الجوع فى الدنيا ولا نصبر على عذاب النار يوم القيامة .

إن الحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد **ذخرا** وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب كما أن الذى يمضى بعيد

قوله تعالى ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾

الأمة هنا بمعنى الملة فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول (**لا إله إلا الله**) قال تعالى : يخاطب حبيبه ومصطفاه :ـ

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾(٣) وقال صلوات ربى وسلامه عليه ﴿ **أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى لا إله إلا الله** ﴾(٤)

---

(١) الحديث اخرجه أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه .
(الدر المنثور ٥/ ١٠ تفسير ابن كثير ٥ / ٤٧١ ط : الشعب)
الحديث رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك

(٢) الحديث رواه مسلم فى الزكاة رقم / ٦٥ ، والترمذى فى تفسير سورة البقرة ، والدارمى فى كتاب الرقاق رقم ٩ ، واحمد فى مسنده ٢ /٣٢٨

(٣) سورة الانبياء (٢٥)

(٤) الحديث رواه مالك فى كتاب القرآن رقم ٣٢ وفى كتاب الحج رقم ٢٤٦ ، والترمذى فى الدعوات رقم ١٢٢ عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عن طلحة بن عبيد الله بن كريم ، باب فى دعاء يوم عرفه بلفظ : خير الدعاء دعاء يوم عرفه وخير ما قلت انا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ـ وقال حسن غريب (تحفه الاحوذى ١/ ٤٥ رقم ٣٦٥٥)

اللهم لك الحمد ان جعلتنا مسلمين وكلمة التوحيد عليها نحيا وعليها نموت وفى سبيلها نجاهد وعليها نلقى الله .

وعيد وتهديد

فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

تفسير المفردات

فتقطعوا : أى قطعوا ومزقوا

أمرهم : أى أمر دينهم

زبرا : أى قطعا واحدها زبور .

فذرهم : أى فدعهم واتركهم فى غمرتهم أصل الغمرة الماء الذى يغمر القامة ويسترها والمراد بها الجهالة

حتى حين : أى إلى أن يموتوا فيستحقوا العذاب

نمدهم : نعطيهم مددا لهم .

التفسير

يحدثنا المولى الكريم فى هذه الآيات عن الأمم التى تمزقت وتفرقت بعد انبيائها وهم يعلمون أن دين الله واحد هو الاسلام ﴿ **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾

إن هؤلاء الذين تقطعوا وتمزقوا تفرقوا أحزابا وكلها تقوم على الضلال وتشرذموا. **وكل فريق بما لديهم فرحون** بجهالتهم وضلالهم ، كل هؤلاء ﴿ **لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون** ﴾ الله تعالى يهدد هؤلاء ويوعدهم فيقول لرسوله ﴿ **فذرهم فى غمرتهم حتى حين** ﴾ أى دعهم فى ضلالتهم وجهلهم وغيهم فذرهم فى خوضهم يلعبون ، وفى طغيانهم يلعبون ، وفى ريبهم يترددون ، حتى حين أى إلى أن يأتى الله بأمره ﴿ **حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا** ﴾[1] . أيحسب هؤلاء أنما نمدهم به من المال والبنين أنما فعلنا ذلك اكراما لهم لا ، انهم مغرورون ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين** ﴾[2] . فليست كثرة المال والولد دليلا على الاكرام ، وليس الابتلاء بضيق الرزق دليلا على الاهانة .

بل إن المقياس العادل هو تقوى الله .

﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[3] .

ثم اقرأ معى قوله جل شأنه ﴿ **فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن. وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلا** ﴾[4]

---

(١) سورة مريم (٧٥)

(٢) سورة الأعراف (١٨٢ ، ١٨٣)

(٣) سورة الحجرات (١٣)

(٤) سورة الفجر (١٥ ، ١٦ ، ١٧)

ثم اقرأ معى قوله جل شأنه: ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾[١]
﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾
قال تعالى ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ﴾[٢]

وقال عز من قائل: ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾[٣]

المسارعون فى الخيرات

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

تفسير المفردات

الخشية : الخوف من العقاب والاشفاق نهاية الخوف والمراد لازمه ، وهو دوام الطاعة .
والآيات : هى الآيات الكونية فى الأنفس والآفاق والآيات المنزلة .
وجلة : أى خائفة .
سابقون : أى ظافرون بنيلها .

التفسير

قال الحسن البصرى : وان المؤمن جمع احسانا وشفقة وإن المنافق جمع إساءة وأمنا .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم انسان
وامدد يديك بحبل الله معتصما فإنه الركن إن خانتك أركان

﴿ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾ أى يؤمنون بآياته الكونية والشرعية كقوله تعالى إخبارا عن مريم عليها السلام ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه ﴾[٤] أى أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه وما شرعه الله فهو إن كان أمرا فمما يحبه ويرضاه ، وإن كان نهيا فهو مما يكرهه ويأباه وإن كان خيرا فهو حق كما قال الله ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾ أى لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحدا صمدا لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأنه لا نظير له ولا كفء له .
﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾

(١) سورة الحجر (٣)
(٢) سورة آل عمران (١٧٨)
(٣) سورة التوبة (٥٥)
(٤) سورة التحريم (١٢)

أى يعطون العطاء وهم خائفون وجلون الا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشروط الاعطاء وهذا من باب الاشفاق والاحتياط .

● كما قال الامام احمد عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة أنها قالت يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال **(لا يابنت أبى بكر يا بنت الصديق ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل)**(١) .

وقال الامام أحمد عن أبى خلف مولى بنى جحج أنه دخل مع عبيد بن عمر على عائشة رضى الله عنها فقالت مرحبا بأبى عاصم ما يمنعك أن تزورنا أوتلم بنا ، فقال أخشى أن أملك فقالت : ما كنت لتفعل ، قال جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها ؟

قالت أية آية ؟ قال **﴿ الذين يؤتون ما آتوا ﴾ ﴿ والذين يؤتون ما أتوا ﴾**

فقالت أيهما أحب إليك ؟ فقلت والذى نفسى بيده لأحدهما أحب إلى من الدنيا جميعا أو الدنيا وما فيها قالت وما هى ، فقلت **﴿ الذين يأتون ما أتوا ﴾** فقالت أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف(٢) . والمعنى على القراءة الأولى وهى قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر لانه قال **﴿ أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾**

فجعلهم من السابقين ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك الا يكون من السابقين بل من المقتصرين أو المقصرين .

قطع المعاذير

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ

(١) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ٢ / ١٥٩ ، ٢٠٥ ، وابن ماجه فى ابواب الزهد رقم / ٢٠
(٢) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ٦ / ٩٥

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

تفسير المفردات

الوسع : ما يتسع على الانسان فعله ولا يضيق عليه

الكتاب : هو صحائف الأعمال

بالحق : أى بالصدق

الغمرة : الغفلة والجهالة

من دون ذلك : أى غير ذلك

المترف : المتوسع فى النعمة

جأر الرجل : صاح ورفع صوته

لا تنصرون : أى لا يجيركم أحد ولا ينصركم .

تنكصون : أى:تعرضون عن سماعها وأصل النكوص : الرجوع على الأعقاب (العقب مؤخر الرجل) ورجوع الشخص على عقبه : رجوعه فى طريقه الأولى كما يقال رجع عوده على بدئه .
سامرا : أى: تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه والهجر (بالضم) الهذيان.
الجنة : الجنون .
الذكر : القرآن الذى هو فخرهم.
عن ذكرهم : عن فخرهم.
خرجا : أى جعلا وأجرا .
صراط مستقيم : أى طريق لا عوَج فيه
لناكبون : أى عادلون عن طريق الرشاد ، يقال نكب عن الطريق : إذا زاغ عنه .
لج فى الأمر : تمادى فيه .
يعمهون : أى يتحيرون ويترددون فى الضلال .
استكانوا : خضعوا وذلوا .
ما يتضرعون : أى يجدون التضرع والخضوع ، مبلسون : أى: متحيرون آيسون من كل خير .
ذرأكم فى الأرض : أى خلقكم. وبثكم فيها
اختلاف الليل والنهار : تعاقبهما ، من قولهم : فلان يختلف إلى فلان : أى: يتردد عليه بالمجىء والذهاب .
الأساطير : الأكاذيب واحدها أسطورة كأحدوثة وأعجوبة .
تتقون : أى تحذرون عقابه .
الملكوت : الملك والتدبير .
يجير : أى:يغيث ، من قولهم:أجرت فلانا من فلان إذا أنقذته منه ولا يجار عليه : أى:لا يعين أحد منه أحدا .
تسحرون : أى تخدعون وتصرفون عن الرشد .

التفسير

قوله تعالى **﴿ ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون . بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون . حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون . لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون . قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون . مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾**

هذا منطق العدالة الالهية المقرون بالحكم والرحمة **﴿ ولانكلف نفسا إلا وسعها ﴾** لقد اقتضت عدالة الله وهو الحكم العدل ألا يكلف عباده إلا بما يطيقون ويستطيعون ، ثم اقتضت تلك العدالة أن يسجل الأعمال فى صحائفها حتى يرى العبد ما قدمت يداه فى يوم **﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾**[1] فياله

(١) سورة الحج (٢)

من يوم ما أطوله ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾[١] .

واقرأ قوله جل شأنه:﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون.وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾[٢] . تباركت ربنا وتعاليت ، حكمت فعدلت ، وعلوت فقهرت ، وملكت فقدرت ، وبطنت فخبرت وجل جلالك إذ تقول ﴿ ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون » سبحانك أنت القائل ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾[٣]» وأنت القائل :﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[٤] .

لقد حرمت الظلم على نفسك ، وحرمته على خلقك ونهيتهم عنه وأوعدت الظالمين فى قولك ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾[٥] .

أما هؤلاء الذين صمت آذانهم عن سماع الحق ، وعميت بصائرهم عن إدراكه فالله يقول فيهم ﴿ بل قلوبهم فى غمرة من هذا ﴾ أى فى جهالة وضلالة عن منطق الحق المبين ﴿ ولهم أعمال من دون ذلك ﴾ أى أعمال سيئة غير ما تقدم وهؤلاء فاعلون لتلك الأعمال السيئة وسوف يحاسبهم الله على سوء اختيارهم ويقال لهم ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾[٦] .

غـدا توفى النفـوس مـا كسبت ويحصـد الزارعـون مـا زرعـوا
إن أحسنـوا أحسنـوا لأنفسهم وإن اساءوا فبئس مـا صنعـوا

قوله تعالى ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ﴾ يعنى حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون فى الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿ إذا هم يجأرون ﴾ أى يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى ﴿وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾[٧]

وقال تعالى ﴿ وكم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾[٨] وقوله ﴿ لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ﴾ أى لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولاوزر لزم الأمر ووجب العذاب .

فالله إذا حكم لا معقب لحكمه وإذا قضى فلا راد لقضائه وهو سريع الحساب ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ﴾[٩] فجددوا السفينة فإن البحر عميق ، وأكثروا من الزاد فإن السفر طويل ، وأخلصوا العمل فإن الناقد بصير وخففوا الحمل فإن العقبة كئود ولا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور .

تالله لو عاش الفتى فى دهره ألفاً من الأعوام مالكَ أمـره

(١) سورة آل عمران (٣٠)
(٢) سورة الجاثية (٢٧/ ٢٩)
(٣) سورة النساء (٤٠)
(٤) سورة يونس (٤٤)
(٥) سورة إبراهيم (٤٢)
(٦) سورة آل عمران (١٨٢)
(٧) سورة المزمل (١١/ ١٣)
(٨) سورة ص (٣)
(٩) سورة الشورى (٤٧)

متنعما فيها بكل نفيسة متلذذا فيها بأنعم عصره
لا يعتريه الهمّ فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى بمبيت أول ليلة فى قبره

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال ﴿ قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ أى:إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم ﴿ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ﴾(١)

﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾(٢) .

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ﴾(٣) .

إن النكوص على الأعقاب بعد ما تبين الهدى ردة عن الحق وانتكاسة عن سبيل الرشاد .

﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها . إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم.ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم ﴾ .

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى.قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا.قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ .

وقوله ﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾ فى تفسيره قولان

أحدهما : أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكبارا عليه واحتقارا له ولأهله ، فعلى هذا الضمير فى (به) فيه ثلاثة أقوال

احدها :ـ أنه الحرم أى مكة ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام

الثانى :ـ أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام : إنه سحر إنه شعر إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة .

الثالث : أنه محمد ﷺ ، كانوا يذكرونه فى سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة ، من أنه شاعر أو كاهن أوساحر أو كذاب أو مجنون ، فكل ذلك باطل بل هو عبد الله ورسوله الذى أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء .

وقيل : المراد بقوله ﴿ مستكبرين به ﴾ أى بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به كما قال النسائى فى تفسير من سننه أخبرنا أحمد عن عبد الأعلى : أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية ﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾ فقال مستكبرين بالبيت يقولون عن أهله سامرا قال كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه .

---

(١) سورة غافر (١٢)
(٢) سورة الزمر (٤٥)
(٣) سورة الاسراء (٤٦)

قوله تعالى :
﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون . ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون . أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين . وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون . ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

التفسير

قال قتادة فى قوله تعالى:﴿ أفلم يدبروا القول) إذن والله يجدون فى القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ، ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلكوا عند ذلك ، لو أنهم تدبروا القرآن وحركوا به القلوب ووقفوا عند عجائبه لحلت الهداية قلوبهم ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ﴾[1] وقال سبحانه ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها . ﴾[2] .

لقد بلغ من تدبر الصالحين للقرآن أنهم كانوا إذا قرأوا قوله تعالى:﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾[3] .
عندما يقرأون هذه الآية كانوا يظلون الليل يبكون يقول أحدهم لست أدرى من أى الفريقين أنا ؟ لذا : سميت تلك الآية « بكاءة المؤمنين » لقد كان الطعام يؤتى به لرسول الله فيأمرهم برفعه لمدة ثلاثة أيام وذلك بعد ما نزل عليه قوله تعالى فى حق أهل النار﴿ إن لدينا أنكالا وجحيما . وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾[4] كلما تذكر طعامهم عزفت نفسه عن الطعام إن هذا الكتاب من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن علم علمه سبق ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم ﴿ وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[5] .

قوله تعالى ﴿ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾ أى أم اعتقدوا أن مجيء الرسل أمر لم تسبق به السنن فاستبعدوا وقوعه لكنهم قد عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تترى وتظهر على أيديهم المعجزات ، فهلا كان ذلك داعيا لهم إلى التصديق بهذا الرسول الذى جاء بذلك الكتاب الذى لا ريب فيه .

قوله تعالى ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ أى بل أكان محمد دخيلا عليهم وغريبا عنهم ألم يعرفوه ويعاشروه لقد عرفوه بالصادق الأمين وكان ذلك لقبه بينهم فكيف ينكرونه بعد أن دعاهم إلى توحيدالله ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به. فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون

(١) سورة الاسراء (٩)
(٢) سورة محمد (٢٤)
(٣) سورة الجاثية (٢١)
(٤) سورة المزمل (١٢، ١٣)
(٥) سورة فصلت (٤١ ، ٤٢)

فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾[١] .

إن الله تعالى قال عن رسوله ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾[٢] فذكره هنا بوصف الصاحب لهم لأنه عاش بينهم قبل الرسالة أربعين عاما فكيف لا يعرفونه وهو صاحبهم إن هذا لهو الضلال المبين والبهتان العظيم والاثم الجسيم .

قال جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه للنجاشي ملك الحبشة : أيها الملك إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم .

وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبى ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته وكانوا بعد كفارا لم يسلموا ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك .

قوله تعالى ﴿ أم يقولون به جنة ﴾ أى بل أيقولون به جنون وهم يعلمون أنه أعقل العقلاء وأفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾[٣] وكيف يكون به جنة وهو أذكى الأذكياء ، أليس هو الذى فض النزاع يوم اختلفت القبائل على وضع الحجر الاسود . ولولا أنهم حكموه لخطبت السيوف على منابر الرقاب وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب . أيكون مثل هذا به جنة . سبحانك هذا بهتان عظيم .

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾[٤]

﴿ ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ﴾[٥]

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

يا سيد العقلاء يا خير الورى يـامن أتيت إلى الحيـاة مبشـرا
وبعثت بالقرآن نورا هاديا وطلعت فى الأكـوان بدرا نيـرا
والله ما خلق الاله ولا بـرى بشرا يرى كمحمد بين الورى .

قوله ﴿ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ﴾ فالتوحيد حق والأنبياء حق ، والبعث حق والملائكة حق ، والكتب حق ، وكل ما جاء به محمد ﷺ هو الحق المبين .

ولكنهم يكرهون ذلك الحق ، لما ران على قلوبهم من ظلمات الغفلة ودياجير الباطل وغياهب الانكار .

قال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقى رجلا فقال له (أسلم) فقال الرجل إنك لتدعونى إلى أمر أنا له كاره . فقال نبى الله ﷺ (وإن كنت كارها)[٦] وذكر لنا أنه لقى رجلا فقال له (أسلم) فتصعده ذلك وكبر عليه . فقال له نبى الله ﷺ (أرأيت لو كنت فى طريق وعر وعث فلقيت رجلا تعرف وجهه

(١) سورة يونس (١٦ ، ١٧)
(٢) سورة النجم : ٢
(٣) سورة الطور (٢٩)
(٤) سورة الكهف (٥)
(٥) سورة القلم (من الآية ١ إلى الآية ٦)
(٦) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٣ / ١٠٩ ، ١٨١ عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل : أسلم ، قال : أجدنى كارها ، قال أسلم وإن كنت كارها .

وتعرف نسبه فدعاك إلى طريق واسع سهل أكنت تتبعه ؟) قال نعم قال (فوالذى نفس محمد بيده إنك لفى أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه وإنى لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت إليه)[١] .

وذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقى رجلا فقال له (أسلم) فتصعده ذلك فقال له نبى الله ﷺ (أرأيت لو كان لك فتيان أحدهما إذا حدثك صدقك ، إذا ائتمنته أدى إليك ، أهو أحب اليك ، أم فتاك الذى إذا حدثك كذبك ، وإذا ائتمنته خانك ؟) قال بل فتاى الذى إذا حدثنى صدقنى وإذا ائتمنته أدى إلى فقال نبى الله ﷺ (كذاكم أنتم عند ربكم) .[٢]

وقوله تعالى ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾

قال مجاهد وأبو صالح والسدى : الحق هو الله عز وجل ، والمراد لو أجابهم الله إلى ما فى أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ، ومن فيهن أى لفساد أهوائهم واختلافها كما أخبر عنهم فى قولهم ﴿ **لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾[٣] ثم قال ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق** ﴾[٥] وقال : ﴿ **أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا** ﴾[٦] . ففى هذا كله يتبين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم وأنه تعالى هو الكامل فى جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه ، تعالى وتقدس ، فلا إله غيره ولا رب سواه ، ولهذا قال ﴿ **بل أتيناهم بذكرهم** ﴾ أى القرآن ﴿ **فهم عن ذكرهم معرضون** ﴾ وقوله ﴿ **أم تسألهم خرجا** ﴾ قال الحسن أجرا وقال قتادة جعلا ﴿ **فخراج ربك**) أى أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلا ولا شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى بل أنت فى ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه .

كما قال ﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله** ﴾[٧] وقال ﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين** ﴾[٨] وقال ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى** ﴾[٩] وقال ﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا** ﴾[١٠].

قوله تعالى : ﴿ وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾ .

---

(١) الحديث رواه أحمد والضياء المقدسى

(٢) الحديث اورده السيوطى فى جامعه الكبير ١ / ٩٧ : بلفظ أرأيت لو كان لك عبدان أحدهما يخونك ويكذبك ، والآخر يصدقك ولا يخونك أيهما أحب إليك فكذا كم أنتم عند ربكم ـ وعزاه لأحمد والحكيم الترمذى والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الايمان عن والد أبى الأحوص .

والحديث عن أحمد فى المسند ٤ /١٣٧ فى حديث طويل . . أرأيت لو كان عبدان أحدهما يطيعك ولا يخونك والآخر يخونك ويكذبك ، قال قلت : (بل الذى لا يخوننى ولا يكذبنى ويصدقنى الحديث أحب إلى ، قال كذا كم أنتم عند ربكم عز وجل .

(٣) الزخرف (٣١)

(٤) الزخرف (٣٢)

(٥) الاسراء (١٠٠)

(٦) النساء (٥٣)

(٧) سورة سبأ (٤٧)

(٨) سورة ص (٨٦)

(٩) سورة الشورى (٣٣)

(١٠) سورة يس (٢٠ ، ٢١)

قال الامام أحمد : عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه : اضرب مثل هذا ومثل أمته ، فقال : إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة ، فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضا معشبة ، وحياضا رواء أتتبعونى ؟ فقالوا نعم ، قال فانطلق بهم فأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا ، فقال لهم ألم ألقكم على تلك الحال فجعلت لى إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعونى ؟ فقالوا بلى ، قال فإن بين أيديكم رياضا أعشب من هذه وحياضا هى أروى من هذه فاتبعونى قال : فقالت طائفة صدق والله لنتبعه وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه .[١]

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إننى ممسك بحجزكم هلم عن النار هلم عن النار ، وتغلبوننى تتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب ، فأوشك أن أرسل حجزكم ، وأنا فرطكم على الحوض فتردون على معا وأشتاتا أعرفـ بسيماكم وأسمائكم كما يعرف الرجل الغريب من الابل فى إبله فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال ، فأناشد فيكم رب العالمين أى رب قومى أى رب أمتى ، فيقال يا محمد إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على اعقابهم ، فلأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك من الله شيئا قد بلغت ، ولأ عرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل بعيرا له رغاء ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرسا لها حمحمة فينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ولأعرف أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل سقاء من أدم ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت)

قوله تعالى ﴿ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾

يقال نكب عن الطريق إذا زاغ عنها وذلك لأنهم لما عدلوا عن اتباع الحق زاغوا ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين** ﴾[٢] .

قال جل شأنه ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون** ﴾[٣] .

وقال جل شأنه ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** ﴾[٤]

وقال سبحانه ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار** ﴾[٥] وقال عز وجل ﴿ **أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون** ﴾[٦] .

---

(١) الحديث رواه احمد فى مسنده ١ / ٦٦٧
(٢) سورة الصف (٥)
(٣) سورة فصلت (١٧)
(٤) سورة البقرة (١٦)
(٥) سورة البقرة (١٧٥)
(٦) سورة البقرة (٨٦)

لقد أنكروا البعث وما بعده (وقالوا إن هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) هؤلاء وأمثالهم من أصحاب المذاهب المادية يقول الله فيهم ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾[١]

قوله تعالى ﴿ ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون ﴾ ونحو ذلك قوله تعالى ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾[٢] .

وقوله جل جلاله ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾[٣] .

لقد علم الله فيهم هذا فإنه سبحانه أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا علم ما كان وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٤] وقال سبحانه ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[٥] هؤلاء وضرباؤهم لو أن الله تعالى رحمهم وكشف عنهم ما نزل بهم من ضير من فقر وقحط وبلاء ومرض لتمادوا فى طغيانهم وعتوهم يعمهون ويتحيرون فذرهم فى غمرتهم حتى حين وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

ومن هنا نعلم أن الله تعالى لا يعجل كعجلة أحدنا بل إنه ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾[٦] قال سبحانه ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٧] ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون ﴾[٨] ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[٩] .

قوله تعالى :﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم ومايتضرعون . حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون . وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون . وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون . وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون . بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾

التفسير

قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس أنه قال جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز ـ يعنى الوبر والدم ـ فأنزل الله ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا ﴾ .

---

(١) سورة الكهف (١٠٠ ، ١٠١)
(٢) سورة الانفال (٢٢ ، ٢٣)
(٣) سورة الانعام (٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩)
(٤) سورة يونس (٩٦ ، ٩٧)
(٥) سورة الحجر (١٤ ، ١٥)
(٦) سورة إبراهيم (٤٧)
(٧) سورة هود (١٠٢)
(٨) سورة المائدة (١٠٠)
(٩) سورة البقرة (٢٨١)

● وكذا رواه النسائى عن محمد بن عقيل وأصله فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال (اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف) .

ومعنى ﴿ فما استكانوا ﴾ أى ما صغوا ، ومعنى وما يتضرعون : أى وما يدعون الله قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾(١)

وإذا رميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقربُ

وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين عن عمر بن كيسان حدثنى وهب بن عمر بن كيسان قال : حبس وهب بن منبه فقال له رجل من الأبناء ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله ، فقال وهب نحن فى طرف من عذاب الله والله يقول ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ قال وصام وهب ثلاثا متواصلة فقيل له ما هذا الصوم يا أبا عبد الله ؟ قال أحدث لنا فأحدثنا : يعنى أحدث لنا الحبس فأحدثت زيادة عبادة .

قوله تعالى ﴿ حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ﴾ أى إن هؤلاء القوم والذين غرتهم الحياة الدنيا ورضوا بها واطمأنوا إليها لو أن الله تعالى أخذهم بغتة وفتح عليهم بابا ذا عذاب شديد . فإنهم حينئذ سيبلسون وييئسون حيث لا مفر ولا مرد ، إذ العذاب إذا جاء لا يؤخر ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون . ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ﴾(٢) فيا أمة الاسلام بادروا بالأعمال الصالحة سبعا هل تنتظرون إلا فقرا منسيا أو غنى مطغيا أو مرضا مفسدا أو هرما مفندا أو موتا مجهزا أو الدجال فشر غائب ينتظر . أو الساعة والساعة أدهى وأمر .

قال تعالى ﴿ فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم . هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾(٣) وقال عز من قائل ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾(٤) .

ثم عدد الله تعالى عليهم نعمه فقال ﴿ وهو الذى أنشألكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾(٥) .

فهذه نعم لا تحصى وتلك آيات وآلاء لا تستقصى ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾(٦) .

---

(١) سورة الأنعام ،(٤٢/٤٣/٤٤/٤٥)
(٢) سورة الروم (١٢ / ١٣)
(٣) سورة الزخرف (٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧)
(٤) سورة الروم (٥٥)
(٥) سورة المؤمنون (٧٨)
(٦) سورة النحل (٧٨)

﴿ **هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾[1] .

وكان الواجب أن تشكروا صاحب النعم فشكر المنعم واجب ولكن قليلا ما تشكرون ثم بين الله تعالى قدرته على خلقهم وتكثيرهم ونشرهم فى قارات الأرض فقال ﴿ **وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون** ﴾ والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر ﴿ **إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم** ﴾[2]

تزود من حياتك للمعاد وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا كثيرا فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

قوله تعالى ﴿ **بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون** ﴾ .

هذا إنكار صريح منهم لبعث الأجسام بعد الموت ﴿ **إن هؤلاء ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين** ﴾[3]

قال تعالى ردا عليهم ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون . إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم . إن شجرة الزقوم طعام الأثيم . كالمهل يغلى فى البطون . كغلى الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم .

ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون . إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم . فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم . فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون . فارتقب إنهم مرتقبون ﴾[4] .

وقوله ﴿ **لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾

أى قالوا : لقد وعدنا هذا الوعد الذى تعدنا به ووعد آباؤنا من قبل مثل هذا على أيدى قوم زعموا أنهم رسل الله ، ثم لم يجد ذلك مع طول العهد .

ثم زادوا فى تأكيد الانكار فقالوا :

﴿ **إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ أى ما هذا الذى تعدنا به من البعث بعد الممات إلا أكاذيب قد تلقفناها منهم دون أن يكون لها ظل من الحقيقة ولا نصيب من الصحة .

ونحو الآية قوله جل شأنه ﴿ **ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ، أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا** ﴾[5]

وقوله ﴿ **أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيممبين .وضرب لنا مثلا ونسى خلقه**

(١) سورة الروم (٤٠ .)
(٢) سورة الغاشية (٢٥/ ٢٦)
(٣) سورة الدخان (٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦)
(٤) سورة الدخان (٣٨ الى٥٩ .)
(٥) سورة مريم (٦٦/ ٦٧)

قال من يحيى العظام وهى رميم. قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[١]
وقوله ﴿ قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة . يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة . أئذاكنا عظاما نخرة . قالوا تلك إذا كرة خاسرة . فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾[٢].

ثم يقيم المولى الكريم الأدلة والبراهين على وحدانيته وقدرته وعلمه وإرادته فيتوجه إليهم بهذه الأسئلة فيقول لحبيبه ومصطفاه : .

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون . بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون ﴾ .

التفسير

فى هذه الآيات الكريمة الناطقة بالحق المبين الدالة على صدق اليقين يقرر سبحانه وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذى لا إله إلا هو ولا تنبغى العبادة إلا له وحده ، لا شريك له ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ ، أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لا شريك له فيها ، ومع هذا فقد أشركوا معه فى الالهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئا ولا يملكون شيئا ، ولا يستبدون بشىء بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى **﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾**[٣] فقال **﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ﴾** أى من مالكها الذى خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات . **﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ ﴿ سيقولون لله ﴾**

أى فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له . فإذا كان ذلك **﴿ قل أفلا تذكرون ؟ ﴾** أنه لا تنبغى العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره .

﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾ أى من هو خالق العالم العلوى بما فيه من الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات ، ومن هو رب العرش العظيم يعنى الذى هو سقف المخلوقات كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود عن رسول الله ﷺ انه قال : **« شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سماواته هكذا »** وأشار بيده مثل القبة وفى الحديث الآخر **« ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهن وما فيهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن الكرسى بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة »**[٤] .

ولهذا قال بعض السلف : إن مسافة ما بين قطرى العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين

---

(١) سورة يس (٧٧/ ٧٨/ ٧٩)
(٢) سورة النازعات (٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤)
(٣) سورة الزمر (٣)
(٤) الحديث رواه أبو داود فى سننه فى كتاب السنة رقم ١٨

ألف سنة . وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة .

وقال الضحاك عن ابن عباس : إنما سمى عرشا لارتفاعه ، وقال الأعمش عن كعب الأحبار : إن السموات والأرض فى العرش كالقنديل المعلق بين السماء والأرض ، وقال مجاهد : ما السموات والأرض فى العرش إلا كحلقة فى أرض فلاة ، وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : العرش لا يقدر قدره أحد : وفى رواية إلا الله عز وجل ، وقال بعض السلف : العرش من ياقوتة حمراء ولهذا قال هنا . ﴿ **ورب العرش العظيم** ﴾ أى الكبير وقال فى آخر السورة ﴿ **رب العرش الكريم** ﴾ أى الحسن البهى فقد جمع العرش بين العظمة فى الاتساع والعلو والحسن الباهر ولهذا قال من قال إنه ياقوتة حمراء .

ـ وقال ابن مسعود : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش نور وجهه وقوله ﴿ **سيقولون لله قل أفلا تتقون** ﴾ أى إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه ، فى عبادتكم معه غيره واشراككم به قال أبو بكر عبد الله محمد بن أبى الدنيا القرشى فى كتاب التفكير والاعتبار : حدثنا اسحق بسنده عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يحدثنا عن امرأة كانت فى الجاهلية على رأس جبل معها ابن لها يرعى غنما فقال لها ابنها يا أمه من خلقك ؟قالت الله قال فمن خلق أبى ؟ قالت الله قال فمن خلقنى ؟ قالت:الله قال:فمن خلق السموات ؟ قالت الله قال فمن خلق الأرض ؟ قالت الله قال فمن خلق الجبل ؟ قالت:الله قال:فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت الله قال فانى اسمع لله شأنا ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع .

﴿ **قل من بيده ملكوت كل شىء** ﴾ أى بيده الملك . ﴿ **ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها** ﴾ **أى متصرف فيها وكان رسول الله ﷺ يقول ﴿ لا والذى نفسى بيده** ﴾ وكان إذا اجتهد فى اليمين قال : «**لا ومقلب القلوب فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف** .

﴿ **وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون** ﴾ .

كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحدا لا يخفر فى جواره ، وليس لمن دونه أن يجير عليه . ولهذا قال الله ﴿ **وهو يجير ولا يجار عليه** ﴾ . أى هو السيد العظيم الذى لا أعظم منه الذى له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه الذى لا يمانع ولا يخالف وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن :

وقال الله ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ أى لا يسأل عما يفعل لعظمته وكبريائه وغلبته وقهره وعزته وحكمته وعدله فالخلق كلهم يسألون عن أعمالهم كما قال تعالى ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين.عما كانوا يعملون** ﴾[٢] .

وقوله ﴿ **سيقولون لله**) أى سيعترفون أن السيد العظيم الذى يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿ **قل فأنى تسحرون** ﴾ أى فكيف تذهب عقولكم فى عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك ثم قال تعالى ﴿ **بل أتيناهم بالحق** ﴾ وهو الاعلام بأنه لا إله إلا الله وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك .

﴿ **وإنهم لكاذبون** ﴾ أى فى عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك كما قال فى آخر السورة ﴿ ومن

(١) سورة الانبياء (٢٣)
(٢) سورة الحجر ٩٢-٩٣ .

يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾[١] فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ماهم فيه من الافك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعا لآبائهم واسلافهم الحيارى الجهال كما قال الله عنهم :

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾[٢]

قوله تعالى ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾

التفسير

سبحانك ربى أنت الواحد فى ذاتك ، لا قسيم لك ، الواحد فى صفاتك لا شريك لك الواحد فى خصالك لا شريك لك ، تنزه عن الشريك ذاتك ، وتفردت عن مشابهة الأغيار صفاتك ، بالبر معروف وبالاحسان موصوف ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة .

﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد. لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾ .[٣] .

تنزهت عن الولد والوالد . ﴿ ما اتخذ الله من ولد ﴾

وتنزهت عن الشريك والصاحبة ﴿ وما كان معه من إله ﴾ إذ لو تعددت الآلهة لفسدت السموات والأرض .

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾[٤] .

﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا. سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾[٥] . لو كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق ولنازل بعضهم بعضا ، ليعلو بعضهم على بعض ويغلبه ، أما وقد قام الكون على نسق رتيب ونظام بديع فدل ذلك على أن له إلها واحدا . ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم. ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير. قد جاءكم بصائر من ربكم ﴾[٦] إنه الواحد عالم الغيب والشهادة أحاط علمه بما حضر وما غاب وهو يعلم الظاهر والباطن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور فتعالى وتنزه عما يشركون من ولد وصاحبة وشريك .

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٧] .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد .
يا حى قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنى الجنين الساجد .

---

(١) سورة المؤمنون (١١٧)
(٢) سورة الزخرف (٢٢)
(٣) سورة الاخلاص (١/ ٢/ ٣/ ٤)
(٤) سورة الانبياء (٢٢)
(٥) سورة الاسراء (٤٢/ ٤٣/ ٤٤)
(٦) سورة الانعام (١٠١/ ١٠٢/ ١٠٣/ ١٠٤)
(٧) سورة الحشر (٢٢/ ٢٣/ ٢٤)

توجيه وإرشاد

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨)﴾

التفسير

هذا ارشاد من الله تعالى وتوجيه لنبيه ومصطفاه يأمره فيه أن يدعو الله تعالى ، أن أراه عذاب هؤلاء ، يدعو الله قائلا **﴿ رب فلا تجعلني فى القوم الظالمين ﴾**

فما أجمل هذه الدعوة حين نزول العذاب على كل جبار عنيد جاء فى الحديث الذى رواه الامام أحمد والترمذى وصححه « واذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون »

قوله تعالى **﴿ وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ﴾** .

هذا إخبار مؤكد عن قوله الحق وله الملك ، يقول فيه للصادق المصدوق إنا لقادرون على ان نريك ما نعدهم من العذاب **﴿ وماكان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا ﴾** سبحانه كل شيء قائم به وكل شيء خاشع له عز كل ذليل وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فاليه منقلبه .

ثم قال تعالى مرشدا له إلى الترياق النافع فى مخالطة الناس وهو الاحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة فقال تعالى **﴿ ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴾**

وهذا هو الدواء الناجح والجواب النافع لشياطين الانس ان تقابل سيئتهم بالحسنة .

أما شياطين الجن فقد بين الله الدواء والعلاج والشفاء من وساوسهم فقال **﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين. وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾** .

وقد جاء هذا الدواء فى سورة الأعراف مرة بشأن شياطين الانس فى قوله تعالى **﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾**[1] هذه الآية لما نزلت على رسول الله ﷺ ، سأل الأمين جبريل عنها قال جبريل لا ادرى حتى اسأل رب العزة ثم قال لاستاذ الانسانية الأكبر يا رسول الله ربك يقول لك معناها **ان تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك** اما شياطين الجن فإن الله وصف علاجهم فى هذه السورة فى قوله **﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾**[2]

---

(١) سورة الاعراف (١٩٩)

(٢) سورة الاعراف (٢٠٠ ـ ٢٠١ .

كما جاء ذلك الدواء فى سورة فصلت ففى شياطين الانس يقول تعالى مبينا العلاج ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا** ﴾ أى فى الدنيا ﴿ **وما يلقاها الا ذو حظ عظيم** ﴾ أى فى الآخرة .

يخاطبنى السفيه بكل قبح وآبى أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة وازيد حلما كعود زاده الإحراق طيبا

ثم يبين الله تعالى لنا علاج شياطين الجن فيقول :

﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم** ﴾

وهنا فى سورة المؤمنون يقول ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين** ﴾ وكان رسول الله ﷺ - يقول:« **أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه** » (١)

والهمزات : الوساوس المغرية بمخالفة ما أمرنا به

﴿ **وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ أى فى شىء من أمرى ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور .

ولهذا روى ابو داود ان رسول الله ﷺ كان يقول : « **اللهم انى اعوذ بك من الهرم واعوذ بك من الهدم ومن الغرق واعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت** » (٢) .

قال الامام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن اسحق عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع « **باسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون** » قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها فى عنقه (٣) .

حالهم عند الموت وبعض مشاهد القيامة

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى سننه فى كتاب الصلاة رقم ١١٩ ، ١٢٠ ، والترمذى فى أبواب الاقامة رقم ٦٥ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٢ ، وفى أبواب الصلاة رقم ٣٣ ، وأحمد فى مسنده ١/٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٣/٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٦/ ١٥٦

(٢) الحديث رواه أبو داود فى سننه فى كتاب الوتر رقم ٣٢ ، والنسائى فى سننه فى كتاب الاستعاذه رقم ٦١ ، وأحمد فى مسنده ٢/ ٣٥٦ ، ٣ / ٤١٧ .

(٣) الحديث رواه أحمد فى مسنده وأبو داود والترمذى وقال حسن غريب (المسند ٢ / ١٨١ ، عون المعبود ١ / ٣٨٦ رقم ٣٨٧٥ كتاب الطب ، باب كيف الرقى ، تحفة الأحوذى ٩/ ٥٠٧ أبواب الدعوات رقم ٣٥٩٠)

بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

معانى المفردات

برزخ : أى حاجز بينهم وبين الرجعة .
ولا يتساءلون : أى لا يسأل بعضهم بعضا .
موازينه : إما المراد بها الموزون من الأعمال وإما المراد الميزان .
المفلحون : أى الفائزون .
خسروا أنفسهم : أى غبنوها .
تلفح : أى تحرق .
كالحون : أى عابسون متقلصو الشفاه
الشقوة والشقاوة : سوء العاقبة وهى ضد السعادة
اخسئوا : أى اسكتوا سكوت ذلة وهوان

سخريا : أى هزوا .

ذكرى : أى خوف عقابى .

اللبث : الاقامة .

العادين : الحفظة العادين لأعمال العباد وأعمارهم

والعبث : ما خلا من الفائدة

الحق : أى الثابت الذى لا يبيد ولا يزول ملكه

والعرش : هو مركز تدبير العالم ووصفه بالكريم لشرفه وكلّ ما شرف فى جنسه يوصف بالكرم كما فى قوله : ﴿ وزرع ومقام كريم ﴾ وقوله : ﴿ وقل لهما قولا كريما ﴾

يدعو : يعبد

حسابه : أى جزاؤه

التفسير

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ .

هذه حال الكافرين والمفرطين فى جنب الله عند الاحتضار يتمنون العودة إلى الدنيا ولكن هيهات لا وسيلة ولا حيلة قال الله تبارك وتعالى ﴿ **وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين.ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون** ﴾[١] .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾[٢] .

ونحوه قوله تعالى ﴿ **أن تقول نفس ياحسرتىَ على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين.أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين** ﴾[٣]

ونحوه قوله تعالى :

﴿ **ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون** ﴾[٤] .

وقوله ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين.بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون.وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** ﴾[٥]

يا ابن آدم :

(١) سورة المنافقون ١٠ - ١١

(٢) سورة الاعراف (٥٣)

(٣) سورة الزمر (٥٦/ ٥٧/ ٥٨/ ٥٩)

(٤) سورة السجدة (١٢)

(٥) سورة الانعام (٢٧/٢٨/٢٩)

تزود من التقوى فانك لا تدرى إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأضحى ضاحكا وقد نسجت اكفانه وهو لا يدرى
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد ادخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت ارواحهم ليلة القدر
وكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حينا من الدهر

فاعجب معى لغافل وليس بمغفول عنه ، واعجب معى لمؤمل فى الدنيا والموت يطلبه ، واعجب معى لضاحك ملء فيه لا يدرى الله راض عنه ام ساخط عليه .

وأعجب معى لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، ولمن يؤمن بالنار كيف يضحك ، ولمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، ولمن يؤمن بالرزق كيف ينصب ، ولمن رأى الدنيا وتقلبها باهله ثم اطمأن قلبه إليها .

واحزن معى لفراق الاحبة محمد وصحبه ، ولهول المطلع عند سكرات الموت ، وللوقوف بين يدى الله لا يدرى الواقف اينطلق به إلى الجنة أم إلى النار

فاحذر التسويف فإن الموت يأتى بغتة واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل واعلموا انكم غدا بين يدى الله موقوفون عن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾[1] .

ان الذين يتمنون الرجعة إلى الدنيا عند مجىء الموت يقول الله لهم ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ وكلا هنا حرف ردع وزجر أى لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه .

وقوله تعالى ﴿ **إنها كلمة هو قائلها** ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم : أى لابد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ويحتمل ان يكون ذلك علة لقوله كلا أى لأنها كلمة أى سؤاله الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه وقوله لا عمل معه ولو رد لما عمل صالحا ولكان يكذب فى مقالته هذه كما قال تعالى ﴿ **ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون** ﴾[2]

قال قتادة : والله ما تمنى ان يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولا بان تجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى ان يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار .

وقال محمد بن كعب **القرظى** (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون.لعلى أعمل صالحا فيما تركت) قال فيقول الجبار ﴿ **كلا إنها كلمة هو قائلها** ﴾

وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة : اذا قال الكافر ﴿ **رب أرجعون . لعلى أعمل صالحا** ﴾ يقول الله تعالى : كلا كذبت .

وقال قتادة فى قوله تعالى ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت** ﴾ قال كان العلاء بن زياد يقول :

---
(١) سورة الشعراء (٢٢٧)
(٢) سورة الانعام (٢٨)

(لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى) وقال قتادة : والله ما تمنى إلا ان يرجع فيعمل بطاعة الله فانظروا امنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله .

وعن أبى هريرة قال : إذا وضع (يعنى الكافر) فى قبره فيرى مقعده من النار قال : فيقول رب ارجعون اتوب وأعمل صالحا قال : فيقال قد عمرت ما كنت معمرا قال فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمتهوش ينام ويفزع تهوى إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصى من أهل القبور تدخل عليهم فى قبورهم حيات سود أودهم حية عند رأسه وحية عند رجليه يقرضانه حتى يلتقيا فى وسطه فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله تعالى ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾

وقال أبو صالح وغيره فى قوله تعالى ﴿ ومن ورائهم ﴾ يعنى أمامهم وقال مجاهد : البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة وقال محمد بن كعب : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم ﴿ ومن ورائهم برزخ ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى ﴿ من ورائهم جهنم ﴾

وقال تعالى ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾

وقوله تعالى ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أى يستمر به العذاب إلى يوم البعث . قوله تعالى ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون :)

يخبر تعالى انه إذا نفخ فى الصور نفخة النشور وقام الناس من القبور ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾

أى لا تنفع الانسان يومئذ ولا يرثى والد لولده ولا يلوى عليه قال تعالى ﴿ ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم ﴾ أى لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره ولو كان عليه من الاوزار ما قد اثقل ظهره وهو كان أعز الناس عليه فى الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة قال تعالى ﴿ يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه ﴾[1]

وقال ابن مسعود : اذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد : الا من كان له مظلمة فليجىء فليأخذ حقه قال فيفرح المرء ان يكون له الحق على والده أو ولده أو وزوجته وان كان صغيرا ومصداق ذلك فى كتاب الله قال الله تعالى ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾

روى الامام أحمد بسنده عن رسول الله ﷺ انه قال : (فاطمة بضعة منى يغيظنى ما يغظيها وينشطنى ما ينشطها وان الانساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى وصهرى)[2] .

وهذا الحديث له أصل فى الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال (فاطمة بضعة منى يريبنى ما يريبها ويؤذينى ما آذاها)[3] .

---

(١) سورة عبس (٣٤ / ٣٥ /٣٦)

(٢) راجع المسند للامام أحمد ٤ /٣٢٣ ، ٣٣٢

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب النكاح رقم ١٠٩ ، ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة رقم ٩٣ ، ٩٤ ، وأبو داود فى سننه فى كتاب النكاح رقم /١٢ ، والترمذى فى أبواب المناقب رقم ٦ ، وابن ماجه فى سننه فى أبواب النكاح رقم ٥٦ ، وأحمد فى مسنده ٤ / ٣٢٨ .

وقال الامام أحمد عن أبي سعيد الخدرى عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر (ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه ؟ بلى والله إن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة وإنى أيها الناس فرط لكم إذا جئتم. قال رجل يا رسول الله أنا فلان بن فلان فأقول لهم : أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدى وارتددتم القهقرى ﴾[١] .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ من طريق أبى القاسم البغوى عن محمد بن عياد بن جعفر سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ (كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى ﴾

وروى فيها من طريق عمار بن سيف عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعا (سألت ربى عز وجل ألا أتزوج إلى أحد من أمتى ولا يتزوج إلى أحد منهم إلا كان معى فى الجنة فأعطانى ذلك ﴾

قوله تعالى ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾

أى من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة قاله ابن عباس ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ أى الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة .

وقال ابن عباس : أولئك الذين فازوا بما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا ﴿ ومن خفت موازينه ﴾ أى ثقلت سيئاته ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ أى خابوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة .

روى البزار بسنده عن انس بن مالك قال : ان لله ملكا موكلا بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتى الميزان فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، وان خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا[٢] .

ولهذا قال تعالى ﴿ فى جهنم خالدون ﴾ أى ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون .

قوله تعالى ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ كما قال تعالى ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾[٣] .

وقال تعالى ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾[٤] .

- عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (إن جهنم لما سيق لها أهلها يلقاهم لهبها ثم تلفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب)[٥]

- وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : فى قوله تعالى ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ قال تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم[٦] .

وقوله تعالى ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ عن ابن عباس يعنى عابسون وعن عبد الله بن مسعود ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ قال ألم تر إلى الرأس المشيط الذى قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه وقال الامام أحمد عن أبى

---

(١) راجع المسند للامام أحمد ٣ /١٨ ، ٣٩

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٥ / ٤٩٠ : ط الشعب رواه البزار ، واسناده ضعيف ، فإن داود بن المحبر متروك .

(٣) سورة إبراهيم (٥٠)

(٤) سورة الانبياء (٣٩)

(٥) الحديث رواه ابن أبى حاتم ، تفسير ابن كثير ٥/٤٩٠ ط الشعب

(٦) رواه ابن مردويه ، تفسير ابن كثير ٥ / ٤٩٠

سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال:﴿ وهم فيها كالحون ﴾ قال تشويه النار فتقلص شفته العليا تضرب حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته .[١]

قوله تعالى ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون.قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ .

هذا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التى أوبقتهم فى ذلك ، فقال تعالى:﴿ **ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون** ﴾ أى قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت إليكم الكتب وازلت شبهكم ولم يبق لكم حجة كما قال تعالى : ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾[٢] وقال ﴿ **وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾[٣] وقال تعالى ﴿ **كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير** ﴾ إلى قوله ﴿ **فسحقا لأصحاب السعير** ﴾[٤]

ولهذا قالوا ﴿ **ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين** ﴾ أى قد قامت علينا الحجة ولكن كنا اشقى من ان ننقاد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها ثم قالوا ﴿ **ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون** ﴾

أى اردنا إلى الدنيا فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة كما قال ﴿ **فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل** ﴾ إلى قوله ـ﴿ **فالحكم لله العلى الكبير** ﴾[٥]

أى لا سبيل إلى الخروج لانكم كنتم تشركون بالله اذا وحده المؤمنون قال تعالى ﴿ **قال اخسئوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون . إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون** ﴾ .

قال العوفى عن ابن عباس ﴿ **اخسئوا فيها ولا تكلمون** ﴾ قال هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم معه :

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : (إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ثم يرد عليهم إنكم ماكثون قال هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك ثم يدعون ربهم فيقولون ﴿ **ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون** ﴾ قال فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم ﴿ **اخسئوا فيها ولا تكلمون** ﴾ قال فوالله ما نبس لقوم بعدها بكلمة واحدة وما هو إلا الزفير والشهيق فى نار جهنم قال تشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق .[٦]

وقال ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود (إذا أراد الله تعالى الا يخرج منهم أحدا يعنى من جهنم غير وجوههم وألوانهم فيجىء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول يارب فيقول الله من عرف أحدا

---

(١) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ٣ / ٨٨ ، والترمذى فى أبواب جهنم رقم ٥ ، وفى أبواب التفسير تفسير سورة المؤمنون ، وقال هذا حديث حسن صحيح غريب

(٢) سورة النساء (١٦٥)

(٣) سورة الاسراء (١٥)

(٤) سورة الملك ، الآيات : ٨ ـ ١١

(٥) سورة غافر (١١ ، ١٢)

(٦) تفسير ابن كثير ٥ / ٤٩٢ ط الشعب

فليخرجه فيجيء الرجل من المؤمنين فينظر فلا يعرف أحدا فيناديه الرجل يا فلان أنا فلان فيقول ما أعرفك قال فعند ذلك يقولون ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ فعند ذلك يقول الله تعالى ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم بشر[1] ثم قال تعالى مذكرا لهم بذنوبهم فى الدنيا وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه فقال تعالى ﴿ إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا ﴾ أى استهزأتم بهم وناصبتموهم العداء حتى شغلكم ذلك عن ذكرى ومخافتى فكانت عاقبتكم ما أنتم فيه وكنتم منهم تضحكون استهزاء واحتقارا قال تعالى ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾[2] .

اصبر على كيد الحسود فإن كيدك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

إن الدعاة الصادقين هم الذين يتجملون بالصبر على كيد الجاحدين قال تعالى ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبروما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . ﴾[3]

واقرأ معى قوله عز وجل ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم . ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين . ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾[4] .

حسبك يا أخى أن تعلم أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وحسبك أن تعلم أن العاقبة للمتقين وحسبك أن تعلم أنه لا عدوان إلا على الظالمين . وحسبك أن تعلم قول الله تعالى ﴿ إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ .

ألا يكفيك هذا الجزاء فكونوا أيها الدعاة مع الناس كالطبيب مع المريض شخصوا لهم الداء وصفوا لهم الدواء وتخلقوا بأخلاق النبات فكونوا معهم كالشجر يرمونه بالحجر فيرميهم بأطيب الثمر .

قوله تعالى ﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن أيفع بن عبد الكلاعى أنه سمعه يخطب الناس فقال : قال رسول الله ﷺ ﴿ إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال يا أهل الجنة كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم - قال - لنعم ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم رحمتى ورضوانى وجنتى

(١) تفسير ابن كثير ٥ / ٤٩٢ ط الشعب .
(٢) سورة المطففين (٢٩ / ٣٠ / ٣١ /٣٢)
(٣) سورة النحل (١٢٦ / ١٢٧ / ١٢٨)
(٤) سورة فصلت (٣٠ /٣١ / ٣٢ / ٣٣ / ٣٤ / ٣٥)

امكثوا فيها خالدين مخلدين ؟ ثم قال يا أهل النار كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فيقول بئس ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم نارى وسخطى امكثوا فيها خالدين مخلدين ؟ ﴾(١) .

هل فقهت معنى السؤال والجواب كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ كان هذا هو السؤال قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . كان هذا هو الجواب ﴿ قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ كان هذا هو القول الفصل من الملك الحق المبين . فالدنيا مهما أقبلت فهى مولية ومهما تزنيت فهى مكشرة .

هى الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار من بطشى وفتكى
فلا يغرركمو منى ابتسام فقولى مضحك والفعل مبكى

يا أيها العقلاء ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ﴾(٢)

ثم أنصت معى فى خشوع إلى قوله تعالى ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب.ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير ﴾(٣) .

ابن آدم :

دنياك ساعات صراع الزوال وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد يا غافلا وتشترى دنيا المنى والضلال

اعلم بأن الدنيا ساعة فاجعلها طاعة والنفس طماعة عودها القناعة .

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للانسان عمر ثان .
واصبر على نعم الحياة وبؤسها نعم الحياة وبؤسها سيان

(١) تفسير ابن كثير ٥ / ٤٩٣ ط : الشعب
(٢) سورة الحديد (٢٠ /٢١)
(٣) سورة الحديد (١٢ / ١٣ / ١٤ / ١٥)

نعم يارب العزة ﴿ قالوا إن لبثتم إلا قليلا ﴾ أى ما لبثتم إلا زمنا قليلا ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾(١)

لو كانوا يعلمون ان الدنيا ستطوى كما يطوى البرق ومعصرات الغمام لجعلوها مزرعة للآخرة كما فعل أولياء الله وأحباؤه

إن لله عبادا فطنا	طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا	أنها ليست لحى سكنا
جعلوها لجة واتخذوا	صالح الأعمال فيها سفنا

فاغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك

﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾(٢) .

قوله تعالى ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) أى أغرتكم الدنيا فظننتم أنما خلقناكم للهو واللعب بلا هدف ولا غاية ولا حكمة ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون.ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾(٣) .

﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم ﴾(٤) .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهمالاعبين.لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾(٥)

أيحسب الانسان أن يترك سدى هملا لا . لابد من الرجوع إلى الله فتعالى الله وتنزه عما يقولون علوا كبيرا فهو الملك المتصرف فى ملكه بمشيئته وحكمته لا يظلم أحدا لأنه الحق ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ ﴿ لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض﴾ ﴿ ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾

فيا أيها الغافلون عن ذكر الله اعلموا ان الدنيا إذا حلت أوحلت وإذا كست أو كست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت جفت ، وكم من قبور تبنى وما تبنى ، وكم من مريض عدنا وما عدنا وكم من ملك رفعت له علامات فلما علا مات

قوله تعالى ﴿ ومن يدع مع الله إلها آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون . وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ .

(١) سورة النازعات (٤٦)
(٢) سورة المزمل (٢٠)
(٣) سورة الذاريات (٥٦/ ٥٧/ ٥٨)
(٤) سورة الحجر (٨٥ / ٨٦)
(٥) سورة الأنبياء (١٦ / ١٧ / ١٨)

يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره وعبد معه سواه ، ومخبرا أن من أشرك بالله لا برهان له أى لا دليل له على قوله فقال تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به ﴾ وهذه جملة معترضة وجواب الشرط فى قوله ﴿ فإنما حسابه عند ربه ﴾ أى الله يحاسبه على ذلك ، ثم أخبر ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾ أى لديه يوم القيامة لافلاح لهم ولا نجاة . قال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ قال لرجل « ماتعبد » ؟ قال أعبد الله وكذا وكذا حتى عد أصناما فقال رسول الله ﷺ (فأيهم إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك) قال : الله عز وجل . قال « فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها ؟ » قال الله عز وجل قال : « فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه » قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه . فقال رسول الله ﷺ « تعلمون ولا يعلمون» فقال الرجل بعد ما أسلم لقيت رجلا خصمنى .

وقوله تعالى ﴿ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء ، فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه فى الأقوال والأفعال .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

تسع سنوات ما حجبته قاهرات الظروف عن مريديه وأحبائه صوتاً ، إلا كان فيهم ولهم فكراً أضاء ، وعلماً أفاد ، ومنهجاً فريداً ومتميزاً فى تفسير آيات الكتاب الكريم ...

تسع سنوات شاب فيها شعره ، واعتلت صحته ، عف فيها أن يستجدى عفواً عن جريرة وجهت إليه لأنه بالحق صدع وبه نطق .. وظل فى بيته على القرآن عاكفاً فبدد ظلمات لياليه ، واتسع به ضيق صدره ، وأحال المحنة منحة بها يفرح ، فهو العلم النافع الذى يضيف إلى حسناته إلى قيام الساعة ..

وما أن حجب صوته ، حتى شاع فكره .. فتحولت الآذان الصاغية إليه إلى عيون متلهفة تقرأ وتستوعب من فكره (المطبوع) بالعلم ويقين الفطرة ، وصوت الإيمان ، فكان أن توالت بفضل الله وعونه تفسيراته لأجزاء الكتاب الكريم جزءاً فجزءاً ، حتى أتم الله نعمته عليه وعلى المسلمين وعلينا فكان « فى رحاب التفسير » وخاتمته للجزء الثلاثين من القرآن الكريم ...

إن الداعية الإمام وقد اختتم تفسير أجزاء الكتاب الكريم ، إنما يؤذن فى الناس بأن رسالته لن تنقطع ما أمد الله فى عمره ، وإنه فى رحاب الإسلام يتسع المجال لاجتهاد المجتهد ليؤكد حكمة الأزل بأن متغييرات الزمان والمكان لا تنال من كتاب كان وسيظل للناس نهجاً ومنهجاً ، طريقاً وسبيلاً لصلاح دينهم ودنياهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

إن تفسير الداعية الإمام لآيات الكتاب الكريم والذى اكتمل الآن - إنما هو إضافة لاجتهاد من سبقوه بمنظار عصره ومعايشة واقعه وإيقاع زمانه ليؤكد ما هو مؤكد بأن الإسلام وكتابه ، إنما هو دين كل زمان ومكان ..

إن هذا العمل العظيم بهذا الجهد المبدع هو دلالة على أن مصر بعلمائها وأعلامها كانت وستظل أبداً بإذن الله للإسلام منارة لهديه وتبشيراً بنهجه .

وبإكمال هذا العمل العظيم هل لنا أن نأمل أن يواكب صدور الجزء القادم من « فى رحاب التفسير » خبر عودة الشيخ إلى منبره واستئنافه رسالته التى ما انقطعت يوماً من الأيام .

نسأل الله سبحانه للداعية الإمام بموفور الصحة والعافية ، كما نسأله سبحانه أن يجعل من عمره المديد بإذنه .. نبعاً يغدق وعلماً ينفع ، وشفاعةله ولنا يوم لا ظل إلا ظله ولا نجاة إلا لمن أتى الله بقلب سليم ، وعمل ينفع عباده المخلصين .



مطابع الاهرام التجارية - قليوب - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم
« وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم »

□ ... وأدرك الشيخ شاطئه ، وعهد إلينا بمجلدات أخيرة ، فى طياتها الجزء الثلاثون من « فى رحاب التفسير » الذى كان له خير صاحب طيلة ثمانى سنوات قضاها فى بيته .. ممنوعاً من اعتلاء منبره ، محروما من تبليغ دعوته ..

ثمانى سنوات شاب فيها شعره ، واعتلت صحته ، عف فيها أن يستجدى عفواً عن جريرة وجهت إليه لأنه بالحق صدع وبه نطق .. وظل فى بيته على القرآن عاكفاً فبدد ظلمات لياليه ، واتسع به ضيق صدره ، وأحال المحنة منحة بها يفرح ، فهو العلم النافع الذى يضيف إلى حسناته إلى قيام الساعة ..

هل لنا أن نتطلع إلى ولاة الأمر فنسألهم أن يرفعوا الأسوار التى ظنوا أنهم بها قد حالوا بين الشيخ ومريديه ، وهم بها قد حرموا أنفسهم من رحمة الله !!

هل لنا أن نتطلع إلى ولاة الأمر ونسألهم أن يرفعوا الحجب عن الشيخ ، إذ بحجبهم له قد يحجبون خيراً وغيثاً من أن يتنزل على هذا البلد الطيب الأمين وهم لا يعلمون !!

هل لنا أن نأمل أن يواكب صدور الجزء القادم من « فى رحاب التفسير » خبر عودة الشيخ إلى منبره واستئنافه رسالته التى ما انقطعت يوماً من الأيام ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » !!

هل لنا أن نسأل ولاة الأمر أن يرفعوا أيديهم عن ثروات بشرية تشرئب لها أعناق الأمم فتكون فى أيدينا موضع الاضطهاد والإهمال والتنكيل وهم أهل للاعتزاز والافتخار !!

هل لنا أن نبشر أصحاب الشرائط التى تتجاوز المائة الرابعة لخطب الشيخ وأحاديثه أن المستقبل سيحمل لهم المزيد بدلاً من اجترار القديم طوال السنوات الثمان ...

ألا انه أمر عظيم .. نربأ بمسلم أن يلقى الله وعليه وزره .. ألا إن الله قد قال .. « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » ... ورسولنا قال عليه الصلاة والسلام « **الظلم ظلمات يوم القيامة** ... »

اللهم انا نسألك أن نكون ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ...
اللهم هل بلغت ... اللهم فاشهد .

احمد يحيى

(الثمن جنيهان)

03348102

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر